إصداراتنا الرقمية (245)
سلسلة المنوعات (37)

عُيُوبُ النَّفْسِ
وَأَسْبَابُهَا وَأَدْوِيَتُهَا

محتوى علمي غزير فيه ما يزيد على (100) عيب و (200) سبب و (300) دواء

مستخلصة من عيوب النفس السلمي (ت 412 هـ)
ونظمها لززوق (ت 889 هـ) وشرحها الخروبي (ت 963 هـ)

الأستاذ الدكتور صلاح أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
جامعة العلوم الإسلامية العالمية

نور العلماء

عيوب النّفس .....

..... وأسبابها وأدويتها

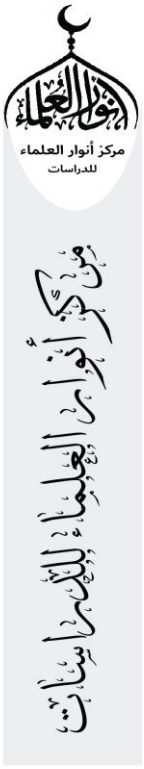

الطبعة الرقمية الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م

حقوق الطبع محفوظة

إصدار
مركز أنوار العلماء للدراسات
التابع
لرابطة علماء الحنفية العالمية
World League of Hanafi Scholars

جوال 00962781408764

البريد الإلكتروني anwar_center1995@yahoo.com

الدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر

عـيـوب النـفـس

وأسبابها وأدويتها

محتوى علمي غزير فيه ما يزيد على
(100) عيب و(200) سبب و(300) دواء
مستخلصة من عيوب النفس للسُّلمي (ت412هـ)
ونظمها لزروق (ت889هـ) وشرحها للخروبي (ت963هـ)

للأستاذ الدكتور صلاح أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
جامعة العلوم الإسلامية العالمية

مركز أنوار العلماء للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المربيين، والمبعوث رحمة للعالمين، وبصيرة للمتقين، وهداية للراغبين، وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

وبعد:

فأثناء وضع خطة بكالوريوس الإصلاح الأسري، رغبنا أن تكون إحدى المواد تتكلم عن النفس الكاملة التي يسعى كل فاضل وصالح للوصول إليها، وكانت الفكرة للوصول لذلك أن يقسم على قسمين:

الأول: يدرس فيه شخصية حضرة النبي ﷺ كصفات وأخلاق وسلوكيات وآداب؛ ليكون ﷺ المثل الأعلى والنموذج الأكمل؛ الذي يسعى كل مسلم خيّر الوصول إلى شيء من كمالاته، وبعد المشاورة وجدنا أن من أفضل ما كتب في هذا الجانب كتاب «محمد رسول الله ﷺ...» للشيخ عبد الله سراج الدين، فانصرفت إلى الاستفادة منها لاستخراج مادة علمية أكاديمية تربوية تحقق المقصود، فاختصرت زبدة علمية منه، وأعدت ترتيبها وتهذيبها، وأضفت عليها (150) حديثاً، من الجامع الصغير للسيوطي مع شرح للمناوي، بحيث تتكامل مادة علمية مناسبة تحقق المقصود.

والثاني: يدرس فيه عيوب النفس وعلاجها، بحيث يتمكن الدارس من التعرف على العيوب للنفس ليتفاداها إن لم توجد، ويعالجها إن وجدت، فيصل بنفسه للكمال المطلوب.

وأشهر ما كتب في هذا هو كتاب «عيوب النفس» للإمام أبي عبد الرحمن

السلمي، (٣٣٠ - ٤١٢ هـ)، ويعدّ العمدة في الباب، حتىٰ أن مَن جاء بعده عوّل عليه.

فقام الإمام الشهير أحمد زروق (ت846- 889هـ) بنظمه في مئات الأبيات الشعرية، حتىٰ استوعب ما ورد فيها من عيوب وأدوية واستدلالات قرآنية وحديثية وأقوال للعلماء، وأضاف إليها فوائد جمة تزيد عن الضعف فيما ذكره السلمي في «عيوب النفس» مع اجتهاد في وضع أسباب للأمراض، وإضافة عيوب مع تفصيل وتوضيح لها وزاد أدوية لعلاجها؛ لأنه جعل كتاب السلمي أصلاً، وبنىٰ عليها كل ما رآه مناسباً، والمكانة العلمية الرفيعة التي وصلها مكنته من القيام بالأمر علىٰ أفضل ما يكون.

لذلك وجدنا الإمام محمد بن علي الخروبي (888- 963هـ) أقبل علىٰ النظم للإمام زروق بالشرح والتوضيح، فصرف جهده لتوضيح كلّ ما ورد فيه، فكان شرحه مداره علىٰ بيان معاني الأبيات ومفرداتها، وأضاف إليها ضعف المادة العلمية المذكورة فيها من جهة تفصيل الأسباب للعيوب وذكر الأدوية لها مع تفصيل واستشهاد بآيات وأحاديث وآثار وأقوال عن أئمة الفن، فجمع مادة علمية رائعة جداً.

لكن هذه المادة العلمية مع جودتها لا تصلح أن تكون مادة أكاديمية ينتفع منها الطلبة؛ لاحتياجها للتهذيب والترتيب والتقسيم.

لذلك عزمت النية لخدمتها بحيث يصبح بين أيدينا مادة سهلة منظمة يتمكن القارئ الكريم من فهمها والاستفادة منها علىٰ النحو الآتي:

أولاً: اختصار الاستطراد في شرح الخروبي، ويقدر بمعدل ثلث الكتاب.

ثانياً: تخريج الأحاديث الواردة، والاقتصار في الاستدلال علىٰ الأحاديث الواردة في المدونات الحديثية، فيمكن الزيادة والحذف في المذكور لأجل هذا.

ثالثاً: تحويل المادة إلى مادة أكاديمية، تحتوي على عيوب وأسباب وأدوية لها، فكل عيب لا بد من بيان أسباب وبيان أدويته على شكل نقاط واضحة بينة تسهل الفهم على القارئ للكتاب، وهذا أبرز عمل قدم في خدمته واستغرق جهداً كبيراً جداً.

رابعاً: إضافة كامل مادة كتاب عيوب النفس للسلمي داخل الكتاب من خلال مقولات السلمي سواء في بيان العيب أو بيان الدواء؛ لما فيها من الفائدة في الإضافة والتعبير والتوضيح والاستدلال.

خامساً: الزيادة بقدر ما يقتضيه المقام إن احتاج الأمر لذلك، بما يتوافق مع سياق الطرح العلمي الموجود، بحيث لا يختل التوازن للكتاب.

سادساً: تحويل أبيات نظم الإمام زروق من مشروحة إلى أبيات للاستدلال على المادة العلمية المطروحة، بحيث لو حذفت لا تؤثر على اتساق المادة وعلميتها.

سابعاً: اختصار المادة كاملة في نهاية الكتابة مقتصراً فيها على النقاط الرئيسية الشاملة للعيب وأسبابه وأدويته، بحيث يمكن دراستها للراغب سريعاً، ومن أراد التفصيل والشرح والتوضيح يرجع لتفصيل المادة في الداخل.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون سبيلاً لتطهير أنفسنا وتزكيتها وتخليصها من عيوبها التي لا تنتهي، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

الأستاذ الدكتور صلاح أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

17ـ 4ـ 2026م

في عمان، صويلح

العيب الأول
توهم النجاة

إن توهم العبد النجاة من العقوبة بمجرد عمل الأذكار والطاعات، مع إقامته على عيوب نفسه وإصراره على عظيم ذنبه من عيوب نفسه القادحة في حاله الموجبة للنقص في أقواله وأفعاله، فالأذكار والطاعات أسباب عندها لا بها، فلا ينجو أحد من عقوبة الله إلا بفضله ورحمته، والأسباب التي هي الطاعات لا تفيد مع إقامة العبد على عيوب نفسه، وإصراره على عظيم ذنبه، فتوهم النجاة حكم لا حقيقة له، وهو أضعف المراتب والأعمال مع الإقامة على عيوب النفس، والإصرار على الذنب، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

من عيبها: توهم النجاة .... بالأخذ في الأذكار والطاعات
مع أنها مقيمة بعيبها .... مصرة على عظيم ذنبها

قال السلمي: «فمن عيوب النفس أنه يتوهم أنه على باب نجاته يقرع الباب بفنون الأذكار والطاعات والباب مفتوح، ولكنه أغلق باب الرجوع على نفسه بكثرة المخالفات، فكيف ينجو العبد من عيوب نفسه وهو الذى أطلق لها الشهوات، أم كيف ينجو من اتباع الهوى، وهو لا ينزجر عن المخالفات».

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. الجهل بأمر الدين:

2. موجبات الفتح والتمكين:

وذلك أن من جهل أمر دينه، وما يتعلق بقواعده وأحكامه، وموجبات فتحه وتمكينه، غلب وهمه على يقينه بحكم مقتضى وهمه، فغلط في حكمه بغلبة جهله على علمه.

ولو كان عالماً بأمر دينه، لظفر بالنجاة من فضله، كما أن المواخذة بعدله، وذلك من جهل موجبات الفتح، والتمكين حيث يتوهم أن موجبات ذلك: الأذكار والطاعات، وليس الأمر كذلك، وإنما موجب الفتح والتمكين: الفضل، كما أن موجبات عدم ذلك: العدل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[النور:21].

وما يفتح الله تعالى به على قلوب أوليائه من العلوم، والأسرار، والحقائق، وغير ذلك من الفتوحات الإلهية، إذ كل فتح بحسب مقام صاحبه وحاله.

والتمكن في المراتب والمقامات والأحوال، وكل ذلك لا ينال بأعمال ولا اكتساب وإنما هي مواهب من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده المخلصين.

وذلك من جهل بأصل الدين .... وموجبات الفتح والتمكين

قال صالح المري: « من أدمن القرع يرجى الفتح له».

لصالح المري قول أصله .... من أدمن القرع يرجى الفتح له

فجعل قوله أصلاً، ولا شك أن من لازم باب الله بالإخلاص والصدق، واستعمل أسباب الوصلة، وموجبات القربة فتح له الباب.

قالت رابعة العدويه: «الباب مفتوح وأنت تهرب منه بفعلك فكيف تقرب، وكيف يصل لمقصده من أخطأ طريقه، ودونه قد حط الرجال، وكيف ينجو من عنان شهوته من أرخى لنفسه حبل غفلته».

والباب مفتوح غير مغلق، ولا مانع لمن أراد الدخول منه من القاصدين، والمتوجهين إلى الله تعالى على سبيل الصدق والإخلاص.

ومن أعرض عن الله تعالى بالخروج على سبيل الموافقة إلى سبيل المخالفة، والميل عن طريق الاستقامة إلى طريق الاعوجاج، واستبدل الرشد والهدى بالغي والردى والشر، وإلى هذه الأفعال الإشارة بفعلك أي بأفعالك المانعة لك من الدخول إلى باب الفتح.

واستبعاد لقرب من أفعاله أفعال المبعدين، ووصل من هو على سبيل المقطوعين.

ولا يصل إلى مقصده من أخطأ طريقه، وذلك أن الطريق الموصل إلى الله تعالى هو طريق الاستقامة، فمَن لم يكن سالك طريق الاستقامة الشرعية والسنة المحمدية، فقد أخطأ الطريق.

ودون المقصد حط الرحال: أي ترك السير، وانقطاع السالك من وصوله إلى ما قصده من الوصول إلى باب الرب، والقواطع هي أفعال المخالفات وارتكاب المعاص، واجتراح السيئات، ومن كانت موارده فمحال أن يبلغ مقاصده.

قالت له ربيعة العدويه .... كلمة صحيحة قويه
الباب مفتوح وأنت تهرب .... منه بفعلك فكيف تقرب
كيف يصل لمقصد من أخطأ .... طريقه ودونه قد حطـــا
وكيف ينجو من عنان شهوته .... من أرخى لنفسه حبل غفلته

ومن أرخى عنان شهوته وحبل غفلته لنفسه بعيد أن ينجو من عقاب ربه؛ لأن مَن اتبع شهوات نفسه، وغفل عن القيام بحقوق ربه استحق العقاب، ورتب عليه العتاب.

وإرخاء عنان الشهوة، وحبل الغفلة عبارة عن استرسال النفس في الشهوات، ولإقامتها في حال الغفلات، وهذا داء عضال، ومرض حياة صاحبه قريب من المحال، إلا أن يتداركه صاحبه بالمعاناة، فعسى أن ترجى له الحياة.

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأدوية منها:

1. تطييب الغذاء:

بأن يكون مع الحلال الذي لا شبهة فيه، فإن في طيب الغذا عونا على انقياد الجوارح إلى الطاعات، وحفظها من المخالفات في الحركات والسكنات، وللغذاء تأثير في العمل.

قال بعض الحكماء: «كل ما شئت فمثله تفعل».

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، فما أمرهم بالعمل الصالح إلا بعد ما أمرهم بأكل الطيبات، والمراد به هاهنا الحلال، فلما قدم الأكل من الطيبات بين يدي الأمر بالعمل الصالح علم من ذلك أن تحسين الغذا، وهو كونه حلالاً فيه عون على انقياد الجوارح التي تستمد من ذلك المأكول إلى الأعمال الصالحات.

وقال ابنُ الجلاب: «مَن لم يصحبه التقوى في قوته أكل الحرام».

2. تقوى الله تعالى:

والتقوىٰ من جملة الأعمال؛ إذ هي من الأعمال الباطنة التي يظهر أثرها في الظواهر، فإذا استعمل العليل بعلة استرسال النفس في الشهوات وإقامتها في ميدان الغفلات التقوىٰ وتحسين الغذا، فقد ظفر بالدواء المضاد لتلك العلّة المنفىٰ ويرجىٰ من الله الشفاء.

قال السلمي: «ومداواة هذه الحالة بما قاله سرىٰ السقطىٰ وهو سلوك سبيل الهدىٰ، وطيب الغذاء، وكمال التقىٰ».

دواء هذا المرض الذي عدا .... الأخذ بالتقىٰ مع طيب الغذا

وهذا كله مع وجود الصدق في الأحوال والإخلاص في الأقوال والأفعال، ولما كان في التقوىٰ وتحسين الغذا عوناً علىٰ انقياد الجوارح إلىٰ الطاعات حضوا عليه ورغبوا فيه وجعلوه من أساس الطريق، فلا بُدّ للمريد السالك من التحقق في التقوىٰ، ويجتهدّ كلّ الاجتهاد في تحسين غذائه.

فعن أبي سعيد ﷺ: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني قال: «عليك بتقوىٰ الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد في سبيل الله، فإنها رهبانية المسلمين، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه؛ فإنه نور لك في الأرض وذكر في السماء، واخزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان»[1].

وقال بعضهم: «التقوىٰ جماع الخيرات»، وحقيقة التقوىٰ أن يُطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر.

وقيل: «التقوىٰ مجانبة ما يبعدك عن الله تعالىٰ».

---

(1) في المعجم الصغير2: 156، والآداب للبيهقي1: 336، ومسند أبي يعلىٰ2: 183، و وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وقد وثق هو وبقية رجاله، كما في مجمع الزوائد10: 310.

لذلك قرروا لا مطمع لعاقل في النجاة من العقاب مع الإقامة على الذنب والإصرار عليه، إذ النجاة إنما وعد الله تعالى بها المتقين، فقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ...﴾ الآية.

والصحو من غمرات الغفلة وسكر الهوى لا يرتجى مع وجود عيب النفس القادح في صفو اليقين، فالطمع في النجاة مع الذنب، والرجا في الصحو مع العيب حال الحمقى

قال حكيم: وهو قول حسن .... متجه محقق مبين

لا تطمع النجاة مع ذنوبك .... ولا ترجو الصحو مع عيوبك

* * *

العيب الثاني

الاسترواح بالبكاء

فمن عيب النفس بكاؤها عند سماع المواعظ، أو ما ترق له عند سماعه، مع عدم تأثيرها من تلك المواعظ، وانفعالها منها، ثم تسرع إلى البكاء الكاذب الصادر منها على غير حقيقة، ولا يفيد لها فائدة تثمر لها ثمرة، وتجد عند هذا البكاء فرجاً من حزنها الذي اكتسبته مما اكتسبت، وابتهاجاً يزيل عنها كآبتها مما عملت، فإذا كانت النفس على هذه الحال وبهذه الصفة، فذلك من عيب كامن فيها.

قال السلمي: «ومن عيوبها: إذا بكت تفرجت ثم واستروحت».

من عيبها إذا بكت تفرجت .... من حزنها واستروحت فابتهجت

أولاً: سبب العيب:

ميلها إلى الراحة وطلبها للاستراحة:

ولو كان هذا البكاء بكاؤه بصدق وحزنه بحقّ؛ لكان بكاؤه في الحزن أشدُّ من بكائه على الحزن، فيزاد بكاؤوها لا أنها تفرح وتبتهج بعد بكائها.

وذلك من ميلها للراحه .... وطلب العبد للاستراحه

ثانياً: دواء العيب:

استحضاره المستمر لمعاصيه وتقصير في طاعاته:

وحق الله تعالى عليه؛ ليكون في حزن دائم، فيبكي في حزنه على حاله؛ لعل الله يرحمه ويتجاوز عنه ويتقبله.

وقيل: القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب.

وقال الفضيل بن عياض: «كان السلف يقولون: إن على كل شيء زكاة، وزكاة العقل طول الحزن».

وقال سفيان بن عيينة: «لو أن محزوناً بكى في أمة لرحم الله تعالى تلك الأمة من بكائه».

فيكون الصواب في حاله البكاء في حزنه لا للخروج من حزنه لتبتهل نفسه، فالعبد الصادق بكاؤه في حالة الحزن، بل أشد من بكائه لأجل الحزن؛ لأن الحزن للعبد الصادق أصلح له وأحفظ لأدبه من عدمه، وكان حقُّه أن يكون بكاؤه في حالة حزنه أشد من بكائه عند فقده ولأجله.

دواؤه بكاؤه في الحزن .... عوض ما يبكي لأجل الحزن

إذ من حزنه يستروح .... وبالبكاء فيه يزيد الترح

قال السلمي: «ملازمة ـ أي الحزن ـ حتى لا يفزع إلى الاسترواح، فهو أن يبكي في الحزن ذلاً، مع البكاء، ولا يبكي من الحزن يستروح من بكائة، ومَن بكى في الحزن يزيده البكاء كمداً وحزناً».

فقد كانوا ملازمين للحزن، يفرحون لورود أسبابه عليهم، علماً منهم أن حالة الحزن أصلح لحالهم، واحفظ لآدابهم مع الله تعالىٰ، وقد كان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكر، وكذلك أهل الصدق في الإرادة.

قال ابن عطاء الله: «البسط تأخذ النفس منه حظها، والقبض لا حظ للنفس فيه».

قالوا: فإن الحزن يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة، فلذلك كان الحزن من أوصاف المريدين وأحوال السالكين، ومن آداب العارفين قال أبو علي الدقاق: «صاحب الحزن يقطع من طريق الحق في شهر ما لا يقطعه مَن فقده في سنين».

ومن هذا المعنىٰ في فضيلة الحزن كثير، وإذا كان الأمر كذلك، فحقّ علىٰ المريد، بل كلُّ مؤمن أن يكون بكاؤه عند فقد حزنه، فإذا وجده يبكي فيه لا لجله.

* * *

العيب الثالث

ظن الضر والنفع والرزق من غير الله تعالى

رجاء النفع من الخلق داء عضال، وكذلك وجود الخوف منهم.

وكيف يرجىٰ النفع ممن لا يقدر علىٰ نفع نفسه، فالأحرىٰ ألا يقدر علىٰ نفع غيره، فهو سبحانه مختصٌّ بأن يمدَّ الخلق بما فيه نفعهم، كما يختصُّ تعالىٰ بابتلائهم بما فيه مضرتهم، ومن أسمائه تعالىٰ: الضار، والنافع، فالنفع من فضله، والضر من عدله.

وهمُّ الرزق أيضاً من عيوب النفس، وهو داء ابتلىٰ به كثير من الخلق.

قال السّلمي: «ومن عيوبها: استكشافه الضر ممن لا يَملكه، ورجاؤه في النفع ممن لا يقدر عليه، واهتمامه بالرزق وقد تكفل له بالرزق».

من عيبها رجاء نفع الخلق .... وخوفهم أيضاً، وهم الرزق

أولاً: سبب العيب:

رؤية الخلق والغيبة عن الملك الحق:

وذلك من غلبة الأوهام .... والضعف في اليقين والأفهام

لأنّ من يفهم عن مولاه .... لم يرتج لشأنه سواه

فيكون السبب راجع لأوهامهم، وهي خواطر تنقدح في الباطن ينشأ عنها أمور خيالية لا حقيقة لها في الخارج إذا نظرت إليها بعين الحقيقة، ومن هذا المعنى رؤية الخلق وأفعالهم، فإنها أمر وهمي إذا اعتبرت ذلك على سبيل الحقيقة، وإن كانت الشريعة أثبتت ذلك ظاهراً.

والصواب من ذلك إثبات الخلق ظاهراً، ونفيهم باطناً، وكذلك أفعالهم، والمحقّق يحكم بذلك، وإذا كان الأمر هكذا، فكيف يرجو المحقِّق النفعَ منهم أو يخالفهم بلا قدرة لهم على نفع فيرجى منهم، ولا على ضرر فيخاف منهم إلا من حيثية مراعاة الوسائط والأسباب.

وغلبة الأوهام إنما تكون من ضعف اليقين والأفهام، فكلما ضعف اليقين والفهم قوي الوهم، وكلّما قوي الوهم كثر تصور الخيالات الوهمية، ويَنشأ عن ذلك أحكام باطلة منها إسناد الحكم لمن ليس هو له في الحقيقة، وأهل الفهم عن الله تعالى الذين قوي يقينهم، وانتفت عنهم الأوهام غيبهم الشهود عن رؤية كلّ مشهد، فشاهدوا الحقّ بعين الحقيقة، وغابوا عن رؤية الخليقة، فلم يثبتوا لهم ضراً ولا نفعاً، فاعتمدوا على الإله ولم يرتجوا لشأنهم أحداً سواه.

ثانياً: داوء المرض:

صحة الإيمان بوحدانية الذات والصفات والأفعال:

، فإذا صح إيمانه بذلك كله، وخلا من الشكوك والأوهام حصل على صريح التوحيد القاضي بعدم النظر إلى الأكوان، فلم يرها ولم يعول عليها لسبق فكره إلى وجود عجزها وفقرها، وأنها معزولة عن أن يصدر منها ضر أو نفع، فإذا تحقق ذلك لم يرتج من مخلوق نفعاً، ولم يخف أن يصدر له من أحدهم جلب ولا دفع، بل يرى جميع الأشياء الصادرة إليه إنما هي من الفاعل المختار، وهذا حال من صح إيمانه، وتحقق يقينه، وحصل على صريح توحيد الأفعال.

قال السُّلمي: «ومداواته: الرجوع إلى صحة الإيمان بما أخبر الله في كتابه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾[يونس:107].

ويصبح له هذا الحال إذا نظر إلى ضعف الخلق وعجزهم، فيعلم أن كلَّ مَن يكون محتاجاً لا يقدر على قضاء حاجة غيره، ومن يكون عاجزاً لا يمكنه أن يصلح أسباب غيره، فيَسلم من هذه الخطيئة ويرجع إلى ربه بالكلية».

دواؤه بصحـــة الإيمان .... وعـدم النظر للأكـوان

وفكره في عجزها وفقرها .... وعزلها عن نفعها وضرها

ومَن كان فقره ذاتياً، وهو على كل حال محتاج إلى غيره، ولا قدرة له على أن يرفع ما نزل به، وفاته ذلك في ذاته لم يصلح به أن يفعله بغيره، فمن لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون عن غيره رافعاً.

إذ من به الحاجة لم يواته .... في غيره ما فاته في ذاته

ولا شك أنّ همّ الرزق يؤلم القلب ويذهب اللب، وهو عذاب القلب؛ لأن القلب يضعف عن حمل أعبائه؛ لما فيه من الوهم الدائم، والحزن اللازم مع عدم الفائدة.

وهمه برزقه عـذاب .... يفـوته بفعلـه الـصواب

فيفوته الصواب ـ وهو شغله بحقوق ربه، وأداء ما طلب منه ـ باهتمامه برزقه المضمون له، مع ثقة الضامن، وصدق وعده، وملء خزائنه.

مع ضمان ربنا لرزقه .... ورزق كل دابة من خلقه

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾[هود:6]، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:22]، ثم أقسم تعالى وأكد فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات:23]، وكل ذلك توطيناً للنفس، وتسكيناً لها عن الاهتمام بالرزق، ونفيا للشكوك والأوهام، لأنه سبحانه عالم بعدم اطمئنانها، وكثرة شكوكها، وغلبة أوهامها، فالنفس لبعدها عن خالقها، وعدم ثقتها برازقها لم تثق بالضامن، ولا صدقت بالوعد كل التصديق، ولا تحققت الموعود تحققا يريحها من الاهتمام بالرزق، وأهل الحق، وأرباب الصدق، وأحوالهم على غير ما ذكر.

فمن اهتم برزقه متهم لربه، ودليل اتهامه له اهتمامه بما ضمن له، والمتهم لربه جاهل بأوصاف الربوبية، ولم يسلك مسالك العبودية.

فمن يكن يهتم بالأرزاق .... فإنـه مـتهم الـرزاق

ولكلّ داء دواء من هذا الداء، وأي عيب للنفس أعظم، فحقٌّ على كلِّ مَن أصابه هذا الداء، واتصفت نفسه بهذا الوصف الذميم، وابتلي بهذا العيب العظيم أن يجهد نفسه في استعمال الدواء المزيل لهذا الداء.

العيب الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن
الفتور في الطاعة وإخوانه

وهذا العيب يشتمل على عيوب وهي على مراتب؛ لأن عيوب النفس ليست متساوية، وإنما بعضها أعظم من بعض، وكلّما عظم العيب صعب علاجه، وتمكن داؤه، وزادت النفس بذلك بعداً عن عالمها الروحاني، وقرباً من العالم الكثيف الجسماني، وذلك يخرجها عن حال كمالها وطهارتها، وبقدر بعدها من العالم اللطيف وقربها من العالم الكثيف، فيخلد إلى الأرض، ويتبع هواه، ولما كانت عيوب النفس متفاوتة المقدار، وكلما كان العيب أكبر كان النقص أكثر.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: فترفيهها في حقوق كان يقوم بها قبل ذلك، وأتم منه عيباً مَن لا يهتم بتقصيره وفترته، وأكثر من ذلك عيباً مَن لايرى فترته وتقصيره، ثم أكثر منه عيبًا مَن يظنُّ أنه متوفر مع فترته وتقصيره»، **وتشتمل على العيوب الآتية:**

الأول: تقصيره في حقوق الله تعالى كان يقوم بها:

فالفتور عن العبادة والتقصير في الطاعات، وكذلك ترك النهوض إلى العبادة والتشمير عن ساق الجد في الطاعات.

والفتور ينشأ عن ركود الهمة وعدم نهوضها، والتقصير ناشئ عن عدم المعرفة بأوصاف من قصَّرت في معاملاته، والجهل بحقوقه، وذلك داع أيضاً إلى عدم التشمير.

من عيبها الفتور والتقصير .... وتركها النهوض والتشمير

وسبب العيب:

طول الأمل واستبعاد حضور الأجل، والقنوع بالحال، وعدم النظر في المآل:

وغير ذلك من الأسباب الداعية إلى الفتور والتقصير، وعدم النهوض والتشمير.

الثاني: عدم الاهتمام لتقصيره في حقوق الله تعالى:

وذلك ألا يرى العبد النقص في حاله، والخلل في أقواله، وأفعاله، ولا يهتم بإصلاح ما فسد من ذلك، فهذا معدودٌ من أكبر عيوب النفس، وكلُّ نقص لا يهتم بزواله فيكون دائماً في زيادة وتمكين إلى أن يبلغ إلى غاية لا يقدر على زواله، ولو اهتم بزواله.

أكبر منه عدم اهتمامه .... لنقصه وعدم اتهامه

وسبب العيب:

رضاه عنها:

وكيف يصح الرضى عن النفس، والكريم بن الكريم يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ﴾ [يوسف:53].

قال أبو حفص الحداد: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

وقال أبو سليمان الداراني: «ما استحسنت من نفسي عملاً فاستحسنته، فقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيب نفوسهم، والتهمة منهم لها، وعدم الرضى منهم عنها أكثر من أن يحصى».

ثالثاً: عدم رؤية تقصيره في حقوق الله تعالى:

إذا عميت بصيرة العبد عن رؤية تقصيره في المعاملات، وعدم نشاطه إلى أداء العبادات، واستعمال الطاعات، فذلك من أكبر عيوب النفس وأعظمها،

وقال بعض السادات: «مَن لم ير التقصير في أعماله والخلل في أحواله فهو مخدوع».

ثم العمى عن رؤية التقصير .... أكبر منه عند ذي التحرير

وسبب العيب:

الرضى عن النفس:

فمن كان راضياً عن نفسه استحسن قبيحها، واستحسان القبيح قاض بالإقامة عليه، والمداومة على فعله، والرضى به، وهذا حال مَن زيّن له سوء فعله، فكل من كانت هذه أوصافه، فهو مخدوع ممقوت

ممكور به يصدق عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[فاطر:8].

قبيحه في عينه قد حسنه .... وسوء فعله له قد زينه

ودواء العيب:

الواجب على العبد أن يحكم على نفسه بالتقصير:

ولا يسمح لها فيما يصدر منها من سوء الأدب في قليل ولا كثير، ويتهمها في جميع أمورها، ويراقبها في ورودها وصدورها، فإذا كان العبد مع نفسه هكذا، فيرجى له الخلاص من نفسه، وعسى أن يكون يومه خيراً من أمسه.

الرابع: ظنه القيام بحقوق الله رغم تقصيره:

وذلك بتوقيره لنفسه وتعظيمه لها، وارتفاع منزلتها عنده، مع كونها ملازمة للتقصير الموجب لذمها، وعدم توقيرها، وانحطاط رتبتها.

أكبر منه من يرى توقيره .... مع أنه ملازم تقصيره

وسبب العيب:

توقير العبد لنفسه رضاه عنها:

فالرضى عن النفس أصل كلِّ عيب، كما قال ابن عطاء الله: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفّة عدم الرضى عنها».

فإذا لم يكن العبد راضياً عن نفسه ظهرت له عيوبها، ولم يستحسن شيئاً من أفعالها ولم ير لها حظاً، ولا يرفع لها قدراً، ولا يكون عنده شيئاً من توقيرها في قلبه ولا مزية فيه.

قال أبو حفص: «منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلي نظر السخط، وأعمالي تدل على ذلك».

وقال أبو سليمان الداراني: «ما رضيت عن نفسي طرفة عين».

أولاً: سبب العيوب:

عدم العمل المشكور عند الله تعالى:

قال السلمي: «وهذا من قلة شكره في وقت توفيقه للقيام بهذه الحقوق، فلمّا قل شكره أزيل عن مقام التوقير إلى مقام التقصير، ويستر عليه نقصانه، واستحسن قبائحه،قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾[فاطر:8]».

وذاك من عدم شكر العمل .... وعدم اعتنائه بالعلل

فتلك العيوب الكبيرة إنما سببها عدم العمل المشكور عند الله تعالى، وهو العمل الخالص الذي لا شوب فيه، ولا قادح، ولا شك.

وإن العمل إذا سلم من الشوائب، والقوادح أذهب علل النفس وعيوبها؛ إذ العمل غير المشكور هو عيب بنفسه، والعيب لا يذهب بالعيب، وكذلك عدم

الاعتناء بمعاناة العلل وزوالها، فهو سبب لبقائها، والزيادة فيها وتمكنها حتى تعود مفضلة، فمن لم يعتن بمعاناة علل نفسه، وخلاصها منها، وطهارتها من عيوبها، فقد أسلمها وأهملها، ويعاتب بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:10]، ومن اعتنى بها وسعى في خلاصها، واجتهد في طهارتها. دخل في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾[الأعلى:14].

ثانياً: دواء العيوب:

لما كثرت العيوب السابقة وعظم شأنها احتاج لأدوية متعددة للتخلص منها، قال السلمي: «والخلاص من ذلك: داوم الالتجاء إلى الله تعالى، وملازمة ذكره وقراءة كتابه، والبحث عن مطمعه، وتعظيم حرمة المسلمين، وسؤال أولياء الله الدعاء له بالرد إلى الحالة الأولى لعل الله تعالى أن يمنّ عليه بأن يفتح عليه سبيل خدمته وطاعته»، وهي على النحو الآتي:

1.دوام الالتجاء لربنا مع وجود الاضطرار:

ولزوم الافتقار والانكسار، والالتجاء إلى الله تعالى إذا كان على وصف العبودية لا يخيب صاحبها، ولا يرد دعاؤه، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:62].

2.ذكر الآلاء:

وفيه الفلاح والنجاح، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ [الأعراف:69]، فذكر الآلاء سبب لزيادة النعماء، وفي ذكر الآلاء ما يوجب الحياة، وهو من الموانع التي تمنع النفس من موجبات الذنوب، ومن الاتصاف بالعيوب، فلذلك جعل من أدوية النفس.

دواؤه دوام الالتجا .... لــربنا والذكـر لإله

3.لزوم الذكر والتلاوة مع الحضور:

وتفهم المعاني، والمراد بالذكر أنواع الأذكار لا ذكر مختص، فعنى تنويع الأذكار بحسب تنويع أمراض النفس وعيوبها، فلكل نوع من أنواع عيوب النفس وأمراضها يسلط عليه من الأذكار ما يضاده وينفيه، ولهذا كان الذكر، والتلاوة دواء لعيوب النفس.

4.الفكرة في معنى الصفات وآثار أسماء الأفعال:

فإذا تفكر العبد في ذلك، ونظر في آثار معاني أسماء الصفات، ومعاني أسماء الأفعال اكتسبت النفس من ذلك تعظيم المتصف بالصفات الكريمة، والصادرة عن الأفعال العظيمة، ومع وجود التعظيم تكون الهيبة والإجلال، فيقل عيب النفس، وتنزع عما كانت عليه من سوء الأدب وارتكاب الذنب، وعلى قدر لزومها الذكر، والتلاوة يكون بعدها من ذلك، وبحسب بعدها من العيوب والأمراض يكون تيقضها، وبحسب تيقضها يكون خروجها عن حال الغفلة والغباوة.

ثم لزوم الذكر والتلاوه .... وفكـرة تـذهب بالغبـاوه

وقد تَبيَّن لك أيها العبد ما في الفكرة من الفوائد الجليلة والخصال الحميدة.

قال ابن عطاء الله: «ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة».

وقال كعب: «من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر».

وقيل لأم الدرداء : «ما كان أفضل عمل أبي الدرداء، قالت: التفكر».

وذلك أنه يصل به إلى حقائق الأشياء، ويبين الحق من الباطل، والنافع من الضار، ويطلع به أيضا على خفايا آفات النفس، ومكايد العدو، وغرور الدنيا، ويتعرف بها وجوه الحيل في التحرز عنها والطهارة منها.

وقال الحسن: «الفكرة مرآة تريك حسنك من سيئك، وتطلع بها أيضا على عظمة الله تعالى وجلاله، إذا تفكرت في آياته ومصنوعاته، وتطلع بها أيضا على آلاته ونعماته الجلية والخفية، فتستفيد بذلك أحوالاً سنية يزول بها مرض قلبك، وتستقيم بها على طاعة ربك».

ولأجل ما ذكر في التفكير من الفوائد الجليلة، والخصال الحميدة، كانت من أدوية عيوب النفس، وكان يذهب بالغباوة.

5. البحث عن المطعم والمشرب:

فإن طيب المطعم والمشرب يؤثر في النفس بقدرة الله تعالى صلاحاً، وبراءة من العيوب والأمراض، وخبث في المطعم، والمشرب يؤثر في النفس عيوباً وأمراضاً، فلذلك يتأكد على كل من أراد تطهير نفسه من عيوبها، وخلاصها من أمراضها أن يبحث عن مطعمه ومشربه، فبحسب تخليص الأقوات من الشبهات يكون خلاص النفس من العيوب والأمراض، وانقياد الجوارح إلى عمل الطاعات، وبحسب عدم تخليصها تكثر عيوبها وأمراضها، وتميل الجوارح إلى عمل المخالفات.

ومن الحكم: «عدم تخليص الأقوات سبب قوي لاسترسال الجوارح إلى أفعال المخالفات».

قال بعض العلماء: «أكل الحرام لا يوفق للعبادة، وإن إتفق له فعل خير، فهو مردود عليه غير مقبول منه».

وقال بعضهم: «من أكل الحلال أطاع الله أراد أو لم يرد، ومن أكل الحرام عصى الله أراد أو لم يرد».

وقال بعض الحكماء: «كل ما شئت مثله تعمل»، فمن أكل الحلال المحض فعل الطاعة الخالصة، ومن أكل الحرام المحض فعل المعصية المحضة، ومن أكل المتشابه أعماله.

6.ترك كل باطل ومشتبه:

فالباطل كل ما كان مضاداً للحق مخالفاً للشرع، وسواء كان فعلاً أو قولاً أو حالاً، فيلازم من ذلك كله ما كان حقاً، ويترك ما كان باطلاً، فالحق أحق أن يتبع، وكذلك يترك كل ما كان مشتبهاً، قولاً كان، أو فعلاً، ويدخل في ذلك الأقوات والملابس، والمتشابه هوالمشكوك فيه وضابطه: «دع ما يريك إلى ما لا يريك».

فالباطل والمتشابه يقوي أمراض النفوس، ويكثر عيوبها، ولهذا كان تخليص الأقوات أصلاً عظيماً من أصول الطريقة، فلا يتسامحون فيه أصلاً.

والبحث عن مطعمه ومشربه .... وترك كل باطل ومشتبه

وعن ابن عباس ﷺ: «لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام».

قال الغزالي: «عليك بحفظ البطن وإصلاحه فإنه أشق الأعضاء إصلاحاً على المجتهدين، وأكثرها مؤونة وشغلاً وأعظمها ضرراً وأمراضاً، لأنه المنبع والمعدن ومنه تهيج الأمور في الأعضاء من قوة، وضعف، وجماع، ونحوه، فعليك بصيانته من الحرام والشبهة أولاً، ثم عن فضول الحلال ثانياً، إن كانت لك همة في عبادة مولاك تعالى».

7.حفظ حرمة ذوي الإسلام محافظة لأخوة الإسلام:

ومراعاة لروابطه، وللمسلم على أخيه المسلم حرمة في الغيبة، والحضور، والوفاء بذمته، ومعاملته له بمكارم الأخلاق، ففي ذلك اتضاع للمؤمنين،

واتصافه بأوصاف المحسنين، وهذه أحوال توجب لصاحبها خلاص نفسه من العيوب، ولهذا جعل الشيخ من جملة أدوية عيوب النفوس.

8 .**دعاء السادات الأعلام:**

الذين جعلهم الله تعالىٰ رحمة للمسلمين وهداة للمؤمنين، فليغتنم العبد منهم الدعاء الصالح، وخصوصا بالهداية إلىٰ طريق الطاعة، وبلزوم الخدمة والبر متبعاً في ذلك منهج الجماعة، ولا يزال طالباً منهم الدعاء إلىٰ أن يرىٰ في حلبة السباق مشمراً للسير القويم والسباق علىٰ الصراط المستقيم، فتتخلىٰ النفس عن عيوبها، وتتخلص من أمراضها وذنوبها.

وحفظ حرمة ذوي الإسلام .... ثم دعاء السادة الأعلام
برده لحاله في طاعته .... وبلزوم بره وخدمته
حتىٰ يرىٰ في حلبة السباق .... مشمراً للسير والسباق

* * *

العيب التاسع
فقدان لذة الطاعة

إذا فقد العبد حلاوة العمل، فذلك دليل علىٰ عيب كامن في نفسه، فليجتهد العبد في زوال هذه العلة، والبراءة من هذا العيب الذي من أجله فقدت حلاوة طاعة ربه.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: أن يطيع ولا يجد لطاعته لذة ذلك؛ لشوب طاعته بالرياء، وقلّة إخلاصه في ذلك، أو ترك سنة من السنن».

أولاً: سبب العيب:

ذكروا له أسباباً منها:

1. شوب حصل في عمله، وهو الرياء:

فإن المرائي لا يذوق حلاوة عمله، لتوجهه به على غير ما أمره به ربه من الإخلاص في عمله، وإفراد الوجهة إلى الله تعالى، فكلّما تكدر مشربه، ولم يصف مورده، فقد حلاوة العمل من الشوب في العمل الذي قد حصل وهو الرياء.

2. فقد السنة:

فإذا كان العمل خالياً من السنة، فلا يجد العامل لعمله حلاوة أبداً، إذ سرُّ الأعمال جريانها على سبيل السنة المحمدية، فبالفرائض يكون كمال العبادات وصحتها، وبالسنة يزول اعتلالها.

3. خوض النفس في جملة الأسباب ذات اللبس:

والأسباب المراد بها الأعمال، فإذا كان العبد يشغل نفسه بالأعمال الملتبسة حدثت منها في نفسه عيوب، ولهذا تجنب أهل التقوى من الأعمال ما كان متسخاً، ونجزوا الأعمال الخالصة التي لا لبس فيها ولا شوب.

من عيوبها فقد حلاوة العمل .... وذاك من شوب رياء قد حصل
أو ترك سنة وخوص نفس .... في جملة الأسباب ذات اللبس

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأدوية منها:

1. الإخلاص بالعبادة:

فلما كان سبب المرض فقده، فلا بد من إيجاده ليزول السبب ويتحقق المقصود.

2. موافقة السنة في فعل العبادة:

لأن العبادات والطاعات لا بد موافقتها للشرع الحكيم؛ لتكون لصاحبها لا عليه.

3. **تصحيح البدايه:**

يريد بداية السلوك على معارج السالكين، فتصحيح البدايه موجب لتصحيح النهاية، فمن صحَّت بدايته من موجبات الاختلال صحَّت نهايته من موجبات الاعتلال، ولهذا قيل: «مَن صحَّت بدايته صحَّت نهايته، ومَن كانت بالله تعالى بدايته كانت إليه نهايته».

قال السُّلمي: «ومداواتها: مطالبة النفس بالإخلاص وملازمة السنة في الأفعال، وتصحيح مبادئ أموره يصح له منتهاها».

دواؤه تصحيح البدايه .... لكي ينال صحّة النهايه

وجعل تصحيح البدايه من أدوية عيب النفس الذي فيه انتفاء أسبابه المتقدمة، إذ انتفاء السبب يوجب انتفاء مسببه.

4. **صدق المحبة لمن إليه العمل:**

فالمحب الصادق يتلذَّذ بخدمة حبيبه ومناجاته، والوقوف بين يديه على بساط القرب في حضرة المشاهدة.

5. **التحقق في مقام العبودية ومعرفة حقوق الربوبية وتذكر الآلاء:**

وتصح بداية السالكين بخمسة أصول وعليها تتوقف صحة النهاية:

أ. تصحيح التوحيد بالأدلة النقلية والعقلية، وهذا هو الأساس الذي يُبني عليه العبد السالك بدايته، وهو قاعدةٌ من قواعد الدين، فلا بُدّ للعبد من تصحيح توحيده، فإن هذه الطائفة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا

عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل.

قال أبو محمد الجريري: «من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلّت به قدم الغرور في مهواة من التلف».

بَيَّن بذلك أن مَن ركن إلى التقليد ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سنن النجاة، ووقع في أسر الهلاك.

ب.**الإخلاص**، فإن الإخلاص مما يصحِّح البداية والنهاية، فمَن لا إخلاص له لم تصحّ بدايته، ولا يرتجى صحّة نهايته، إلا أن تصحيح التوحيد عليه يتوقف على تصحيح الإخلاص، وتصحيح ما بعده، والإخلاص عبارة عن إفراد الوجهة إلى الله تعالى.

وقيل: «الإخلاص إفراد الحق بالطاعة بالقصد».

وقال أبو عثمان المغربي: «الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال»..

ج.**الأخذ بالسنة في جميع معاملاته، وسائر عباداته**، بل وفي جميع أموره، وسواء كانت من العادات، أو من العبادات، فلا يخرج في ذلك كله على سبيل السنة، ففي ذلك تصحيح بدايته ونهايته.

د.**الخلاص من تبعات وحقوق لازمة**، فلا تصحّ البداية بدون هذا، وسواء كانت التبعات والحقوق لله تعالى أو لمخلوق.

هـ.**قلّة الأكل على الدوام**، فإن في قلّة الأكل ضعف النفس وكسر شهوتها، وصفاء القلب، ولهذا كان أساساً من أصول الطريقة، واعتمده أهل الحقيقة، وهو سبب قوي لصحّة البداية، وسلم لصحة النهاية، وأن أرباب السُّلوك استعملوا قلّة الأكل بتدريج الحكمة، فبلغوا فيه الغاية من غير ضرر، ولا إخلال بالبنية، ولا

ضعف في الحواس، فوجدوا في ذلك ينابيع الحكمة، وحصل لهم من ذلك القيام بالخدمة، وبراءة الذمة، وثقوب اللبّ، وصفاء القلب.

وذلك بالتوحيد والإخلاص .... والأخذ بالسنة والخلاص

من تبعات وحقوق لازمه .... وقلة الأكل على المداومه

وخفّة البطن من الطعام تنور القلب، وانشرح وانفسح، وزالت عنه ظلم الأهواء، وكثرة الأكل أساس العيب، وتنبني عليه أمور ذميمة، وتنشأ عنه مفاسد عظيمة، وتحدث بسببه عيوب كثيرة، فعن المقدام بن معدي كرب ﷺ قال ﷺ: «ما من وعاء ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا بد، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[1].

فخفه البطن دواء القلب .... وكثرة الأكل أساس العيب

وفي إشباع البطن علل منها:

أ.جوع الأعضاء، وهو عبارة عن عدم نهوضها إلى العبادات، وكسلها عن فعل الطاعات، مع ما في شبع البطن من الآفات، والعلل المعضلة، وحدوث عيوب النفس، ولهذا قيل: «البطنة تذهب الفطنة».

وأهل الصدق مع الله تعالى، والجد في الطاعات رضوا بالجوع خوفاً مما ينشأ عن الشبع من الخصال الذميمة التي منها جوع الأعضاء الكائن منه الإغضاء عن عيوب النفس.

إن تشبع البطن تجوع الأعضاء .... وإن تجمع يكون منها الإغضا

ب.عدم نهوض الجوارح إلى الطاعات.

---

(1) في مسند أحمد28: 422، وصحيح ابن حبان2: 449، وغيرها.

قال يحيىٰ بن معاذ: «لو أن الجوع يباع في الأسواق لما كان لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره، فإذا أكل منه، فإنه لا يأكل حتىٰ يرىٰ الهلال، وكان يفطر كل يوم علىٰ الماء القارح ـ أي غير البارد ـ».

* * *

العيب العاشر
ظن النجاة بتعظيم الناس

فمن عيوب النفس رجاء الخير لنفسه بسبب ما يشهد من تعظيم الناس له، ومباشرتهم له علىٰ ما يظنون فيه من موجبات ذلك، وكان حقّ مَن كان له عقل وافر إذا شاهد تعظيم الناس له، لا يغتر بذلك، ولا يرجو الخير لنفسه.

من عيبها رجـاؤه الخير بما .... يشهده من مشهد قد عظما

قال أبو سليمان: «مَن رأىٰ لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة».

وقال أبو عبد الله: «مَن استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلىٰ ابتدائه فيروض نفسه ثانياً، فالعاقل لا يستحسن من نفسه شيئاً، ولا يغتر بما يشهده من تعظيم الناس ومن مدحهم له، وليرجع إلىٰ ما يعلمه من نفسه من العيوب».

قال ابن عطاء الله: «أجهل الناس مَن ترك يقين ما عنده لظنِّ ما عند الناس».

وقال ابن عبَّاد: «الاغترار بمدح الناس وثنائهم في غاية الجهل والغباوة، وذلك من علامات المقت؛ لأنّ المغترّ بذلك ترك يقينه بنفسه لظنِّ غيره به، وهو علىٰ كلِّ حال أعلم بنفسه».

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. **غفلة العبد عن نفسه.**

2. **عدم رؤية نقصها وعيوبها.**

وشهوده لسوء أحوالها توجب أحوالاً ذميمة منها:

أ.رجاؤه الخير لما يشهده من تعظيم الناس، وكان من حقِّه شهود نقصه، وشعور بؤسه لمن حضره.

ب.أن ما يصيب الحاضرين معه من ضر ومصيبة، فإنما ذلك من ذنبه، فإذا كان مستشعراً لهذا شاهد النقص من حاله، ولم يغتر بما رآه من تعظيم الناس له، وإقبالهم عليه، فمَن شاهد التقصير من نفسه لا يركن إلى ما يَراه من التعظيم من أبناء جنسه.

وذاك من غفلته عن نفسه .... إذ حقه في ذا شعور بأسه

لهم لأجل كونه حضرهم .... إذ ربما بذنبـــــه قد ضرّه

واللازم عليه الإزاء بالنفس والتحقير وحطة مكانتها، وعدم المبالاة بها، فلا يرفع شأناً بين الناس، ولا يرى لها منزلة ولا حظّاً، وهذا الحال خير للعبد من شغله بأنسهم وتعظيمهم وإقبالهم عليه.

نعم وإزراء الفتى بنفسه .... خير له من شغله بأنسه

وقيل لبعض الحكماء: «إن العامة يثنون عليك»، فأظهر الوحشة من ذلك، وقال: «لعلهم رأوا مني شيئًا أعجبهم، ولا خير في شيء يسرهم ويعجبهم».

ومدح بعض العوام بعض الحكماء فبكى، فقال له تلميذ: أتبكي وقد مدحك؟، فقال له: «لم يمدحني حتى وافق بعض خلقي خلقه، فلذلك بكيت»، وهذا حال من أزرى بنفسه، ولم يشتغل بأنسه بالمدح الصادر من الخلق إليه.

وحُكي عن بعض السلف هي مقالة من غلب عليه الجلال، ونفى عن نفسه وصف الكمال، حتى ظنّ من غلبة خوفه أنه لو لم يكن في أهل الموقف لغفر الله تعالى لهم، وهكذا يكون حال أهل اليقظة، متهمين لأنفسهم، محافظين عليها، من أمن مكر الله الموجب للخسران، ومن الانبساط الداعي إلى سوء الأدب على البساط، فالمؤمن لا يفارقه الخوف، ولا يأمن مكر الله تعالى.

قيل: لبعض سادة في السلف .... كيف ترى حالة أهل الموقف

فقال: لولا أني كنت معهم .... لكنت أرجو الله أن يغفر لهم

كذا يكون حال أهل اليقظة .... في تهمة النفس بكل تهمة

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: أن يرجو لنفسه الخير في حصول مشاهد الخير، ولو تحقق لا يسرّ أهل المشهد من شؤم حضوره، كما قيل لبعض السلف: «كيف رأيت أهل الموقف؟ فقال: رأيت أقوامًا لولا أني كنت معهم لرجوت الله أن يغفر لهم»، هكذا طريق أهل اليقظة».

قال معاذُ بنُ جبل: «إن المؤمن لا يطمئن قلبه، ولا يسكن روعه حتى يخلف جسر جهنم».

وقال ذو النون المصري: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق».

وقال ابنُ سنان: «إذا سكن الخوف القلب أحرق موضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه».

وقال أبو سليمان: «ينبغي للقلب أن لا يكون الغالب عليه إلا الخوف، فإنه إذا غلب الرجاء على القلب فسد».

ثانياً: دواء العيب:

ودواء رجاء العبد الخير بتعظيم الناس له:

1. استحضاره لكثرة عيوبه وآثامه:

ونقص أعماله بالاستيقاظ من سبات غفلته ونومه في الوقوف على حال نفسه.

2. الحياء من الله تعالى بكثرة معاصيه وتقصيره:

ولا شكّ أن العبد إذا كان مقيماً على الذنب، ويعلم أن الله تعالى معه حاضر، وإليه ناظر، وهو عليه رقيب، فيستحيي منه، ويمنعه الحياء أن يغتر بتعظيم الخلق له، ويضعف رجاؤه، ويعظم خوفه، وتزيد خشيته، فيتأدب مع مولاه أن يرجو الخير لنفسه مع إقامته على ذنبه، فالحياء إذا دواء للعيب الذي أعدّ له، فلا يجد العبد معدلة لما فيه من التداوي لعيوب النفس، وانكماشها عنها، وتركها للموجبات المناقضة للحياء من الله تعالى يوجب فعل المأمورات، وترك المنهيات، وفي ذلك مخالفة هوى النفس وعدم إقامتها على عيوبها.

دواؤه الحياء من مولاه .... لكونه في ذنبه يراه

قال ابن عطاء الله: «العلم الأكبر الهبة والحياء، وإذا ذهبت الهبة والحياء لم يبق خير».

وقال ذو النون المصري: «الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة منك على ربك».

واعلم أن الحياء أعلى وأكمل مقاماً من الخوف، وأمنع من ارتكاب المخالفات، وأكبر داع إلى أفعال الطاعات، وذلك لأن الخوف ناشئ عن الأفعال القهرية، وهي غير دائمة، وما نشأ عن غير دائم مثله، والحياء ينشأ عن شهود صفات الكمال، والصفات دائمة، وما ينشأ عنها مثلها يدوم.

وعن أبي سليمان الداراني: «يقول الله تعالى: عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك، ومحوت من أم الكتاب زلاتك...».

وفي الحياء من الله تعالى فوائد كثيرة توجب لمن اتصف بها القرب من الله تعالى.

3. **إساءة الظن بنفسه:**

لما يعلم من حالها.

قال السُّلمي: «ومداواتها: أن يعلم أن الله تعالى وإن غفر له ذنوبه فقد رآه مرتكباً على الخطايا والمخالفات يستحيي من ذلك، ويسيء بنفسه الظن، كما قال الفضل بن عياض: «واسوأتاه منك وإن غفرت»، وذلك يتحققه بعلم الله فيه ونظره إليه».

وعن فضيل بن عياض أثر: .... واسوأتا وإن ذنوبي تغفر

وذلك من تعظيمه لربه .... ومن شهوده عظيم قربه

فكأنه قال: وإن غفر الله ذنوبي، وأمنت عقابه، فأنا استحيي منه حيث واجهته بالذنب الذي غفره تعالى.

* * *

العيب الحادي عشر والثاني عشر
الحياة للدنيا والأغيار

وهذا العيب يشمل على عيبين للنفس:

الأول: فقد الحياة الآجلة:

فالحياة للدنيا تكون بفقد الحياة الآجلة بعدم التفكر فيها، وترك أخذ الأهبة لها، والعمل لأجلها، والزاد الموصل إلى موطنها.

ولا توجد الحياة الآجلة عوضاً عن فقدها إلا بموت في الحياة العاجلة، والمراد بالحياة الآجلة: هي الحقيقة التي لا موت بعدها، وبالموت في الحياة العاجلة الموت المعنوي الذي هو موت النفس بإخراجها عن هواها، وإضعافها عما تنشط إليه من حظوظها وشهواتها بحيث لا يبقى لها ملاك، ولا تصريف مع الروح.

أولاً: سبب العيب:

وهذا العيب له أسباب منها:

1. **حب الدنيا:**

والرغبة فيها، والاشتغال بها بالقلب والقالب.

2. **اتباع الهوى:**

فإن اتباع الهوى والاشتغال بالدنيا ينسي الآخرة؛ إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة، فإذا أقبل إلى أمر أعرض عن الآخر.

ويكون موت الحياة الدنيا بأمور منها:

أ. **الجوع،** فهو يميت النفس، ويضعف قواها، حتى لا يبقى لها ملاك أبداً، ولهذا اختاره المريدون، واستعمله الصديقون، ففي الجوع تهذيب النفس، ورياضتها، فكل ذي همة لا يسعه تركه، ولا بد من استعماله.

ب. **الذل**، ففيه كسر النفس وإذلالها وإخراجها عن مقتضيات حظوظها وشهواتها، وفي ذلك موتها واضمحلالها.

واعلم أنّ الذلّ والافتقار من أوصاف العبودية، والعزّ والاستكبار مناقضان لها؛ لأنهما من صفات الربوبية، ولا خير في عبد خرج عن أوصاف عبوديته، وما طلب الحق جل جلاله من غيره خيراً من لزومه أوصافه، فإذا حمل العبد نفسه على أوصافه، وألزم نفسه المذلة والتواضع، واستمر على ذلك حتى صار الذل له خلقا بحيث لا يجد لذته ألما، فحينئذٍ تزكى نفسه، ويستنير بنور الإيمان قلبه، وينال من ربه أعلا درجات الخصوصية، ويحصل على أعلا نصيب من الحياة الحقيقية.

ج. **مخالفة النفس**، فهذا السبب أيضاً من أعظم أسباب موت النفس وفقد حياتها، والموجب لحياة الروح وظهور صفاتها، وبمخالفة النفس نال القوم أعلا الدرجات، ورزقوا سعادة المحيا والممات، وغلبت حياتهم الآجلة على العاجلة، كل ذلك بمخالفة النفس.

سئل بعض المشايخ عن الإسلام فقال: «ذبح النفوس بسيوف المخالفة».

وقال ابن عطاء الله: «النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بزهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها، فهو شريكها في فسادها».

من عيبها فقد حياة الآجله .... إلا بموت في الحياة العاجلة
بالجوع والــذل وبالمخالفة .... وتـركه لـــكلّ شيء ألفـه

وترك كل شيء ألفه من مخالفة النفس، فإن من خالفها ترك ما له أمارة من الحظوظ والأهواء، وكلّ شيء ألفته بطبعها، وركنت إليه عن مقتضى هواها وشهواتها، ولا شيء أعظم على النفس من ترك ما ألفته وريبت عليه واعتادته.

وما دامت النفس ملتبسة بهذا العيب مقيمة على مألوفها كانت بعيدة من العالم الملكوتي محجوبة عن الاستشراف على الأسرار التوحيدية، والحقائق الإحسانية، فلذلك طولب العبد بإخراج نفسه على مألوفاتها التي هي حجاب لها عن موجبات كمالها.

الثاني: فقد حياتها الحق:

والمراد بحياة الحق حياة الأرواح والقلوب؛ لأن حياة الأرواح هي المعتبرة، وكذلك حياة القلوب، وحياة النفوس ليست بمرادة؛ إذ في حياتها وجود الشر، والخسران، والعتو، والطغيان.

وإذا فقدت النفس حياتها بالحق كانت أقرب إلى الهلاك، ووقعت في مهواة من الخسران لا خلاص لها منها، ولا انفكاك، وغلب عليها اتباع الهوى، ونسيان ذكر المولى، ولحياة الروح أسباب منها: دوام الذكر مع خلو البطن، ودوام الفكر، والنظر في كتب المواعظ والزواجر القرآنية، والأحاديث النبوية.

وفقد ذلك سبب في موت الروح وحياة النفوس.

وفقدها حياتها بالحق .... إلا بموتها بترك الخلق

ولا تجد النفس حياتها بالحق إلا بموتها، وذلك بترك الخلق، والمراد بتركهم: عدم النظر لهم، والسكون إليهم، ورفع همته عنهم، وعدم المخالطة لهم، إلا فيما لا بد له منه، فإذا دعي الحال إلى مخالطتهم فليكن معهم بظاهرها مفارقة لهم بباطنه، وليحذر الخوض فيما يخوضون فيه والانشغال معهم بما لا يعني،

وبالجملة فإن مخالطة الخلق داء عضال يميت الأرواح، ومَن عاشر الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فيهلك كما هلكوا.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: أنك لا تحييها حتىٰ تميتها: أىٰ لا تحييها للآخرة حتىٰ تميتها عن الدنيا، ولا تحيىٰ بالله تعالىٰ حتىٰ تموت عن الأغيار، وذلك أن يمنعها عن شهواتها، ويحملها علىٰ مكارهها، فإن النفس لا تألف الحق أبداً».

أولاً: سبب العيب:

وسبب مرض فقد الحياة الآجلة وفقد حياتها بالحق أمور منها:

1. عتوها وشؤمها:

والعتو هو النهاية في الظلم، والشؤم حالة ينشأ عنها فقد الملايمات، ووجود المولامات، والنفس إذا وصفت بهذين الوصفين الذين هما العتو، والشؤم كثرت عيوبها، وخرجت عن طريق الهدىٰ إلىٰ طريق الردىٰ.

وذلك من عتوها وشؤمها .... وجهلها بقدرها في علمها

2. جهلها بقدرها في علمها:

والنفس لها قدر كبير، وشأن عظيم، لكنها من صفاء صفوة النور ولما كان قدرها خطيراً وشأنها كبيراً كان حقها أن تتصف بمجامل الصفات لا بالعتو والشؤم لكنها لما جهلت قدرها، وخالفت أمرها انحطت عن مكانتها، وسفلت عن عالمها الملكوتي، وغلب عليها الطبع الجسماني حتىٰ تلبست بالعتو، وما يقتضي شؤمها بكثرة عيوبها.

وذلك من عتوها وشؤمها .... وجهلها بقدرها في علمها

ثانياً: دواء العيبين:

مخالفة النفس:

لما كان الدواء عبارة عما يزيل الداء، والدواء هو مخالفة الهوى، وسئل الجنيد متى يصير داء النفس دواؤها فقال: «إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواؤها».

فيكون دواؤها هنا بمخالفة النفس الذي هو عين الداء من حيث أن مخالفة النفس مؤلم من حيث الطبع ملائم من حيث الشرع، فكلُّ ما يخالف هوى النفس مؤلم لها وفيه صلاحها، وانطباعها للحق واتباعه، وترك الباطل وارتفاعه، والحق الموافقات، والباطل المخالفات، واتباع الحق هو العمل به، وترك الباطل هو رفضه، وارتفاعه زواله، والمراد أن لا يترك أمراً، ولا يقرب نهياً.

قال السُّلمي: «ومداواتها: السهر والجوع والظمأ، وركوب مخالفة الطبع والنفس، ومنعها عن الشهوات».

دواؤها في ذاك عين دائها .... إذا خالفت ما كان من أهوائها

فانطبعَت للحَق واتباعه .... بالترك البـــاطل وارتفاعه

قال يحيى بن معاذ: «مَن تقرَّب إلى الله بتلف نفسه حفظ الله عليه نفسه».

قد قال يحيى بن معاذ الرازي .... كلمة بالغتة الإيجاز

تقرب العبيد بموت نفسه .... لربـه يقضي بحفظ نفسه

وموت النفس إخمادها بإضعاف حواسها، وإخراجها عن مألوفاتها، والميل إلى هواها وشهواتها، فلا يكون لها ملاك ولا غلبة على الروح، بل يكون الروح مستولياً عليها جاذباً لها إلى العالم الملكوتي.

فإذا كان الأمر هكذا كانت النفس في حكم مَن هو ميت، وجعل فعل العبد في إضعاف نفسه ومجاهدته لها بما يميتها ويخرجها عن ملاكها تقربا إلى الله تعالى؛ إذ في ذلك ما يقتضي قربه إلى الله تعالى بمخالفة هواه واتباع مرضاة مولاه، ومَن اتبع مرضاة المولى جل جلاله حفظ نفسه من عقابه وشرّ عذابه، وصانها من الخروج عن مناهج العبودية، فليستعمل العبد الموفق الأسباب التي تقتضي النفس وإضعاف حواسها، ولا شيء أعظم عليها من الجوع، فهو مميت وقاهر لها ومخمد لحواسها، لكن يكون ذلك بتدريج حكمي، وسياسة شرعية من غير إفراط ولا تفريط؛ إذ كلا طرفي قصد الأمور ذميم، حتى إذا راض العبد نفسه وعوّدها الجوع وأنست به، وصار لها ديدناً وعادة، كان الجوع لها بمنزلة الطعام.

قال يحيى بن معاذ: «الجوع طعام به يقوي الله تعالى أبدان الصديقين».

قلت: وفي إفراطه إضرار .... إذ تفلس الأبدان والأفكار

ومن الأضرار الناشئة عن الإفراط في الجوع: إفلاس الأبدان والأفكار المراد به قلة منفعتها؛ إذ الجوع المفرط يُضعف البدن عن القيام بأنواع العبادات، ويطمس الفكرة عن التفكير في معاني أسماء الأفعال، ومعاني أسماء الصفات، والإفراط في الشيء الزيادة فيه زيادة تخرج عن المقصود، فالإفراط في الجوع مخرجٌ عن المقصود، ومانعٌ من بلوغ المراد، وهذا كالتفريط.

فاحذر الطرفين: الإفراط، والآخر التفريط، وكلاهما ذميم.

وقصد الأمور الوسط، وهو الخيار، كما قيل: «خيار الأمور أوسطها»، وهو القدر الذي أخذ به الموفقون.

فلتأخذن بالوسط المحمود .... إذ قد يخل حكمة وحكماً

الإفراط والتفريط ذما لما فيهما من الأضرار حسبما بين قبل، وأيضا لما فيهما من الإخلال بالحكمة.

أما الإخلال بالحكمة من حيث التفريط لما فيه من التقصير، ومن حيث الإفراط لما فيه من تعدي الحدود التي حدها الله تعالىٰ بحكمته، والإخلال بالحكم؛ لما في التفريط، والإفراط من مخالفة الحكم الشرعي الذي حكم علىٰ العباد من اتباع المنهج القويم، والصراط المستقيم من الأخذ في الأمور الدينية والدنيوية بالوسط منها.

* * *

العيب الثالث عشر
النفس لا تألف الحق

فمن عيوب النفس نفورها من الحقّ، والحقُّ كل حق فعلاً كان أو قولاً أو اعتقاداً، والنفور من الحق قادح في الإيمان، وينشأ عن مرض في القلب.

من عيبها عدم إلف الحق .... برفض موجب الهدىٰ والصدق

قال السلمي: «ومن عيوبها: أنها لا تألف الحق أبداً، والطاعة خلاف سجيتها وطبعها، ويتولد أكثر ذلك من متابعة الهوىٰ واتباع الشهوات».

أولاً: سبب العيب:

إهماله لنفسه بالاعتناء بتزكيتها:

وذاك من إهمالها في الحال .... وتركها لموجب الكمال

وإذا تعددت الأسباب قوي موجب وقوع المسبب، فيصعب ارتفاعه، والذي يجب علىٰ العبد أن لا يهمل نفسه، ولا يغفل عن مجاهدتها ورياضتها،

وكذلك محاسبتها صباحا ومساء، فمن فعل بها فقد زكاها، ومن أهملها فقد دساها، فالأول من المفلحين، والآخر من الخاسرين.

وإذا علمت النفس أن عليها رقيباً يحاسبها ويناقشها، ربما تمتنع من القدوم على ما تقوم عليها به الحجة، ويجب لومها وعقابها، وإذا أمنت رتعت، وأطلقت العنان، واسترسلت في الشهوات، والمخالفات، ونفرت من الحق، ورفضت موجبات الهدى والصدق، وقيد الإهمال بالحال؛ لأن الإهمال في الحال يؤثر في الاستقبال.

وتركها لموجب الكمال ينشأ عن الإهمال، والمراد بموجب الكمال ما يوجب للنفس كمالها من اتصافها بالأوصاف الحميدة والأفعال الجميلة التي تستوجب به رتبة أهل الكمال، فإذا حصل منها موجب الكمال ألفت الحق، وإذا أنفت من موجب الكمال نفرت من الحق، وألفت الباطل، وذلك عيب فيها قادح في إيمانها وموجب لخسرانها.

وكل ما أهمل نفسه يتردى صاحبها في طريق الضلال، وفي طريق الهوى، وتسلكه أي تسيره فيكون سيره على اعوجاج، وسلوكه على أسوئ منهاج، فلا يزال سيره كذلك إلى أن توقعه في مهواة الزلل، وتلقيه في صحراء الخسران.

فكل من أهملها تهلكه .... وفي الضلال والهوى تسلكه

قال بعضهم: «إذا أردت أن تملك نفسك، فلا تملكها وضيق عليها، ولا توسع لها، فإن لم تملكها ملكتك، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك، وإذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحبسها عن معتاد بلائها، فإن لم تمسكها انطلقت بك».

وطبع النفس أبداً ـ ما دامت نفساً أمارة ـ مخالفة لطاعة خالقها، والحيد عن مرضاته، فهي أبداً ميالة إلى المعاصي بطبعها، داعية إلى الهوى، راغبة في الشهوات، فمَن أهملها أمالته إلى ما فيه هلاكه من المخالفة لأمر المولى جل جلاله، ودعته إلى ما فيه خسرانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسَّوْءِ﴾، فالعاقل لا يسعفها فيما به أمرته، ولا يسلك حيث أسلكته وسلكته، بل يكون معها على طرفي النقيض، ولا يضع عنها عصاة التأديب حتى تضع الحرب أوزارها.

إذ طبعها مخالف للطاعه .... موالف التفريط والإضاعة

فينبغي للعبد مخالفة التفريط فيما يجب على العبد من طاعة مولاه تعالى، وما يطالب به من النظر في أمور نفسه من رياضتها وتهذيبها وإخراجها عن طبعها الذميم، فلا يفرط في ذلك، ولا يضيعه، وليستعن على ذلك بالله تعالى.

ثانياً: دواء العيب:

ملازمة الحق بطاعة الله تعالى:

والأخذ بأوامره واجتناب نواهيه بالكلية، فهذا الدواء لا شك أن الله تعالى قدر بنفي عيب النفس بوجوده بنفعه حاصل، وشفاء لمن استشفى به إليه، وأصل الخروج من النفس بإسلامها لخالقها.

دواؤه الخروج منها كلها .... لربها بأصلها وفصلها

بأصلها وفصلها تأكيد لقوله: «كلها»، فكرر التأكيد للاهتمام.

قال السلمي: «ومداواتها: الخروج منها بالكلية إلى ربها».

وسئل ابن زادان عن الخارج عن نفسه: أي أصل ينهج؟، فأجاب بأن قال: «يترك كل ما عنه خرج، وعدم اللحظ لما عنه درج»: يي بكمال الخروج

وتمامه عن أصل ما خرج عنه، وفصله وبعضه وكله، فلا يتمسك بشيء من ذلك، ولا يستثني منه شيئاً.

ولا ينظر لما درج عنه من أمر سلوكه، ولا يلتفت إليه، ولا يعول، أو لا يعتمد عليه، بل يكون خارجاً عن نفسه وفعله، فإذا كان فعله على هذا صح له الخروج إلى ربه، فلا يصح البقاء مع الرب، ومع الأكوان.

قيل لابن زادان الذي قد يخرج .... لربه فأي أصـــــــــل ينهج؟

قال: بترك كل ما عنه خرج .... وعدم اللحظ لما عنه درج

لما كان ما ضمنه ابن زادان في جوابه من الخروج عن النفس، وعدم ملاحظة أفعالها من أحوال ثابتي القدم في السلوك، وهم أهل التمكين، تطلب السائل منه حكم أهل البداية، وعبر عنهم بالخارج من العدم تشبيها لهم بالخارج من العدم إلى الوجود.

وسئل أيضاً: «فكيف حكم خارج من عدم، فأجاب ابن زادان: وجود لذة المستأنف عوض مره الذي في السلف»

وأهل البداية إذا وجدوا لذة طعم الحقّ، وجدوا مرارة ما سلف منهم من المخالفات، فتركوا هذا لذلك: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء:18]، ثم لا يزال الحق يميلهم إليه بحلاوته، وعن الباطل بمرارته، والخير في أثناء ذلك يتزايد ويتضاعف، والشر يتلاشى ويتجافف إلى أن تثبت قدم أهل البداية، ويترقون إلى التمكين، ثم إلى النهاية، ويصير حكمهم حكم من عن نفسه خرج، ولم يلاحظ ما عنه درج.

قيل: فهذا حكم من له قدم .... فكيف حكم خارج عن العدم

قال: وجود لذّة المستأنف .... عوض مره الذي في السلف

ولا يتصور ممن وجد طعم الحق ـ ولو في نفس ـ إلا أن يكون سالكاً بالصدق؛ لأنّ الحق يحمله على ذلك، فهذا حكم من ذاق طعم الحق.

فكل من وجد طعم الحق .... في نفس فسالك بالصدق

ومن لم يجد طعم الحق، ولا تحلى بحلية أهل الصدق أعماله مشوبة مدخولة، وأحواله كلها معلولة، فلهذا وجب عليه إتهام أعماله، وعدم الرضى عن نفسه، فيما يبدو إليه من أحواله، وذلك لفقد كماله ولوجود اعتلاله.

وغيره فليتهم أعماله .... إذ لم يجد في نفسه كماله

قال يحيى بن معاذ: «مسكين ابن آدم، جسم معيب، وقلب كئيب، يريد أن يخرج من معيبين عملاً بلا عيب».

قال أبو حفص: «مَن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومَن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

وقال بعضهم: «كنت كذا وكذا سنة ما استحسنت شيئاً من أعمالي».

وقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لأنفسهم، والتهم منهم لها، وعدم رضاهم عنها أكثر من أن تحصى.

* * *

العيب الرابع عشر
النفس تألف الخواطر الرديئة

من عيوب النفس أنها تألف الخواطر الرديئة، والحالة الدنية، والخواطر الرديئة: هي الشيطانية والنفسانية، فإن الشيطان والنفس يلقيان في القلب خواطر رديئة يشغلان القلب بها بما لا فائدة فيه، ولا خير، وكذلك يأمرانه بالتحلي بكلِّ

حالة دنية: أي ذميمة تسقطه من المراتب العلية، فإذا ألفتها النفس، وأنست بها علم أن ذلك من عيوبها القادحة فيها المسطة لها عن رتبة الكمال، القاضية عليها بوجود النقص فيها والاعتلال.

وبسبب إلفها للخواطر الردية، والحالة الدنية تحتكم في طريق المخالفة، وتتأسس فيه، وتعود لفعلها موالفة.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: أنها تألف الخواطر الرديئة، فتستحكم عليها المخالفات».

من عيبها الخواطر الرديئة .... تألّفها والحالة الدنيية

فتحتكم بإلفها المخالفة .... حتىٰ تعد لفعلها موالفه

وهذا شأن النفوس المهملة التي تترادف عليها الخواطر الردية المحلاة بالأحوال الدنية وما دامت الخواطر الردية، والحالة الدنية تترادف علىٰ النفس وتتكرر، ويزيدها ذلك ثبوتاً في القلب، ورسوخاً في الفكر.

إذ يثبت الخاطر بالتكرار .... ويرتسخ في قوة الأفكار

وثبوت الخاطر بالتكرار، ورسوخه في قوة الأفكار، حكم ظاهر صحيح لا شك فيه، فلذلك كان ينبغي للعبد إذا طرق قلبه خاطر رديء، أن يميطه عن قلبه، ويصرفه عن فكره، لئلا يستحكم، وينطبع في القلب، ويرسخ في الفكر، فيصعب حينئذ دفاعه، ويعسر ارتفاعه، وكذلك الحالة الدنية يجهد العبد في الانتقال عنها، والتخلي عنها، لئلا تصير له شعارا، وقلبه للخواطر الشيطانية موطنا وقراراً.

أولاً: سبب العيب:

ولدواء هذا المرض أمور منها:

1. فقدان المراقبة:

فإذا خلي القلب عن المراقبة، ولم يكن للعبد ذكره على الدوام والمواضبة، حدثت في النفس عيوب رديئة، وسكن القلب خواطر شيطانية، وتلبس بأحوال ذميمة رديئة، وكلّ ذلك من فقد المراقبة.

2. عدم الذكر على المواظبة:

فالمراقبة مانعة للنفس من التلبس بالعيوب، ودوام الذكر بحفظ القلب من الريب، والمراقبة حال القلب اليقظان الذي لا تطرقه الخواطر الرديئة، ودوام الذكر شأن أهل الشهود، فإن المنزهين عن التلبس بالأحوال الرديئة، وما ألف المخالفة ذو قلب مراقب حاضر، ولا تصدر من عبد ذي لسان ذاكر، وفي هذا حض للعبد على دوام المراقبة واستصحاب الذكر على سبيل الدوام والمواظبة.

وذلك من فقدانها المراقبه .... وعدم الذكر على المواظبه

والمراقبة على وجهين:

أ.مراقبة أهل البداية، وهي مراقبتهم لأنفسهم، فيضبطون أنفاسهم، ويراعون حواسهم.

ب.مراقبة أهل النهاية، وهي مراقبتهم للمولى جل جلاله، علماً منهم أنه سبحانه مراقب لهم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[الأحزاب:52]، فهم أبداً يراعون ما يتجلى به عليهم من معاني أسماء صفاته الجمالية والجلالية، وهذه المراقبة تنطوي فيها الأولى، وفيها زيادة معنى لطيف.

قال القُشيري: «المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، فاستدامته هذا العلم مراقبته لربِّه، وهذ أصلُ كلّ خير له، ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة إلا

بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف، وأصلح في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله مراعاة القلب، وحفظ مع الله الأنفاس، وراقب الله سبحانه في عموم أحواله، فيعلم سبحانه أنه عليه رقيب، ومراقبه قريب يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ومن يغفل عن هذه الجملة، فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة».

ثانياً: دواء العيب:

ويداوى هذا المرض بأشياء منها:

1 .رد الخواطر من الابتداء:

فإذا طرقت قلب العبد خواطر رديئة، وابتدأ التلبس بأحوال دنية، فحقه المبادرة إلى رد ذلك في ابتداء الأمر، فهذا هو الحزم الناشئ عن قوة العزم، ومعاناة الداء في ابتدائه أرجى لربه إذا ترك إلى انتهائه، فهذا حكم الحكماء، ووافق عليه جل العلماء، وإذا ترك الداء حتى استحكم، وتمكن صعب علاجه، وربما خالطه داء آخر، فيصير داء عضالاً، والشفاء منه كاد أن يكون محالاً.

قال إبراهيم الخواص: «أول الذنب الخطرة، فإن تداركها صاحبها بالكراهية، وإلا صارت وسوسة، فإن تداركها صاحبها بالمجاهدة وإلا هاج منها الشهوة مع طلب الهوى فتصد العقل والعلم والبيان».

وأوَّل الذنب يقال: الخطرة .... كالسيل في ابتدائه بالقطرة

والخطرات متعددة، وليست من وجه واحد؛ إذ منها إلهي، ومنها ملكي، ومنها شيطاني، ومنها نفساني، فالإلهية تُسمَّى بوارق، والملكية تسمى لوائح، والشيطانية تسمى خواطر، وكذلك النفسانية.

والخواطر في هذا البيت المراد الشيطاني والنفساني، وسمي خاطراً لخطوره على القلب وعدم ثبوته، وهو أول الذنب، وتشبيه أول الذنب بالقطرة التي هي أول السيل تشبيه حسن، ووجه الشبه بين المشبه والمشبه به ظاهر فتأمله، وذلك أنه كما كان أول السيل يتعاظم بتزايد القطرات، فكذلك الذنب يعظم بتكرر الخطرات.

فلا تزال الخطرة تتكرر وتترادف، وهي مع ذلك تتقوى وتتزايد حتى تثبت في القلب، فإذا رسخ وثبت قوي وصار معارضاً.

ثم يصير بعدها معارضه .... ما لم يكن بكره قد عارضه

إنما صارت الخطرة معارضة لما اكتسبت من القوة بالتكرار، فأولاً كانت خطرة لا ثبات لها ولا معارضة، فلما قويت ورسخت في القلب عارضت ما يخطر في القلب مما يناقضها، والمعارض قوي، وهذا ما لم يكن العبد كارها لتلك الخطرة، ويعارضها بالمدافعة، فإن لم يعارضها، ويدافعها قويت وصارت إلى حال أقوى، فتعود وسوسة.

ثم تصير بعد ذاك وسوسة .... ما لم يكن بكره قد سايسه

والوسوسة ما يجتاح أي باطن مما يلقيه الشيطان فيه أو النفس، وغالبه من الشيطان، وقد أسندت الوسوسة في كتب الله إلى الشيطان، فقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[الأعراف:20]، وإلى النفس فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق:16]، وهي أقرب من الخطرة المعارضة لثبوتها في الباطن أي الوسوسة، ولأن انفعال النفس لها، وانشغال القلب بها أكثر من الخطرة، والخطرة المعارضة تصير وسوسة

ما لم يكن مدافعاً لها بسياسة علمية، وأسباب شرعية، وكذلك الوسوسة إن لم تدافع بالأسباب النافية لها يحدث عنها ما هو أقوىٰ، وهي الشهوة الناشئة عن الهوىٰ.

ثم تهيج شهوة من الهوىٰ .... تذهب بالخير وتضعف القوىٰ

فإذا دامت الوسوسة، ورسخت، وقويت، ولم تدافع أثرت شهوة نفسية، والشهوة قوة نفسانية تنشأ عن الهوىٰ النفساني تبعث النفس علىٰ علائمها، ويميلها إليه، وهي أبداً لا تميل إلا إلىٰ المخالفات.

والمراد الشهوة إذا انبعثت من الهوىٰ وهاجت، ولم تدارك بمجاهدة النفس أثارت عللاً كثيرة تقطع من قامت به عن الاتصاف بأوصاف العبودية، وتمنعه من القيام بحقوق الربوبية، وتلبس عليه الحق بالباطل، ولهذا اشتغل الموفقون بجهاد أنفسهم، واهتموا بذلك خوفاً من إثارة العلل والتلبيس المخجل، فمَن أراد قهر النفس ورياضتها، وإخراجها عن أوصافها الذميمة، وأخلاقها اللئيمة، فليجاهدها.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[البقرة:218]، وما جوهدت النفس بأعظم من الجوع، ومخالفة الهوىٰ، فإن الجوع يضعف قوتها، ويزيل شهوتها، ويذل سطوتها، ويغلب عليها حكم الروح والعقل، ويتنور القلب، ويقرب من مرضاة الرب، وبالرياضة والمجاهدة تنتفي علل النفس وعيوبها.

قال أبو علي الدقاق: «من زين ظاهره بالمجاهدة حسن سرائره بالمشاهدة».

وقال أبو الحسن البزاز: «بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أن لا تأكل إلا عند الفاقة، ولا تنام إلا عند الغلبة، ولا تتكلم إلا عند الضرورة».

وقال إبراهيم بن أدهم: «لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات:

أولها: يغلق باب النعمة، ويفتح باب الشدة.

الثانية: يغلق باب العز، ويفتح باب الذل.

الثالثة: يغلق باب الراحة، ويفتح باب الشدة.

الرابعة: يغلق باب النوم، ويفتح باب السهر.

الخامسة: يغلق باب الغنى، ويفتح باب الفقر.

السادسة: يغلق باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للموت».

وإذا هاجمت الشهوة، وتقوت تستر عقول الرجال ذوي البرهان، والعلم، والحجة، والبيان، وهذه أوصاف جليلة، فالمتصف بها يرجى أن لا يغطى له عقل لما اتصف به من الأوصاف التي تقتضي كمال عقل صاحبها ووفوره، والوصف الواحد من هذه الأوصاف كاف في حفظ العقل، وعدم استتاره، فأحرى اجتماعها كلها، لكن في هذا تنبيه على عظيم ما ينشأ عن هيجان الشهوة من الأمور الذميمة، والأفعال القبيحة، وفيه تحذير من الوقوع في الأسباب المهيجة للشهوة، وبعث على استعمال ما يضعفها أو ينفيها، من دوام المجاهدة والرياضة.

إذ غطت العقول ذا البرهان .... والعلم ذا الحجة والبيان

والشهوة النفسانية إذا هاجمت، وتقوت أعمت القلوب المنورة بنور الإيمان، وطمست البصيرة عما سرى إليها من ذلك النور الإيماني، وهذا الذي ذكره خبر صدق لا شك فيه، فإن هيجان الشهوة ينشأ عنه عمى القلوب، وطمس

البصائر، فيضل العبد تائها في صحراء النفس، وظلم المعاصي، فلا يهتدي سبيلاً، ولا يجد إلى طريق الحق دليلاً، بل يكون دائماً يعمه في طغيانه، منقاداً إلى شيطانه، أسير هواه، موافقاً للشهوة فيما تهواه.

فأعمت السرائر المنوره .... وطمست بصيرة المستبصره

هذا حال قلب من عميت سريرته، وطمست بصيرته، وتمكنت فيه العلل، ولم يعمل في زوالها، وتطهير المحل، فيتوالى على القلب العمى، وتعلوه ظلمة، فيعود مظلماً بما فقد من النور الإيماني، ولا تزال الأنوار منه تتباعد، والظلم عليه تتراكم، وتتزايد إلى أن يغلب عليه حال الكسوف، ويكون دوامه أقرب من انجلائه، وموته أقرب من برئه من دائه. إلا أن يتداركه الله برحمته.

فأصبح القلب لذاك أعمى .... وقد علاه ظلمة وظلمنا

وذاك معنى جاء في الأخبار .... عن النبي المصطفى المختار

المعنى المشار إليه هنا ما ذكره من تغطية العقول، وعمى السرائر، وانطماس البصيرة، وعمى القلب عند فقد الأسباب المانعة من ذلك، وعدم النظر فيما ينجي من الوقوع في هذه المهالك، فقد جاء في الأخبار عنه ﷺ ما يؤيد ذلك ويقويه، ولم يحضرني الآن ما أنقله من الأحاديث في هذا المعنى، ومن أراد الوقوف عليها، فلينظرها في في مجالها.

2. **الخوف من الوعيد:**

فالخوف مانع من التلبس بالأحوال الدنية.

3. **دوام الذكر:**

فالذكر صارف من وقوع الخواطر الرديئة.

4. **مراقبة العبد لمولاه جل جلاله تمنع النفس من تلبسها بالعيب.**

قال السُّلمي: «ومداواتها: رد تلك الخواطر في الابتداء لئلا تستحكم، وذلك بالذكر الدائم وملازمة الخوف بالعلم أن الله يعلم ما في سرك كما يعلم الخلق ما في علانيتك، فتستحي منه أن تصلح للخلق موضع نظرهم ولا تصلح موضع نظر الحق».

دواؤه الرد لها في الابتدا .... بالخوف والذكر على طول المدى

5. العمل على صلاح قلبه:

وهذا بعد أن يتلبس بعيب أو يرضى في الوقوع في ذنب؛ لكون ذلك مضاداً لمراده وأقرب إلى فساده.

وكونه مراقباً لربه .... وعاملاً على صلاح قلبه

كأنه منفرد للحق .... والجسم فيه علة للخلق

فيكون منفرداً للحق ليعمل على سبيل الوفا والصدق، فانفراد وجهته إلى ربِّه، وشغله بصلاح قلبه يمنعه من ورود الخواطر الرديئة، ويستحيي أن يتلبس بالأحوال الدنية، وتتطهر نفسه من العيوب، ويتنزه عن مواقعة أسباب الذنوب.

والجسم فيه علة للخلق، وإنما كان كذلك؛ لأنه يدعو النفس من العلو إلى الانسفال، وإلى النقص من الكمال، فهذا من العلل التي فيه؛ إذ طبعه يقتضي وجود تلك العلل، وأيضا فإن الجسم يطلب ما هو إصلاح، وكلما يصلحه فيه فساد الروح، وما يقويه يضعفها، فهذا أيضاً من علله، وليس المراد صلاح الأجساد، بل صلاح القلوب والأرواح؛ لأنّ الله تعالى لا ينظر إلى الصور، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1]، إشارة إلى الاهتمام بإصلاح القلب، ومعاناته ـ إذ هو محل نظر الله تعالى ـ وإلى ما يعتني بطهارته، وهو أيضاً الملك المطاع، وسائر الأعضاء رعيته.

ففي حديث المصطفى المختار .... نص عليـــــه عمل الأبرار

لا ينظر الله إلى صوركـــــــم .... ولا إلى الأعمال بل قلوبكم

فالصور لا عبرة بها، فلهذا لم ينظر الله إليها، وإنما المعتبر القلوب، فكانت أحق بنظر الله إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فواجب على العبد أن يعتني بصلاح قلبه، وطهارته من الأخلاق الذميمة، والأوصاف الردية، وكيف لا يعتني به وفي صلاحه صلاح غيره، فعن النعمان بن بشير ﷺ، قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[2].

وللقلوب حالان:

أ.خير القلوب ما كان ذو رقة؛ لأنه يقبل المواعظ والتذكير، ويؤثر فيه التخويف والتعبير، وما رق قلب إلا سهل علاج هو إصلاحه، ومعاناتها والاشتغال بصلاحها واجب على كل مريد، بل على كل مؤمن، قال ابن عطاء الله: «ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة».

وأمراضه إنما تكون من غفلة أحكام الطبع عليه وصحبة الأضداد، ووقوفه مع المعتاد، وانقياده إلى هوى النفس وأنسه بعالم الحس.

---

(1) في صحيح مسلم4: 1986.

(2) في صحيح مسلم3: 1219.

ومداواته من أوجه كثيرة: أعظمها، وأنفعها، ما قاله ابن عطاء الله.

ب.شر القلوب ما كان موصوفاً بالغلظة والجفاء، وكل من الوصفين ذميم، وتنشأ عنه أخلاق ذميمة، وأفعال كريهة، فالغلظة ينشأ عنها الكبر، والحقد والجفا والقسوة، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة، والجفا ينشأ عنه القطيعة والنكر، وبغض عباد الله... إلى غير ذلك.

وقد نبَّه نبيه ﷺ إلى ما في غلظ القلب من الأمر المكروه، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران:159]، فالفظاظة وغلظ القلب تبعد القريب وتنفي البعيد، ولا يكون معها إئتلاف، ولا جمع شمل، ولا مودة.

فخيرها ذو رقة وذو صفا .... وشهرها ذو غلظة وذو جفا

* * *

العيب الخامس عشر
الاشتغال بعيوب الناس

اشتغال العبد بعيوب غيره، وعدم نظره إلى ما فيه من العيوب معدود عند العقلاء من عيوب النفس المهلكة لها التي تسقطها من عين الله تعالى، وهذا ليس من شأن المؤمنين، ولا من أحوال المتقين، بل فيشتغل العبد بالبحث عن عيوب نفسه، واطلاعه عليه، ومداواة عللها، وطهارتها من أدناسها، وفي هذا شغل شاغل عن رؤية العبد عيوب غيره.

قال السلمي: «ومن عيوبها: اشتغالها بعيوب الناس عما بها من عيبها».

من عيبها الشغل بعيب الناس .... وترك ما بها من الأدناس

وإن العبد لا ينقصه عند الله تعالى عيوب غيره، وإنما ينقصه عيوب نفسه، وما لا يقع للعبد به انتقاص عند مولاه، فلا يشغل نفسه بالنظر فيه، وإنما يلزمه النظر والاشتغال بما ينتقص قدره عند ربه، ويعد من جملة ذنبه.

أولاً: سبب العيب:

وسبب المرض يرجع لأمور منها:

1. **الكبر:**

فيما فيه من التعالي على الخلق.

2. **الإعجاب:**

فلا شك أن الكبر والعجب حال من رضي عن نفسه، والرضى عن النفس يقتضي ستر عيوبها، ولا تقدير أن يلاحظ منها شيئاً، فلا يشتغل به، ولا يراه عيباً.

3. **الغفلة عن موجب العذاب:**

فمن حال الغفلة ويدعوه كبره وعجبه إلى عدم رضاه عن الخلق، ولرؤية مساوئهم، والتطلع على عيوبهم، والبحث عن عوراتهم إلى غير ذلك من الأمور المناقضة لأحكام الأخوة الإيمانية الفاصمة للروابط الإسلامية.

وذلك من كبر ومن إعجاب .... وغفلة عن موجب العذاب

ومن العيوب المرتبة على الشغل بعيوب الناس؛ لما قام به من الكبر والعجب هي الهمز واللهم.

فقد أتى الويل لكل همزه .... وبعده في ذلك كل لمزه

قال أبو العالية والحسن: «الهمز بالحضور، واللمز بالمغيب».

وقال ابن أبي نجيح: «الهمز باليد والعين، واللمز باللسان»، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة:58]، وفسروا الويل أنه العقاب.

وفسروه أنه العقاب .... ويل له حل به العذاب

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. نظره إلى ما في نفسه من العيوب:

وهذا لأن العبد إذا نظر عيب نفسه شغله ذلك عن النظر في عيوب الناس، وهذا حال أهل النصفة واليقظة، الناظرين لأنفسهم المعتنين بها، وبطبها من عيوبها وعللها، وكذلك بحث العبد عن موجبات نفسه، فهذا أيضا من الأدوية التي تداوىٰ بها العلة المذكورة.

وبحثه من موجبات تعسه: معناه عن موجبات هلاكه في دينه وعثاره، وفي محاولة أموره.

2. صحبة الأخيار والأبرار:

فهي من الأدوية لعيب النفس الذي هو الشغل بعيب الناس، وإنما كانت صحبة الأخيار والأبرار دواء لتلك العلة ومبرئاً من ذلك العيب؛ لأن صحبة الأخيار والأبرار تبين للعبد عيوب نفسه لشهوده قصورها، ونقصها مع كمالهم، وفسادها مع صلاحهم، وتقصيرها مع نشاطهم في أنواع العبادات وضروب المعاملات، فإذا شاهد العبد المصاحب للأخيار والأبرار قصور نفسه ـ مع كمال من صحب من أهل الكمال ـ اطلع علىٰ عيوب نفسه، وظهر له النقص فيها، فشغله ذلك عي عيوب غيره.

وهذه الفوائد لا تحصل للصاحب بالحال، مع ما ينضم إليها من القول، فإن الأخيار والأبرار لا يتركون من صحبهم ممن كان دونهم في الحال أن يأمروه بالخير والمعروف، وينهوه عما يقدح في حاله، لكن حصول المنفعة بذلك بشرط الاتباع لسبيلهم، والائتمار لأوامرهم.

وسئل الدقاق: «بما ذا يقوم الرجل اعوجاجه؟ فقال: بالتأدب بإمام، فإن من لم يتأدب بإمام بقي بطالاً».

ولهذا احتاج الناس إلى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم، واتباع أوامرهم ونواهيهم.

والأخيار وهم الذين اختارهم الله تعالى لطاعته، واصطفاهم لمحبته.

والأبرار وهم الذين حالهم البرور لمولاهم تعالى فيما أمرهم به، ونهاهم عنه، فلا يتركون أمرا ولا يقترفون نهياً.

والعلم والورع والصلاح شرط في كمال الصاحب الذي ينتفع بصحبته، ويأتمر العبد بأوامره، فبالعلم تصح الأعمال الدينية، وبالورع تكتمل الوظائف الشرعية، فبالعلم تعلوا الدرجات، وبالورع تنال الكمالات، وبالصلاح ترفع المنازل والمقامات، فبالعلم تشرق الأنوار، وبالورع تلوح للقلب الحقائق والأسرار، وبالصلاح تتواصل الأذكار، فبالعلم تصح الاستقامة، وبالورع تنال الكرامة، وبالصلاح يبعد العبد من موارد الندامة، فالعلم أصل من أصول الطريق، والورع من أحوال أهل التحقيق، والصلاح الخاص مورد من موارد الطريق، فمن لا علم له لا ورع له، ومن لا ورع لا صلاح له.

قال السُّلمي: «ومداواتها: في الأسفار والانقطاع ومحبة الصالحين والائتمار بأوامرهم».

دواؤه إبصار عيب نفسه .... وصحبة الأخيـــار والأبرار
من عالم ورع وذي تقىٰ .... وبحثه عن موجبات تعسه
بالاتباع والاستمرار .... أو صالح في شأنه تحققـا

3 .السكون عن ذكر عيوب الآخرين ونشر أخبارهم:

فمن قصرت همته وقلت بضاعته نزل إلىٰ هذه الرتبة، وهي دون ما سبقها.

قال السُّلمي: «وأقل ما فيه إذا لم يعمل في مداواة عيوب نفسه أن يسكت عن عيوب الناس ويعذرهم فيها، ويستر عليهم خزاياهم، رجاء أن يصلح الله تعالىٰ بذلك عيوبه».

ودون ذا السكوت عن أخبارهم .... ونشر ما يظهر من أعذارهم

ودون إبصار عيب نفسه مع ما قارنه من الأدوية السكون عن عيوب الناس، وعن أخبارهم غير المرضية، التي يكتسب منها الذم والنقص، فسكوت العبد عن ذلك من أحوال الناس كاف في التداوي من عيب النفس الذي هو الشغل بعيب الناس، وكذلك نشر ما يظهر من أعذارهم، فهذ أدنىٰ درجة في التداوي من عيب النفس.

وينبغي للعبد أن يتخلق مع عبيد الله سبحانه بمعنىٰ اسم الستار، راجياً من الله تعالىٰ ستر ذنبه وعيبه، وليكن خائفا من افتضاحه بسبب فضيحته لعبيد الله تعالىٰ، فمن صمت عن عيوب الناس، وسوء أخبارهم، فعل الله تعالىٰ به ذلك.

وجـــــاء ستر ذنبه وعيبه .... وخوفه افتضاحه بسببه
ففي الحديث سترة المرء أخيه .... ستر له في كل عيب يقتفيه
وفيه أيضا من يتبع عورته .... فضحه الله وأبـدىٰ زلـته
ولو يكن في جوف بيت بخلا .... جـاء بمعـناه ذو العـلا

فوردت به أحاديث نبوية، وقد جاء ذلك في الترغيب والترهيب من الستر للمسلم.

أما الترغيب، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «لا يستر الله على عبد في الدنيا، إلا ستره الله يوم القيامة»[1].

وأما الترهيب فعن ابن عمر ﷺ، قال: « ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»[2]، تقوية للترهيب من كشف عيوب الخلق وفضيحتهم، وإعلام بأن الفاعل لذلك يفضحه الله تعالى على أعين الملأ، ولو تستر غاية جهده، ولو في جوف بيت.

وقد جمع الله تعالى هذه المعاني في آية من كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة:8].

والعبد هب أنه كان خالياً من العيب، وكان يشتغل بعيب غيره، فهذا نفسه عيب يقتضي مذمته بين الناس، وكفى بذاكر عيب الناس عيباً ذكره لعيوبهم، ورؤيته لمساوئهم، والعبد مرآة نفسه، فما كان مركوزاً في جبلته، فذلك يظهر له في غيره إن كان خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً.

قالوا: رأينا من خلي عن عيبه .... فعاد عيباً شغله بغيره

ومن اشتغل بالنظر إلى عيوب الناس أحدث الناس لهم عيوباً كانت عن أهلها، أو عن الناس مستورة محجوبة، فكشفها الله تعالى للخلق، وأظهرها لهم جزاء بما كانوا يعملون، وكانت عقوبة هؤلاء من جنس الذنب الذي اقترفوه.

---

(1) في صحيح مسلم4: 200.

(2) في سنن الترمذي4: 378، وحسنه.

وأحدث الناس لهم عيوباً .... كان لديهم شانئا محجوباً

قال مالك: «أدركت أناسا ليس لهم عيوب، فتتبعوا عيوب الناس، أو نظروا إلى عيوب الناس، فأحدث الناس لهم عيوباً، وأدركنا أناساً لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس، فسكت الناس عن عيوبهم».

وإن كان قوم مشهورين بالعيوب مقترفين للذنوب، لكنهم سكتوا عن عيوب الناس فسترهم الله تعالى معاملة بما عاملوا به الخليقة.

وأخرون بالعيوب اشتهروا .... فسكتوا عن غيرهم فستروا

وزالت العيوب عند الناس .... وطهّروا من جملة الأدناس

هذه الإزالة يحتمل أن تكون فيما يظهر للناس مع تحليتهم بها في الباطن إلا أن الله تعالى سترهم، ويكون الكلام جرياً على ما سبق من اشتهارهم بها، وستروا لسكوتهم عن عيب غيرهم.

وخصلة شغل العبيد بعيب الناس، وترك النظر إلى عيب نفسه لا شك في أنها مصيبة في الدين، وذلة في الحال، وإذا كان كذلك، فواجب على العبد الاعتناء بزوال ما به المصيبة في دينه، والعلة في حاله.

فلتعن يا صاح بهذي .... الخصلة فإنها مصيبة وذلة

وترك هذه الخصلة منقبة، والمهجة هنا المراد بها الروح الريضة المطاوعة المتقادة للخير.

وتركها منقبة عظيمه .... ووصف كل مهجة كريمه

العيب السادس والسابع والثامن والتاسع عشر
والعشرون والحادي والعشرون
الغفلة وأخواتها

«ومن عيوبها: الغفلة والتواني والإصرار والتسويف وتقريب الأمل وتبعيد الأجل»، قاله السلمي.

من عيبها الإصرار والتواني .... والعجز والتسويف والأماني

نذكر هاهنا **خمسة عيوب من عيوب النفس، وهي:**

الأول: الإصرار على الذنب:

والإصرار هو المقام على الذنب ونية العودة إليه، فهذا عيب من عيوب النفس، وداء عضال يميت القلوب والأرواح.

وسبب العيب:

1. **غلبة الهوى.**

2. **نسيان حقوق المولى.**

الثاني: التواني:

وهو التقاعد والتسويف في أفعال الخير، وعدم النهوض إليها، والمبادرة بها والعزم عليها.

وسبب العيب:

طول الأمل:

واستبطاء مجيء الأجل، وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين.

فالواجب على العبد أن لا يتوانى في الأعمال الصالحات، ولا يسوف، بل يبادر إليها على أية حالة، وأن ينتهز فرصة الإمكان قبل مفاجأة الموت، وحلول

الموت، وأن يتوكل على الله سبحانه وتعالى في تيسيرها عليه، وصرف الموانع الحالية بينه وبينها.

الثالث: العجز:

وهو عدم نهوض العبد إلى ما يطالب بعمله، وركود ذهنه عن ذلك، وينشأ عن التواني، والكسل.

وسبب العيب:

ركود الهمة، وقد ذم الله تعالى قوماً تكاسلوا عن أداء الواجبات، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى...﴾ الآية، وقد استعاذ النبي ﷺ من العجز والكسل، فعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال»[1].

الرابع: التسويف:

وهو تأخير ما يطالب به العبد في الزمن الحاضر إلى زمن مستقبل.

وسبب العيب:

وينشأ عن التأني، والواجب قطعه بسيف العزم، والمسوف قل أن يبلغ المنى؛ إذ قد يعالجه الموت فيقطعه عن مراده، أو تحدث له قواطع أخر؛ لأن القواطع، والموانع يتداعى بعضها إلى بعض.

الخامس: الأماني:

وهو تعلق القلب بمأمول مع فقد الأسباب التي يترتب عليها حصول ذلك المأمول.

---

(1) في صحيح البخاري 4: 36.

وسبب العيب:

وهو حال الحمقاء، فالأحمق مَن اتبع النفس هواها، وتمنى على الله تعالى الأماني.

أولاً: سبب العيوب:

عيوب النفس الخمسة المذكورة لها أسباب جامعة ومنها:

1. الكسل:

فإنما حدثت للنفس تلك العيوب من أُنسها بالكسل.

فالإصرار نشأ عن كسل النفس عن الإقدام على التوبة، وعلى العزم على الإقلاع عن الذنب.

والتواني نشأ عن كسل النفس على الإقدام على ما طلبت بفعله.

والعجز نشأ عن الكسل عن النشاط ما دام فيه التواني، والعجز نشأ عن كسل النفس، وركود همتها عما تطالب بالنشاط، والإسراع إليه.

والتسويف نشأ عن الكسل فيما طلب منه التنجيز، والإسراع إليه.

والأماني نشأ عن كسل النفس عن استعمال الأسباب المحصلة لما يرجوه العبد.

2. عدم احتياط العبد لنفسه أن يوردها موارد النجاة:

ويبعدها موارد الهلاك، ولو احتاط لها لسعى في نجاتها وطهارتها من ذميم أوصافها وخلاصها من عيوبها، لكن لما أوردها موارد الخوض فيما لا يعني، ومواطن الخبط فيما لا يجدي ولا يغني، أسلمها لارتكاب الذنوب، وتركها متصفة بالعيوب.

ثانياً: دواء الأمراض:

والدواء النافي لتلك العيوب:

1. التوبة النصوح:

وهي التي تذهب بالإصرار على الذنب وتمحو الأوزار، وهي التي أمر الله تعالى بها عباده المؤمنين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهَّ تَوْبَةً نُصُوحًا}.

وقال السَّري: «لا تصحّ التوبة إلا بنصيحة النفس ونصيحة المؤمنين».

2. رفض التسويف الناشئ عن طول الأمل:

وهو المتولد عن الكسل، فالتسويف عن الطاعات مضيعة للعمر النفيس، ومخلّ بالعمل.

ومن الأشياء الحاملة على رفض التسويف خوف الباري تعالى: أي خوف عقابه على مخالفة أمره، فإنه أمر تعالى عباده بالإتيان بالطاعات.

3. الرجاء الباعث على على العمل:

أي المقارن بقصر الأمل، فإن العبد إذا تحقق رجاؤه في الله تعالى، وقارن ذلك الرجى عمل، انبعث عن خوف، فيكون ذلك سبباً في براءة النفس من العيوب القادحة فيها.

4. الذكر الدائم:

ويشمل أي ذكر كان من أنواع الأذكار، فإن الذكر مطهر للنفوس من العيوب، ومجنب لها من أسباب الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُون﴾ [العنكبوت:45].

فالذكر منور للقلب، ومقو للأرواح، ومطهر للنفوس، وبه تنشرح الصدور، وهذه الخصال الحميدة، والأحوال السنية.

5. تقصير الأمل:

فإن النفس إذا قصر أملها ترى أن الآخرة أقرب إليها من شراك نعلها، فيبعثها قصر الأمل على العمل الذي به طهارتها من العيوب.

قال السلمي: «ومداواتها: سئل الجنيد: «كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟ فقال: بتوبة تحل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على قصد مسالك العمل، وذكر الله تعالى على اختلاف الأوقات، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها عن الأمل، قيل: فيم يصل العبد إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد فيه توحيد مجرد».

دواؤه بقولـــة الجنيد .... لمّا سئل عن طرِيق القصد
بتوبة تذهب بِالإِصرار .... ورفض تسوِيف بخوف بار
وبِرجاء باعث على العمل .... والذكر دائِمًا وتقصير الأمــل
وأصل كلها فـــؤاد مفرد .... توحيده محـــرر مجـــــرد
بخالص التوحيد والطريقه .... كمثل أصل الغصن في الحديقه

وهذه الأدوية الخمسة المذكورة من التوبة ورفض التسويف والرجاء الباعث على العمل والذكر الدائم وتقصي الأمل، فأصل هذه كلها، وعنصر مبعثها: **القلب المفرد توحيده.**

وإفراد التوحيد هو تجريده عما يقتضي الاثنية المنافية للتوحيد، الراجع إلى الأفعال، وإلى الصفات، فإذا تجرد التوحيد بحق عن هذه المقتضيات، وكان التوحيد محرراً مجرداً، فالتحرير في معناه، والتجريد في مقتضاه، وهذا هو التوحيد

الخالص مما يشوبه من القوادح فيه، المخرجة له عن حقيقة التوحيد، ، فإذا كان القلب بهذه النسبة كان أصلاً لتلك الأدوية، وتنشأ عنه كأغصان نشأت عن أصل في حديقة في أرض طيبة.

* * *

العيب الثاني والعشرون
طلب العوض على أعمالها

طلب العبد العوض عن عمله عيب من عيوب النفس المنقصة لها، وكذلك إذا قصد بعمله غرضاً من الأغراض، فهو أيضاً عيب من عيوب النفس، وسواء كانت الأعواض دنيوية أو أخروية محسوسة أو معنوية، وكذلك الأغراض.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: طلب العوض على أعمالها».

وإذا طلب ذلك عوضاً عن العمل مخرج عن حقيقة العبودية، وجهل بحقوق الربوبية، وكيف يصح لعبد أن يطلب من مولاه على عمله العوض، أو يعمل على غرض، فمَن كان حاله هكذا، فما تحقق في مقام العبودية، وما شاهد عظمة الألوهية، وما أدى حقوق الربوبية، وإنما هو عبد هواه، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[الفرقان:43]، وجميع المطالب على سبيل الأعواض وقصد الأغراض كلها علة في العمل وقادحة فيه.

من عيبها طلبه الأعواضا .... بفعله وقصده الأغراضا

فإن كان ولا بُدّ للعبد من طلب الثواب، فإنما يطلبه انتجازاً لوعد ربه، وفراراً من دعوى رؤية عدم حظه، واتباعاً لما أحبه منه، وأذن له فيه من طلبه لفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه.

أولاً: سبب العيب:

ويرجع هذا المرض لأمور منها:

1. **رؤية العبد أعماله:**

فإذا رأىٰ العبد أعماله طلب الأعواض.

2. **ملاحظ العبد أحواله:**

فمن لاحظ أحواله، وأسند ذلك إليه، كان ذلك سبباً في قصده الأغراض، ولو سلب ذلك عن نفسه ورأىٰ الأعمال والأحوال في الحقيقة من ربه تعالىٰ، لم يطلب علىٰ عمل ليس له عاملاً عوضاً، ولا يقصد به غرضاً؛ إذ ذو العقل السليم يأبىٰ ذلك.

وذاك من رؤيته أعمالـه .... ولحظه في شأنه أحواله

والأصل الذي ينشأ عنه هذان السببان:

1. **الغفلة عن الله تعالى توجب عدم مراعاة حقوقه.**

2. **فقد شهود قربه تعالى يوجب طلب العبد لحظوظه**، ولو أفاق من غفلته، وشاهد قربه من ربه تعالىٰ لم ير عمله، ولا يطلب عليها أعواضاً.

وأصله من غفلة عن ربه .... وفقده شهوده لقـربه

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج المرض بأمور منها:

1. **رؤية العبد التقصير في أعماله:**

ينفي عنه أن يطلب علىٰ عمله عوضاً أو يقصد بحاله غرضاً؛ لأن المقصر في عمله يستحيي أن يطلب عليه عوضاً من سيده.

2. **عدم الصدق في أحواله:**

فمن لم يصدق مع الله تعالى في أحواله، كيف يصح له أن يقصد به عوضاً.

قال السلمي: «ومداواتها: رؤية تقصيره في عمله وقلّة إخلاصه، فإن الكيس في عمله من أعرض عن طلب الأعراض أدباً وتورعاً عنه، عالماً بأن الذي قُدِّر له يأتيه دنيا وآخرة، وأن الذي عليه لا يخرجه منه الإخلاص».

وما أحسن قول ابن عطاء الله في «حكمه»: «متى طلبت عوضاً عن عمل طولبت بوجود الصدق ويكفي لمريد وجدان السلامة»

فإذا طالب العبد ربه بالجزاء على عمله، طالبه ربُّه بوجود الصدق فيه، والصدق والوفاء بحقه في العمل، وأنى له توفية ذلك مع كونه طالب الحظ من ربه، فهو لا محالة مريب، فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها.

دواؤه في رؤيته التقصير .... وفي شهود الحكم والتقدير

إذ لا يزيد عمل فيما قسم .... لكنه عبودة لنا رسم

قال الواسطي: «العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأغراض عليها».

ومن يرد أخذ الجزاء بالعمل .... طولب بالذي يكون من علل

يكفي المريد غنمه السلامه .... إذ فعله يؤول للندامه

ومن حكمنا الصغرى: «لا تطلب العوض على عمل هو لك مهديه، وربما برز منك دون إخلاص فيه».

فأعمال العبد الصالحة، وأحواله الحميدة هدايا من الله تعالى إلى عبده، ومنة منه تعالى، فكيف يطلب الجزاء على ما هو مهديه إليه.

وإنما أعمالنا من منته .... فكيف يطلب الجزاء على هبته

وما أحسن كلام ابن عطاء الله حيث قال: «كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً».

وقال أيضاً: «كفى العاملين جزاء، ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته».

وفي مخاطبات لنا: «عبدي إن طلبت مني الجزاء على عمل هو منّة مني عليك، وهدية إليك أقمت عليك ميزان العدل، فتضمحل إذ ذاك أعمالك، وتتلاشى أحوالك، فأحسن إليك أن تأتيني فقيراً بلا عمل، فأقابلك بالكرم والفضل».

* * *

العيب الثالث والعشرون
تزيين الظواهر وترك السرائر

هذا العيب أكثر النفوس متلبسة به، وما برئت منه إلا نفوس رجال غابوا عن رؤية الخلق بشهود الحق، وأكثر الناس مشاهدون للخلق ناظرون إلى أفعالهم، فتجدهم يقابلونهم بما يستحسنونه منهم في العوائد من تزيين الظواهر، فالملابس الحسنة، والهيئة المستحسنة، فاشتغلوا بتزيين ظواهرهم التي هي محلّ نظر الخلق، وتركوا تزكية سرائرهم، وطهارة قلوبهم التي هي محل نظر الله تعالى، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1].

(1) في صحيح مسلم4: 1986.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الاشتغال بتزيين الظواهر والتخشع من غير خشوع، والتعبد من غير حضور».

فأولى للعبد أن يهتمَّ بتزيين سريرته، وطهارة قلبه وإصلاح نيته، فهذا الذي أمر الله تعالى به عباده المخلصين، وهذه أوصاف المؤمنين، وكانوا يَكرهون تزيين الظواهر، ويَرون ذلك من أكبر العيوب وأعظم الذنوب.

من عيبها تزيينه الظواهر .... مع تركه لرزية السرائر

قال يوسف الرازي: «لأن ألقى الله بجميع المعاصي أحبّ إلي أن ألقاه بذرة من التصنع».

وقال الثوري: «مَن عاشر الناس داراهم، ومَن داراهم رآهم، ومن رآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا».

أولاً: سبب العيب:

وينشأ هذا العيب من أمور منها:

1. **تعظيم الخلق:**

يوجب مداراتهم والتصنع لهم والتزيين ومداهنتهم والرياء من أجلهم وغير ذلك من الأحوال الذميمة.

2. **ترك موجب الهدى والصدق:**

فهو يوجب ذلك كله، وموجب الصدق مع الله تعالى سكون هيبته في القلب، وشهود جلاله وعظمته، فإذا امتلأ القلب بالهيبة والجلال وشاهد العظمة والكمال كان العمل للحق شهوده لغيبته عنهم.

3. **ترك موجب التقوى والهداية:**

فمن اتقى اهتدى.

وذك من تعظيمه للخلق .... وترك موجب الهدىٰ والصدق

ثانياً: دواء العيب:

الاعتناء بإصلاح السرائر يشغل عن إصلاح الظواهر:

وما به يكون الاعتناء يذهب ما لا يعتني به كما يُذهب الدواء العلة التي تضادها، وما أصلح أحد سريرته إلا وأصلح الله ظاهره، فعن ابن عمرو ﷺ، قال ﷺ: «من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»[1].

وعن أبي عون ﷺ: «كان أهل الخير إذا التقوا يوصي بعضهم بعضا بثلاث، وإذا غابوا كتب بعضهم إلىٰ بعض من عمل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح فيما بينه وبين الله كفاه الله الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»[2].

دواؤه أن يعتنـــــي بـــسرِّه .... ليصلح الله جميعه أمره

إذ في الحديث مصلح السرائر .... لربه يصلح له الظواهر

ففي الحديث إشارة إلىٰ أن الظواهر تستمد من البواطن، وهذا المدد أقوىٰ من أنوار الظواهر؛ لأنّ أنوار السرائر من أنوار أوصافه، وأنوار الظواهر من أنوار آثاره، وقد نبه ابن عطاء الله علىٰ ذلك بقوله في حكمه: «أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه».

قال السُّلميّ: «ومداواتها: الاشتغال بحفظ الأسرار ليزين أنوار باطنه أفعال ظاهره، فيكون مزيناً من غير زينة، مهيباً من غير تبع، عزيزًا من غير عشيرة».

---

(1) رواه الحاكم في تاريخه، وحسنه السيوطي، كما في التنوير شرح الجامع الصغير10: 50.

(2) في مصنف ابن أبي شيبة19: 307.

والنفس الزكية الطاهرة المطمئنة يكون الجسم خادمها منقاداً إليها للأعمال الصالحة لا يتحرك، ولا يَسكن إلا في طاعة مصوناً عن المخالفات، فيكون فاضلاً بما سرىٰ إليه من فضلها، ويكون هذا مدعاة لاستجابة الدعاء منها.

وفضل ذي السر الرسول إذ دعا .... بقولـــه خيراً أو كلاً جمعاً

فبيـــــــن الفضل لدىٰ الجميع .... وفضل السر علىٰ المجموع

فيكون الفضل لدىٰ الجميع لمن أصلح باطنه وظاهره، ويكون فضل السر علىٰ المجموع إعلام بفضيلة السر علىٰ الظاهر.

* * *

العيب الرابع والعشرون
الرضى عن النفس

رؤية العبد لنفسه عيب قادح فيها، وعلة مهلكة لها ورؤيته علىٰ سبيل الرضى عنها، وكذلك رفقه بها علّته تضعف قواها وتميلها إلىٰ هواها، فالنفس إذا نظرت إليها بعين الرضى أمالتك إلىٰ ما تهوىٰ، وإن رفقت بها لم ترفق بك أبداً.

وإذا كان حال النفس هكذا، فعلىٰ العاقل أن يتعبها قبل أن تتعبه، وأن يضعفها قبل أن تهلكه، وأن لا يَرضى عنها، ولا يَرفق بها، فإن فعل حقَّرته واستعبدته، فتميله إلىٰ ما تهوىٰ، وتقوده إلىٰ ما ترضى، وفي ذلك هلاكه.

قال الواسطي: «أقرب شيء إلىٰ مقت الله رؤية النفس وأفعالها».

قال السلمي: «ومن عيوبها: رؤيتها الشفقة عليها».

من عيبها رؤيته لنفسه .... ورفقه بها لأجل حسّه

أولاً: سبب العيب:

والرضى عن النفس يرجع لأمور منها:

1. غلبة الأوهام:

والوهم هو ما لا حقيقة له في الخارج، فإذا غلب على العبد تصور أشياء يظنها وجودية، وفي الخارج لا حقيقة لها، قالوا: كمن سمع ريحاً انضغط في كوة أنه زئير أسد، فلما تحقق ذلك وجده بخلاف ظنه، ومن هذا رؤية العبد نفسه ورؤية كمالها، فلما رآها كذلك توهم أن لها وجوداً في الحقيقة، ولها أوصاف كمالية، وليس الأمر كذلك، وإنما ذاك وهم، ولو تحقق الأمر لوجدها عدماً على الحقيقة، وإنما هي خيال مضمحل، وما كان لها من الأوصاف الحميدة فعارية لا تدوم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء﴾ [النور:21].

فعلى العبد أن ينظر إلى نفسه بعين الحقيقة، فلا يرى لها وجوداً، ولا يَنسب لها كمالاً يوجب رضاء عنها، ورؤيته لنفسه ورفقه بها.

2. عدم الخوف من الآثام:

وإذا عدم العبد الخوف من الآثام، أوجب له ذلك رؤيته لنفسه، ورفقه بها، ورضاه عنها، فإذا خاف من الوقوع في الآثام، كان حاله مع نفسه بخلاف ذلك.

3. خوف القبر:

وإذا خاف العبد يوم حلوله في رمسه، لم يتصور منه أبداً أن يرفق بنفسه، بل يحمله على طريق الجد في العمل، ويذيقها مرارة المجاهدة، ولا يرفع عنها عصاة التأديب، وسوط الخوف إلى أن تلقي السلاح، وتميل إلى طريق الصلاح، ومن غلب عليه الخوف لم يتصور منه أبداً رفقه بنفسه، فإن الرفق بالنفس ينشأ عنه الكسل، والخوف باعث على العمل.

وذلك من غلبه الأوهام ... وعدم الخوف من الآثام
إذ مَن يخف يوم حلول رمسه ... لم يتصور رفقاه بنفسه

ثانياً: دواء العيب:

ولهذا المرض أدوية منها:

1. رؤية العبد فضل الله تعالى عليه:

فإذا شاهد ذلك تحقق نقاء أوصاف نفسه الكمالية الموجبة لرؤيته لها على سبيل الرضى عنها، ولزمه القيام بحقوق المتفضل عليه تعالى، فلا يتصور منه حينئذٍ الرفق بنفسه، لما يقتضيه الرفق من التقصير في حقوق المولى جل جلاله.

قال السلمي: «ومداواتها: رؤية فضل الله تعالى عليه في جميع الأحوال يسقط عنه رؤية النفس».

2. ترك كل غافل ولاه:

فالغافل عن يوم حلول رمسه، واللاهي عن أداء حقوق الله تعالى بحظوظ نفسه، يجب على العاقل ترك صحبته.

3. الأخذ بالجدّ والتشمير:

فتنتفي علّة التسويف، والكسل، والتقصير.

4. ترك صحبة ذوي التقصير في العمل:

لما في صحبتهم من التخلق بأخلاقهم، والتلبس بأحوالهم؛ إذ الطباع تسوق الطباع فللصحبة أثر، فمن صاحب ذوي التقصير عزل عن طريق الجد والتشمير.

وفي «حكم ابن عطاء الله»: «لا تصحب مَن لم ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله».

دواؤه رؤيته فضل الله .... وترك كل غافـــل ولاه
والأخذ بالجد وبالتشمير .... وترك صحبة ذوي التقصير

5. ترك صحبة من هو راض عن نفسه:

ولا يرىٰ لها عيوباً، فإن صحبة مَن هذا حاله توجب التخلق بأخلاقه والاتباع له في أحواله، ويزداد بصحبته رضى عن نفسه.

وكـــل مَن عـــن نفسه رضاء .... فلا يـــرىٰ العيب الذي أتاه
إذ صحبة الراضي تزيد في الرضى .... وتدفع العبد إلىٰ سوء القضا

تقدم أن للصحبة أثر، ولذلك كان مَن صحب مَن هو راض عن نفسه يزداد بصحبته رضى عن نفسه، وكلّ ما ازداد رضى عن نفسه ازداد بعداً من ربه، وهذا من من سوء القضاء، وفي «حكم ابن عطاء الله»: «أصل كل معصية الرضا وغفلة وشهوة الرضى عن النفس»، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه.

قال الداراني: «ما رضيت عن نفسي طرفة عين».

قال أبو عبد الرحمن: «سمعت جدي يقول: آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه».

فإن استشعر المريد شيئاً مما ذكرنا فليبادر إلىٰ قطع مواده واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويرسخ، فبدايات الأمور هي التي ينبغي أن تراعىٰ كثيراً.

6. صحبة مَن ينتفع بصحبته:

وهو المجتهد في أعمال الطاعات ذو الجد والتشمير في الأعمال الصالحات، وأنواع المعاملات، فمن صحب من هذا حاله إزداد اجتهاداً وجداً وتشميراً في

طاعة الله تعالىٰ، وسمي المجتهد في الطاعة ذو الجد والتشمير نحريراً علىٰ جهة المدح، والنحرير الحاذق الماهر، فالعاقل يختار لصحبته من يحصل له به الانتفاع، فقد قيل من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، فمَن جلس علىٰ دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة. هذا في الحضور والمجالسة، فما ظنك في الصحبة والمؤانسة.

وصحبة المجتهد النحرير .... تزيد في الجد وفي التشمير

ولا يشترط في المصحوب كمال اتصافه بالأوصاف الكمالية، فإن ذلك متعذر، وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه بحيث يكون أعلا منه حالاً، وأصوب مقالاً، ومن لم يكن هكذا، فلا منفعة في صحبته، ولا فائدة في مخالطته.

7. اتهام نفسه وعدم الرضا عنها:

فمن رأىٰ نفسه بعين الرضى، يستحسن جميع أفعالها، ويراها حسنة جميلة كاملة فاضلة، وهذا يقتضي استحسان ما صدر منها وإن كان مأثماً.

قال الواسطىٰ: «أقرب شيء إلىٰ مقت الله رؤية النفس وأفعالها».

والواسطي قال قولاً حسناً .... أقرب شيء مقت من بها اعتنىٰ

ومن رأىٰ أفعاله الجميله .... بأنها حسنة فضيله

لأن ذلك يقتضي استحسان ما .... تأتي له بما يكون مأثما

قال أبو عبد الله السجزي: «مَن استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته، فسدت عليه إرادته، إلا أن يرجع إلىٰ ابتدائه فيروض نفسه ثانياً».

وسبب هذا رضاه عن نفسه، والذي يحسن بالعبد الموفق عدم الرضى عن نفسه، وعدم استحسان أفعالها، ولينظر إليها بعين السخط، فبذالك تظهر مساوئها، فليكن العبد المهتم بأمر دينه مراقباً لنفسه، حذراً من مكرها وخدعها.

فلتتهم نفسك طول الدهر .... معتصماً بربك في ذا الأمر

إنما أمر باتهام النفس دائماً؛ لأنّ في اتهامها تسخيراً لها، وتأديباً، وتربيةً، وتأنيباً، ولتعلم أن عندها من ينصب عليها ميزان المحاسبة، ويبحث على مساوئها، وينظر في أفعالها.

وإذا علمت ذلك لم تطلق عنانها في استعمالها ما كان مشوباً، ولم تقم على ما فيها من العيوب.

قال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها على مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

قال أبو عثمان: «لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئاً، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال».

ولما كان هذا الأمر لا يتم، ولا ينتج إلا بإعانة الله تعالى والاعتصام به أمر بالاعتصام بالله تعالى في الأمر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾[آل عمران:101].

* * *

العيب الخامس والعشرون
فقدان لذّة الطاعة

وجود اللذة في العمل الصالح ينشأ عن صدق العامل في عمله.

قال أبو تراب: «إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، وإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل».

وقال السُّلمي: «ومن عيوبها: فقدان لذّة الطاعة، وذلك من سقم القلب وخيانة السرّ».

وإذا فقد الصدق والإخلاص في العمل فقدت اللذة، ونفي الالتذاذ في العمل، أو فقده من بعد وجوده من عيوب النفس القادحة فيها، وعلة قاتلة لها إن لم تعالج بما يُضادها وينفيها، فمَن لم يذق لذة العمل، وحلاوة الطاعة، أو فقد العمل بعدما حصل له نصيب منه، فليعلم أن ذلك من عيب حدث في نفسه، وعلة قائمة بها، وفقد العمل بعد وجوده أعظم ذنباً من عدم اللذة به مع وجوده.

من عيبها نفي التذاذ بالعمل .... وفقده من بعد ما كان حصل

واعتبار لذة العمل إنما هو بحسب مقام أهل البدايات، أما أهل النهايات، فلذة العمل عندهم من كبير الذنب، وعظيم العيب حتى قالوا: «إن اللذة بالعمل سموم قاتلة»؛ لأن مَن التذ بعمله سكن إليه، وهو سكون إلى غير الله تعالى، وهذا حال البعداء، وأهل القرب يرون أن السكون إلى العمل بعد من الله تعالى، والعمل عندهم إذا وجدت فيه هذه العلة لا خير فيه.

أولاً: سبب العيب:

ولفقد حلاوة العمل أسباب منها:

1. **خيانة السريرة:**

وهي علة توجب خللاً في العمل، ونقصاناً فيه، وذلك يوجب عدم اللذة فيه، أو انقطاعه رأساً.

2. **سقم القلب والبصيرة:**

فينشأ عنه ما نشأ عن خيانة السريرة.

وسقم القلب: مرضه بما قامت به من الأوصاف الذميمة، وتلبس به من الأوال القبيحة التي توجب له الاعتلال، وتحدث في عمله الاختلال، وتخرجه عن وصف الكمال، وتميله إلى أقبح حال.

وسقم البصيرة: انطباع صور الأكوان في مرآتها، وركوب ظلمة المخالفات عليها.

وذلك من خيانة السريره .... وسقم القلب مع البصيرة

فإذا اتصفت السريرة بالخيانة، وسقم القلب والبصيرة فَقَدَ لذة الطاعات وحلاوة المناجاة، وسقط صاحبها من عين الله تعالى، ووقع الحجاب على قلبه وتبدل الأنس بالوحشة، وانتسخ الضياء بالظلمة، ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال؛ لأنه إذ ذاك تنقطع عنه الأمراض المتصلة، والواردات المتحصلة، فتنكسف عنه حينئذٍ شمس العرفان، وتستر عنه الكشوفات والبيان، فيقع في الخذلان، ويستحوذ عليه الشيطان، فينسيه الذكر، ويحيق به سوء المكر، ويرجع إلى متابعة نفسه الأمارة، ويخرج عن دائرة الصفوة المختارة.

3. **اتباع الشهوات:**

فهي الأسباب التي توجب فقد حلاوة الطاعة ولذة العمل الصالح.

ثانياً: دواء العيب:

ومن أدوية هذا الداء:

1. **خدمة الأخيار:**

وهم الذين اختارهم الله تعالى لولايته، واصطفاهم لمعرفته، وأهلهم للجلوس على بساط العبودية في عظيم حضرته، ولا شَكّ أن خدمة أوليائه تنفي عن النفس جميع العيوب، وتطهر من الأنداس الأسرار والقلوب، وتصون العبد

من موارد الذنوب، ويشترط في خدمة الأخيار التي تنتج هذه النتيجة، وتثمر هذه الثمرة أن تكون بصفاء قلب وانشراح صدر وطهارة سرّ، ومخالفة نفس ممتثل لأوامرهم، وحسن الظن فيهم، والتأدب معهم فيما يعاملونه به.

2. الشغل بالتقوى:

وحقيقة التقوىٰ ألا يفتقدك حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك، فإذا كان العبد مشغولاً بتقوىٰ الله باجتناب المناهي، والإسراع إلىٰ الأوامر، فيبرأ من العيوب، ويجتنب موارد الذنوب.

قال ذو النون المصري: «لا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلىٰ التقوىٰ وترتاح للذكر».

3. الاشتغال بالأذكار وملازمتها:

ويكون بشرط كونها علىٰ هذا السبيل، حصلت للذاكر ثمراتها ونتائجها، ومن ذلك طهارة النفس من عيوبها التي منها نفي التلذذ بالعمل أو فقده بعدما حصل.

ولما كانت علل النفس متنوعة كانت الأذكار متنوعة بحسبها، فعلىٰ الذاكر مريد الاستشفاء من علل نفسه، ونفي عيوبها أن يسلط علىٰ كل علة ذكراً يُضادها وينفيها، والقدوة أعلم بذلك، وعلىٰ كل حال فالذكر مرغب فيه.

قال القشيري: «الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه، بل هو العمدة في هذه الطريق، ولا يصل أحد إلىٰ الله إلا بدوام الذكر».

وفضائل الذكر كثيرة أعلاها ذكر الله لعبيده إذا ذكروه. قال تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152].

4. **خفة البطن:**

يريد بإقلال الأكل، والجوع، ففي ذلك إضعاف النفس، وكسر شهوتها، ووجود ذاتها، وإكسارها، ورياضتها، وانقيادها، فتترك العيوب، وتباعد أسباب الذنوب.

قال الداراني: «مفتاح الدنيا الشبع ومفتاح الآخرة الجوع».

ولهذا كان أرباب السلوك يرغبون في خلو البطن، واعتياد الجوع، والإمساك عن الأكل في غالب أوقاتهم، فوجدوا ينابيع الحكمة، وكثرة المنافع الغريبة والأحوال العجيبة، ورزقوا دقائق العلوم وحقائق الأسرار.

5. **أكل الحلال:**

فهذا أصل كبير، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم﴾[المؤمنون:51]، ولهذا قيل: «من أكل الحلال أطاع الله أراد أم لم يرد، ومن أكل الحرام عصى الله أراد أم لم يرد». وقال بعض الحكماء: «كل ما شئت تعمل مثله»، فمَن أكل الحلال المحض عمل الطاعة المحضة، وكذلك الحكم في أكل الحرام، ومن أكل المتشابه عمل المتشابه، ومن أكل المكروه فعل المكروهات.

وأكل الحلال ينور القلب، ويصلح السر، ويقود الجوارح إلى فعل الطاعات، والأعمال الصالحات، وتزكوا به النفوس، وتطهر من عيوبها، ويجد صاحبها لذة العبادات، وحلاوة الطاعات، ومرارة المخالفات.

6. **التضرع لله تعالى والابتهال:**

فإن فيه قربة من الله تعالى، وتكتسب النفس منه رقة واستكانة، لتطارحها على باب الله تعالى بوصف الذل والفقر، فتشفى بذلك النفوس من عيوبها، فترزق

حلاوة المناجاة، ولذة الطاعات، فهذا من فوائد التضرع والابتهال، سيما إذا كان ذلك في الأسحار، وخلو عن الأغيار، فهو أجدر بالقبول، وأن يحصل بسببه المأمول.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»[1].

وقال بعضهم: «ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة».

قال السلمي: «ومداواتها: أكل الحلال ومداومة الذكر، وخدمة الصالحين، والدنو منهم والتضرع إلى الله تعالى في ذلك يمنّ على قلبه بالصحة بزوال ظلمات الأسقام، فيجد عند الذكر لذة الطاعة».

دواؤه في خدمة الأخيار .... والشغل بالتقوى وبالأذكار
وخفة البطن وأكله الحلال .... ثم تضرع لربي وابتهال
لا سيما في ظلمة الأسحار .... وفي خلوك عن الأغيار

* * *

(1) في صحيح مسلم 1: 522.

العيب السادس والسابع والثامن والتاسع والعشرون والثلاثون والحادي والثلاثون
طلب الرئاسة بالعلم وأخواتها

يشتمل هذا العيب على ستة عيوب من عيوب النفس، وهي من أعظم عيوبها المانعة لها من حصول قصدها، وهي:

الأول: طلب الرئاسة بالعلم:

وهو علة قاطعة، ومن الحجب المانعة، مع ما فيها من سوء العاقبة، والنفس ميالة إلى الرياسة ومحبتها، فتبذل فيها الأموال، ولا تفكر في انقلابها بسببها إلى أسوأ حال.

فالعقلاء الذين ينظرون إلى عواقب الأمور في الدنيا والآخرة، الحريصون على السلامة في الدنيا من وبالها، وفي الآخرة من عظيم أهوالها، لا تميل قلوبهم إلى الرئاسة، ولا يتسببون في نيلها بعلم ولا بسياسة، والجهال بالله تعالى الذين خلت قلوبهم من التقوى، ولم يهتموا بصلاح دينهم وسلامتهم في دنياهم، رغبوا في الرئاسة، وسعوا في تحصيلها، وربما تعلموا العلم لأجل نوالها، وهذا هو الغالب على طلبة العلم في هذا الزمان؛ لأن حب الرئاسة قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترأس قبله ملكهم، فأصممهم وأعماهم.

أولاً: سببه المرض:

ويعالج هذا المرض بأمور منها:

1. طلب الدنيا:

قال وهب بن منبه: «كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم».

وقال ذو النون المصري: «كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا في الدنيا، وتركا لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حباً، ولها طلبا، وكان الرجل ينفق ماله على علمه، ويكتسب الرجل اليوم بعلمه مالا، وكان يرى على طالب العلم زيادة في ظاهره وباطنه».

وأعظم الوبال عليهم اعتزازهم بحالهم، واستحسانهم لسيء أعمالهم، واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة في الدار الآخرة، ونيل الثواب فيها، وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة، والمناقب المنيعة التي أختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق من يخرجون به من هذا الغرور؛ لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك، ولم يهتدوا لما هنالك، فهذا هو الفساد الذي يختص بهم ولا يشاركون غيرهم فيه.

ومن دقيق ما يسري عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك، وقوع الاغترار للجهلة والأغمار شهد حالهم، فإنهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه، ويتوهمونهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوهم واستفادوهم، فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم في طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية لذلك، فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك.

وعن ابن عمر ﷺ، قال ﷺ: «من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو ليباهي به العلماء، أو ليصرف وجوه الناس إليه، فهو في النار»[1]، وهذا الحديث يتضمن إنذاراً ووعيداً أو ترهيباً، كل ذلك تنفير من تعلم العلم لغير الله تعالى.

قال النبي المصطفى المختار .... قولاً صحيحاً طيه إنذار
من طلب العلم يباهي الفقها .... بعلمه أو ليماري السفها
أو لينال الجاه عند الناس .... باء بنار فهو ذو إفلاس

2. ضعف التقوى والخشية:

قال سفيان الثوري: «إنما يتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره؛ لأنه يتقى الله به».

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَصِيب﴾[الشورى:20]، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها[2].

وقال الحسن ﷺ: «عقوبة العالم موت القلب، قيل: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة»، فإن إنضاف إلى هذا الغرض أن يتصدى به إلى تولي الأعمال السلطانية كائنة ما كانت، أو يتوصل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهة، فقد تعرض لغضب الله تعالى وسخطه، وباء بإثمه وإثم المقتدين به، وكان الجهل إذ ذاك خير إليه من العلم، وأحمد عاقبة.

---

(1) في سنن ابن ماجة1: 93، وسنن الدارمي1: 374، والمستدرك1: 161.

(2) في سنن أبي داود3: 323، وسنن الترمذي5: 33، وحسنه.

والغالب على طلبة العلم في هذا الزمان هذا الوصف المذموم؛ لأن حب الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرص على التقدم والترؤس قد ملكهم وأصمهم وأعماهم، وقد تقدم هذا.

ومَن كان حاله من طلبة العلم على ما ذكرناه، فهو ذو إفلاس، ومعناه أن أحواله إذا باينت عنده علم لم يعمل به، فقد أضله الله على علم.

العلم الذي لم يزدد به صاحبه هدىً ولا خشية من الله تعالى، فلا يزيده منه إلا بعداً من الله تعالى، قال ابن عطاء الله: «العلم إذا قارنته الخشية فلك وإلا فعليك»

وكل علم لم يزد من الهدى .... صاحبه عن ربه قد بعدا

والعالم الذي لم يزدد بعلمه هدىً ولا خشية كالأرض السبخة المطر فيها، فتنتعش نفوسهم، وتتقوى صفاتهم، ويظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا، والركون إلى أبنائها، فيصلون إليهم بما علموا من العلم، وصرف وجوههم عليهم، ولا يسلمون في ذلك من الرياء، والتصنع والنفاق والمداهنة، مع ما يحل بهم في ذلك من الذل والهوان، فإذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم، وتمكنوا من جميع حظوظهم.

كذا أتى في السنة العليـه .... من زاد علماً فليزد في الخشيه

قال ابن عطاء الله: «خير علم ما كانت الخشية معه».

وكل علم لا خشية معه لا خير فيه، بل لا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة، وإنما العلم ما قارنته الخشبة، والعالم من يخشى الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[فاطر:28].

وجاء معنى في الكتاب المحكم .... من يخشى ربه ذلك عبد قد علم

واعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب العزيز وفي السنة إنما المراد به العلم النافع الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة، قال الله سبحانه: ﴿إِنَمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[فاطر:28]، فبيَّن أنّ الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية.

قال عمر ﷺ: «وشاور في أمرك الذين يخشون الله تعالى».

وقال رجل للشعبي: يا عالم، فقال: «اسكت، العالم من يخشى الله تعالى».

وقيل للشعبي يذا العالم .... فقال من يخشى فذاك العالم

فرأى أن مَن معه الخشية فهو العالم، ومَن لا خشية له فليس بعالم، ويقال للعالم الذي لا خشية له ولم يعمل بما عمل ناقل.

قال فضيل بن عياض وأسد بن الفرات: «بلغنا أن الفسقة من العلماء، ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان».

وعلماء السوء في الأخبار .... أول مَن يصلى سعير النار

ثانياً :دواء العيب:

1 .رؤية منّة الله عليه في أن جعله وعاء لأحكامه.

2 . رؤية تقصير شكره من نعمة الله عليه بالعلم والحكمة.

3 . التزام التواضع والانكسار.

4 .الشفقة على الخلق والنصيحة لهم.

قال السُّلمي: «ومداواتها: رؤية منّة الله عليه في أن جعله وعاء لأحكامه، ورؤية تقصير شكره من نعمة الله عليه بالعلم والحكمة، والتزام التواضع والانكسار، والشفقة على الخلق والنصيحة لهم».

الثاني: حبُّ الجاه:

وهو مقارن للرياسة وأخوها، ولذلك توجد فيه من العلل ما يوجد في الرئاسة، وهو من عيوبات النفوس، وإن كان فيه هلاكها، فلا يتجنبه إلا عاقل، ولا يرغب فيه إلا جاهل.

الثالث: الكبر:

وهو من الأخلاق الذميمة، ومن عيوب النفس العظيمة، وقاطع عن الله، ومانع من القرب إلى الله، وليس الكبر من صفات المؤمنين ولا من أحوال المتقين، بل هو من الأخلاق الإبليسية، والأحوال الشيطانية، منافيا للعبودية، قال تعالى حاكياً عن إبليس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:34]، وكيف يصح أن يتكبر العبد وهو مركوز في مقام الذل، وقد حذر الله عباده المؤمنين من الكبر وتوعدهم عليه، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمَن نازعني واحداً منهما، قذفته في النار»[1].

والذلُّ مع المعصية أرجي للعبد من الطاعة مع الكبر.

وفي «حكم ابن عطاء الله»: «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خيرٌ من طاعة أورثت عِزّاً واستكباراً»، فإذا تكبر العالِم أو العابد وأنف، وتواضع الجاهل والعاصي وذل هيبة لله تعالى وخوفاً منه، فهو أطوع لله تعالى من العالِم أو العابد.

فالكبر يوجب انحطاط الرتبة، والذل والتواضع يوجبان الزلفة والقربة، ووردت أحاديث كثيرة في الترهيب من الكبر، والوعيد عليه.

---

(1) في سنن أبي داود4: 53، وسنن ابن ماجة2: 1397.

الرابع: الفخر:

فهو عيب من عيوب النفس التي تحدث في حالها الاختلال، ويوجب لها الاعتلال، وتحطها عن درجة الكمال، وهو سبب نفي محبة الله تعالى عمن كان حاله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[النساء:36]، وهو من أوصاف المتكبرين، ومن أحوال الجبارين، وليس الفخر من أحوال عقلاء الرجال، ولا من صفة ذوي التقوى والكمال، وإنما هو من أحوال كلّ أحمق لا يعرف لنفسه قدراً.

الخامس: التباهي:

ويكون بين أبناء جنسه بما يقع به التباهي بين أبناء الدنيا، وغالب وقوعه من السخفاء الذين لا حسب لهم ولا أصل ، وهو مذموم عند العقلاء قبيح عند النبلاء، معدود عندهم من عيوب النفس القادحة فيها.

السادس: قصد العامل بعمله غير الله تعالى:

وهو عبارة عن الرياء الذي هو الشرك الأصغر، وهو عيب من عيوب النفس الكبيرة، وداء عضال يقوي كل مرض ويثيره، وقد ذم الله المرائين، وتوعدهم.

قال السلمي: «ومن عيوبها: طلب الرئاسة بالعلم، والتكبر، والافتخار به، والمباهاة على أبناء جنسه».

مـــن عيبها طلبه الرياسة .... بالعلم والنجاة وبالسياسة

والكبر والفخر مع التباهي .... لجنسه وقصـــد غيـــر الله

أولاً: سبب العيوب:

وتنشأ عنه هذه العيوب من أمور منها:

1. إيثار الدنيا على الآخر:

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال ﷺ: «مَن أحب دنياه أضر بآخرته، ومَن أحب آخرته أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[1].

ومن آثر دنياه على آخرته كان عمله لدنياه لا لله تعالى، فتدخله العلل، وتعتريه الأمراض، وتعلق همته بحصول الأعراض، ونيل الأعراض الدنيوية التي منها الرياسة وحب الجاه والكبر والفخر والمباهاة بين أبناء جنسه، ويكون الغالب عليه في عمله الرياء، ليحصل أغراضه الدنيوية.

2. نسيانه ذكر الله تعالى:

وينسيه ذلك ذكر الله تعالى الذي ينهى النفس عن الاتصاف بالعيوب،

---

(1) في مسند أحمد32: 572، وصحيح ابن حبان2: 486.

وعن ارتكاب المعاصي، وأسباب الذنوب، لكن لما أنساه الشيطان وغلبه الهوىٰ ذكر الله تعالىٰ لم يكن له فيه أنساً: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[المجادلة:19].

وذاك ممـــن إيثـــاره دنياه .... نعـم ومـن نـسيانه مـولاه

لأن ذكر الرب ينسي النفسـا .... فلم يكـــن للعبد فيها أنسا

ثانياً: دواء العيوب:

وتعالج هذه العيوب بأمور منها:

1. **احتقار العبد لنفسه.**

2. **رؤيته التقصير في عمله.**

3. **الخلل في أحواله.**

ينتفي عنه بذلك تعظيمه لنفسه، ولما يصدر منها من عمل وحال، فتنتفي علة الكبر والفخر والرئاسة والجاه، ويبرأ أيضاً من علة الرياء؛ لرؤيته التقصير في العمل الذي يرائيه.

4. **التواضع والانكسار:**

ينفي عن النفس علة الكبر والفخر، وما ناسبهما من العلل.

5. **النصح والإشفاق والإبرار:**

فمن نصح نفسه وأشفق عليها وبرّها طهرها من عيوبها، وعمل علىٰ خلاصها من أمراضها، وعللها بما فيه شفاؤها وطهارتها.

فإذا وفق العبد إلىٰ طهارة نفسه، وإخراجها عن دائرة حسه لزمه الشكر لله تعالىٰ أن جعله تعالىٰ وعاء لعلم نافع، وآلة لعمل صالح خالص؛ إذ الاشتغال بطهارة النفس من عيوبها، وخلاصها من أمراضها وعللها من عمل العلماء

العاملين، ومن العلم علمه بعيوب نفسه، ومن العمل الصالح اشتغاله بطهارتها منها، وبراءتها من عللها.

داوؤه في رؤية التـــــقصير .... وشكره للملك القدير
في جعله وعاء علم وعمل .... وخوفه من سلبه بما فعل
ثـــم التواضع والانكسار .... والنصح والإشفاق والإبرار

* * *

العيب الثاني والثلاثون

الكسل

عدم نشاط العبد إلى الأعمال الصالحات، فتتثأقل الجوارح عند إرادة عمل الطاعات، وقد ذمّ الله تعالى قوماً كان حالهم الكسل عند أداء الواجبات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا﴾ [النساء:142].

وهو من العيوب العظيمة والأحوال الذميمة، فما اتصفت به نفس إلا وكانت ملومة ومن الخير محرومة.

أولاً: سبب العيب:

شبع الأبدان الناشئ عن امتلاء المعدة:

فإذا امتلأت تحدث عيوب عظيمة، وأحوال ذميمة.

إن تشبع البطن تجوع الأعضاء .... وإن تجع يكون منها الإغضا
وخفّة المعدة بإقلال الطعام تحدث منه أحوال حميدة.
فخفّه البطن دواء القلب .... وكثرة الأكل أساس العيب

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: الكسل وهو ميراث الشبع، فإن النفس إذا شبعت قويت، فإذا قويت أخذت بحظها وغلبت القلب بوصلها إلى حظها».

ومن آثار الشبع:

أ.تقوية الحظوظ يميت القلوب.

فتترك القلب يريد بتركه .... عدم اعتباره لموته

ب.تقوية لحظها؛ لما يصدر منها من الأعمال والأحوال ينشأ عنه الوقوف وعدم الزيادة للخير الكائن في الحقيقة من المعارف والحقائق واللطائف التي هي من ثمرات مقام الإحسان، ومن نتائجه، والذي يطلب في الطريقة أراد به الوظائف الشرعية والعقائد التوحيدية من وظائف مقام الإسلام.

من عيْبَها الكسل والتواني .... وأصْلَ ذلك شَبَعَ الأبدان

بِه يَقوىٰ حَظُّها ولحَظِّها .... فتترك القَلْبِ ويَبدوا رفضُها

لكل خير كان في الحقيقه .... وكل ما يطلب في الطريقه

ثانياً: دواء العيب:

1.الجوع:

فلا شك أن الجوع يُضعف النفس، ويُقوي الروح، ويحيي القلب، وهذا إذكار على سبيل التدريج المحمود، فإذا كان على ذلك المنهاج القويم كان دواء لعيوب النفس، ومخمداً لها من شرورها، ومقصراً لها عن طلبها لحظوظها وشهواتها.

قال السُّلمي: «ومداواتها: التجويع فإنها إذا جاعت عدمت حظها وضعفت، فغلب عليها القلب، فإذا غلب عليها حملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل».

وقال يحيى بن معاذ: «الجوع نور، والشبع نار، والشهوة مثل الحطب يتولد منها الإحراق، ولا ينطفئ ناره حتى يحرق صاحبه».

فتبيّن من هذا أنّ الجوع ينشأ عنه أنواع الخيرات، والشبع ينشأ عنه أنواع الشرور والمذمات، وأنّ الجوع يقوي الأرواح ويحييها، وينور القلوب ويصفيها، ويطهر الأسرار ويزكيها، وهو قوت أرواح الصِّديقين.

قد قيل إن الجوع كالطعام .... لبدن الصِّديق في القوام

فالصِّديق يقوم بدنه بالجوع، كما يقوم بدنه غيره بالطعام؛ لأن بدن الصديق تابع لروحه، وبدن غيره الروح تتبعه، وذلك بحسب ضعف التابع، وقوة المتبوع.

وليحذر العبد من إفراط الجوع، فإن في ذلك ضرراً، والإفراط كالتفريط، وكلا قصد الأمور ذميم، وقد نبه على هذا المعنى قبل حيث قال: «وفي إفراطه إضرار» ثم بين وجه الضرر فقال: «إذ تفلس الأبدان والأفكار»، يريد بإفلاس البدن ضعفه عن القيام بالوظائف الشرعية.

2. شغلها من غير ما هجوع:

فإن المقصود الأهم شغل النفس بالله، ورجوعها إليه، واستغناؤها به، فلا يكون لها شغلاً سواه تعالى، ولا تلتفت إلى أحد عداه.

دواؤه إِضعافها بِالجوعِ .... وشغلها من غيرما هجوعِ

فعن المقدام بن معدي كرب ﷺ قال ﷺ: «ما من وعاء ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا بد، فثلث لطعامه،

وثلث لشرابه، وثلث لنفسه »[1]، والغالب على من كان على هذا التقدير قلة فساد مزاجه.

ففي حديث المصطفى المعظم .... البطن شرّ ما ملأه الآدمي
إن كان لا بُدّ فثلث للطعام .... وللنفس الثلث وللماء التمام

هذا القدر الذي ذكره في هذا البيت هو القدر المحمود شرعاً لعوام المؤمنين، وذلك أن يكون ثلث البطن للطعام، والثلث للنفس، والثلث للماء، فهذا هو العدل الذي لا إفراط فيه، ولا تفريط، ولا يقع به اختلال في البدن، ولا نقص في الحواس، ولا تغيير في الطبيعة، ولا ضعف في العقل.

3 .**إصلاح النفس:**

فلا بد من سلوك مسلك محمود في إصلاح النفس؛ لمعالجة أمرضها، فيأخذ في رياضتها وسياستها.

وإذا أهمل العبد نفسه ولم يشتغل برياضتها وسياستها وتهذيبها وإخراجها عن أوصافها الذميمة وأخلاقها اللئيمة لا تصلح أبداً، بل لا تزال مقيمة على ذميم أوصافها وسوء أحوالها، وإن اهتم بصلاحها واشتغل بطهارتها وتزكيتها من أوصافها الذميمة وأخلاقها اللئيمة صلحت وتزكت وطهرت.

والنفس إن أهملتها لا تصلح .... وإن تزد في ضيقها قد تجمع
والنفس كالطفل إن تهمله شب .... على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

لكن لا ينبغي للعبد أن يسلك مع نفسه طريق العدل أو أن يجريها على الوجه الوسط، فالإهمال تفريط لا يكون به صلاحها، والزيادة على الحد إفراط

(1) في مسند أحمد28: 422، وصحيح ابن حبان2: 449، وغيرها.

وتضييق يقع به جموحها ونفورها، وهي إذا جمحت أصبحت عسيرة الانقياد، وإذا نفرت كانت أقرب إلى الفساد، فليسسها الحكيم بمهل، وليستعمل في سياستها الحيل.

والاحتيال على النفس في سياستها هو شأن الضعفاء، أما الأقوياء فحالهم مع أنفسهم على غير هذا لقوتهم من الشدة والحزم، أما الضعفاء فالمحاولة لهم أجمل وأبلغ في حصول مقاصدهم، وأنسب لنيل فوائدهم، وبالحيل قد تحصل المقاصد، وتنال الفوائد.

وإذا كانت الحيل تستعمل في حروب العدو، فأحرى وأولى في جهاد النفس التي هي أشد عداوة، وأعظم كيداً.

* * *

العيب الثالث والثلاثون
كثرة الكلام

كثرة الكلام فيما لا يعني، وفي المواطن التي يطلب فيها الصمت عيب من عيوب النفس التي تؤدي على هلاكها، وتخريجها عن موجبات الكمال، وكثير الكلام إن أصاب فهو ملوم، وإن أخطأ فحظه منه المصيبة والشؤم.

وكان السلف الصالح، ومن تبعهم يكرهون كثرة الكلام، وينهون عنه، ويحذرون منه، ومن ذلك التقعر في الكلام، والتشدق، وتكلف السجع، والفصاحة، والحامل على ذلك حب العلو بين الأقران، والتقدم والرئاسة بين الأمثال، والشهرة في الأنام، وكذلك الجهل بما يجب على المتكلم من الشروط والواجبات التي يجب مراعاتها عند الكلام، والجهل بما يجب مقته عند الله تعالى، وشتاته في أحواله، فهذا أيضاً يحمل العبد على كثرة الكلام.

وهذا إنما هو في الكلام فيما لا يعني، أما فيما يعني، فهو ليس من هذا المذموم، والذي يعني محصور في ذكر الله تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:114]، وغير هذا ما لا يعني وهو المذموم المنهي عنه.

وقيل لذي النون المصري: «مَن أصون الناس لنفسه؟ فقال: من أملكهم للسانه».

وقال شقيق: «ما شيء بطول السجن أحق من اللسان».

فالصمت أجمل شيء للعبد أن يتحلى به، وهو أحد أركان الطريقة، ومن أوصاف أهل الحقيقة.

أولاً: سبب العيب:

1. حب العلو بين الناس:

فيطلب الرئاسة بالتقدم عليهم بعلمه وفصاحته.

قال السلمي: «ومن عيوبها: كثرة الكلام، وإنما يتولد ذلك من شيئين: أما طلبه رئاسة، يريد يرى الناس علمه وفصاحته، أو قلة العلم بما يجلب عليه الكلام».

2. الجهل بما يجب أن يتحدث:

وهذا لعدم علمه ومعرفة الكافية للتحدث فيما ينبغي أن يتحدث فيه، وهذا يوجب عليه المقت والضياع والشتات.

من عيبها إكثارها من الكلام .... وذاك من حب العلو في الأنام
والجهل بالواجب في التحدث .... وموجات المقت والتشتت

ثانياً: دواء العيب:

دواء ذلك العيب الدافع لعلته الصارف لمضرته:

1. الاستماع للخير خير من الكلام:

فعليه استماع الكلام فيما فيه خير وطاعة خير من التكلم به لمن علم من نفسه حب كثرة الكلام؛ لغرض فاسد كرئاسة، وحب جاه وثناء، وارتفاع صيت، وما أشبهه ذلك، وأكثر ما تجد هذا في طلبة هذا الزمان والمتفيقهين، فإذا رأى العبد نفسه تميل إلى الكلام في المجالس والمحافل لذلك، فالصمت أولى به وخير وأسلم، ويكون صمته دفعاً لهذه العلل، واستماعه حينئذٍ أفضل من كلامه.

دواؤه تفضيله استماعه .... على كلامه لأجل الطاعه

قال الدينوري: «الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت».

2. التكلم بعلم لا بجهل:

قال الفضيل بن عياض: «مَن عدَّ كلامه من علمه قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه».

3. المؤاخذة بما يتكلم فيه:

قال السلمي: «ومداواتها: تحقيقه بأنه مأخوذ بما يتكلم به، وأنه مكتوب عليه ومسؤول».

وعن حديفة ﷺ قال ﷺ: «إن البلاء موكل بالمنطق»[1]. ولهذا قيل: لسان الجاهل مفتاح حتفه.

إذ في حديث المصطفى المصدق .... أن البلا موكل بالمنطق

---

(1) في مسند الشهاب 1: 161، ووقفه ابن أبي شيبة على ابن مسعود ﷺ.

وعن معاذ بن جبل ﷺ، قال ﷺ: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: كف عليك هذا، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

وهل تكب الناس في النيران .... شيء سوى حصائد اللسان

وقال يونس بن عبيد: «ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله».

وما يقوله الإنسان من أقاويل السوء يوجب ندامة على ذلك، إما لنقص في دينه، فيخشى عقوبة في الآخرة، أو لضرر يعود عليه بسبب ذلك في دنياه، ولا تنفعه الندامة، ولا تقال له عثرة يوم القيامة، والأقوال التي توجب لقائلها الندم والعقوبة: الخطأ، والكذب، والنميمة، والغيبة، والرياء، والنفاق، والفحش، والمراء، وتزكية النفس، والفضول، والخوض في الباطل، والتحريف، والزيادة والنقصان فيما يطلب فيه التحري، وإذابة الخلق، وهتك العورة.

فهذه كلُّها من أقاويل السوء، واللسان سبَّاق إليها، فالنفس تستلذّ بها وتميل إليها، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، وما لا ندامة فيه ولا عقاب عليه بل يحصل لقائله الثواب الجزيل، وهو ما ذكره: أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو عن ما تألفه النفوس، وتميل إليه الطباع، وغير ذلك من الأقوال التي توجب القرب إلى الله والمثوبة بما فيه صلاح الدين، أو قوام معيشة يطالب بها.

وقال كلُّ ما يقول الآدمي .... فهو موجب عليه للندم

---

(1) في سنن الترمذي 5: 12، وصححه، ومسند أحمد 36: 345، وسنن ابن ماجة 2: 1314.

إلا الذي يأمر بالمعروف .... أو ينه عن نكر وعن مألوف

4. لا يتكلم إلا في خير:

قال تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء:114]، فإن هذه الآية الكريمة جامعة لأنواع الخير، فالتكلم فيها خير وطاعة لا ندامة على المتكلم فيها، وذكر في الآية لفظة الصدقة، والمعروف، والإصلاح ليشمل جميع أنواعها.

فالصدقة أي صدقة كانت، فأعلاها بذل المال لمستحقيه، وإفادة العلوم لمستحقيه صدقة، وأدناها كلمة طيبة.

والمعروف أعلاه النصيحة في الدين، وأدناه المعروف في المعاملات.

والإصلاح بين الناس يختلف أنواعه بحسب أحوال الناس ووقائعهم، ولذلك أعلى وأدنى وبين الطرفين وسائط، فألفاظ الآية شاملة لجميعها، فهذا سر التنكير في لفظ الآية.

وجامع القول على التحرير .... في قوله لا خير في كثير

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾[ق:18].

وقال أبو الجوزاء ومجاهد: «يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه».

وما أتى في شأن كتب الحفظه .... لعمل العبد مع المحافظة

إذ كل لفظ فله رقيب .... يكتب به وهو لنا رقيب

فليتحفظ من آفة اللسان .... فإنه ضرّ على الإنسان

فلا شك أن اللسان مضرة على مَن لا يتحفظ منه، ويراقب ما يلفظ به؛ إذ آفاته كثيرة.

وقيل: لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا هم بشيء أمضاه للسانه ولم يتدبره بقلبه.

وقال بعض السلف: «تعلمت الصمت بحصيات جمعتها في فمي ثلاثين سنة، كنت إذا هممت بكلمة تلجلج بها لساني فسكت».

وإنما كان اللسان أصعب الأعضاء في المراقبة؛ لقوة حدته، وشدّة انطلاقه مع ميل النفس، وقوة انبعاثها إلى الكلام فيما لا يعني، وما يدخل به عليها الضرر.

وأصعب الأعضاء في المراقبه .... عللـه على الأنـام عاقـبه

ولما كان أصعب للمراقبة، وعلله كثيرة راجعة على مَن لا يراقبه من الأنام، اهتم الرجال بمراقبته. قال بعضهم: «جعلت على نفسي بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعني صلاة ركعتين، فسهل ذلك علي، ولم أنته حتى جعلت على نفسي بكل كلمة صدقة درهم، فصعب ذلك علي فانتهيت، فيجب على العبد مراقبة لسانه وحفظه».

* * *

العيب الرابع والثلاثون
المبالغة في المدح والذم

تعدي الإنسان الحدود والتجاوز عليها في مدح من أحبه ورضي عنه، وذم من أبغضه وغضب عليه عيب من عيوب النفس، ذلك الجهل بحق الله تعالى، وطلب رضى غير الله تعالى؛ إذ من طلب رضى غير الله جاهل بحقه سبحانه، ولو كان عالماً بذلك لطلب رضاه دون غيره، ومن العلم بحق الله تعالى أعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه، وكلَّ ذي قسط قسطه، وليكن في ذلك طلب رضى الله لاغير متوقياً سخطه تعالى لا سخط من عداه.

قال زياد بن مسلم: «ليس أحد يسمع ثناء عليه إلا تراءى له الشيطان».

قال السلمي: «ومن عيوبها: أنها إن رضيت مدحت الراضى عنه فوق الحد، وإذا غضبت ذمته وتجاوزت الحد».

مـن عـيـبـها تجـاوز الحـدود .... عند الرضى والغضب الموجود
بـزائد المدح لمن ترضى به .... وعكسـه يـزيد فـي عـيـوبـه
وذلـك مـن جهـل بحـق الله .... وطلب الرضى لغيـر الله

فهذا آفات مطلق المدح، فما بالك يتجاوز الحدود فيه فهو أعظم آفة، وأما تجاوز الحدود في الذم وزيادة العيوب فمذموم لمناقضته لمقتضى الأخوة الإيمانية، والروابط الإسلامية.

أولاً: دواء العيب:

ويعالج هذا الداء بأمور منها:

1. التزام الصدق مع الله تعالى:

فالتزامه في الأقوال والأفعال والأحوال ينفي عن النفس تجاوز الحدود، ومن ذلك زيادة المدح عند الرضى، وعكسه عند الغضب، فإذا التزم العبد سبيل الصدق، وكان مؤثر الحق في حالتي رضاه وغضبه أخذ بالعدل الواجب عليه في الحالتين، وقد عدَّ هذا سيدنا محمد ﷺ في المنجيات من العقاب، وفي الخصال الفاضلات الزاكيات الموجبة للثواب، فليرغب العبد فيما هو فاضل يحصل به الثواب، وليجانب ما فيه العقاب.

دواؤه في ذا التزام القصد .... حتى يصير مؤثر للحق
في حالتيه من رضى ومن غضب .... إذ عدله في الحالتين قد وجب
وعده خير الورى في المنجيات .... وفي الخصال الفاضلات الزاكيات

2. إيجابه سخط الله تعالى:

قال السُّلمي: «ومداواتها: رياضة النفس على الصدق والحق حتى لا تتعدى في مدح من رضى عنه ولا في ذم من سخط عليه، فإن أكثر ذلك فمن قلة المبالاة بالأوامر والنواهي».

فمن عمل بما يرضي الخلق، ويسخط الله تعالى باء بالضيق، وهو العذاب، ويسخط الله تعالى عليه في الدنيا، وفي الآخرة، فأما سخطه في الدنيا فيعرضه للفتن، ويبتليه بالمحن، ويكله إلى نفسه، وإلى من طلب رضاهم من الخلق، فلا يَنال ما أراد أبداً.

وأمّا سخطه في الآخرة، فإعراضه وإبعاده منه، ومن كان الله تعالى معرضا عنه، ولم ينزله منزلة القرب منه، فقد وجب عليه العقاب، وحلّ به العذاب الأليم، ولا يسلم من سخط الخلق عليه في الدنيا، فيكون بينهم مبغوضاً مهاناً ذليلاً، فلا يواجهونه بقبول، ولا يحصل منهم على مولى.

وقال: من يطلب رضى المخلوق .... بسخط الله يبق بالضيق
إذ يسخط الله عليه ربنا .... ويسخط عليه الخلق في الدنا
فلا ينال ما أراد أبداً .... مع أنه من ربِّه قد بعدا

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله، ومن أسخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس»[1]، وهذه سنة الله تعالى في خلقه.

---

(1) في صحيح ابن حبان1: 511.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:36]، ومن ذلك تجاوز الحدود في المدح والذم؛ إذ قد يذكر الإنسان من ذلك ما لا يتحققه، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، فيقع في الكذب وقول الزور.

وقد نهى الله عن اقتفاء ما .... لم يكن المرء له قد علما

وعن أبي معمر، قال: «قام رجل يثني على أمير من الأمراء، فجعل المقداد ﷺ يحثي عليه التراب، وقال: «أمرنا رسول الله ﷺ، أن نحثي في وجوه المداحين التراب»[1].

فحمل بعضهم الحديث على ظاهره وحثي التراب حقيقة، وذلك تنكيل للمادح، لما ينشأ عن مدحه من الآفات للممدوح، فكان فعله به ذلك يوذن بعدم رضاه بما صدر من المادح، وحمل بعضهم الحديث على غير ظاهره، وأنّ قوله ﷺ: «احثوا التراب» على المجاز، والمراد ملاقاة المادح بما يُكرهه، كما يَكره حثي التراب في وجهه، والوجهان محتملان، وهذا كلُّه يقتضي ذمّ المدح والإنكار على المادح، والذي يحسن في حقِّ الممدوح أن لا يركن إلى ما قيل فيه، فإن ركن إلى ذلك هلك، والعاقل لا يترك ما يتحققه من نفسه إلى ظن غيره.

وقال: خير من أتى للمفلحين .... احثوا التراب في وجوه المادحين

* * *

(1) في صحيح مسلم4: 2297.

العيب الرابع والثلاثون
السخط بعد الاستخارة

الاستخارة في الأمور المغيبة عواقبها عن العبد مأمور بها ومندوب إليها، وهي بمنزلة الاستشارة مع مَن هو أعلم منه بعواقب الأمور، وفائدتها استجلاب لما فيه خير وحسن عاقبة، وإذا وقعت من العبد فسبيله الرضى بالواقع، وسواء كان ذلك الواقع ملائم في الظاهر والباطن، أو ملائماً في الباطن مؤلماً في الظاهر، فإذا كان العبد هكذا فقد حصلت له ثمرة الاستخارة والرضى بحكم من استخاره.

قال السلمي: «ومن عيوبها: أنها تستخير الله تعالىٰ في أفعالها ثم تسخط فيما يختار لها».

من عيبها أن يستخير أولاً .... وبعدها يسخط ما قد حصلا

أولاً: سبب العيب:

اتهام العبد لربه في تدبيره:

فمن سخط بالواقع بعد استخارته ولم يرض بالحكم، فدليل علىٰ عدم صدقه في استخارته، ويعدُّ ذلك عيب من عيوب النفس، وهذا حال مَن اتهم ربه تعالىٰ في حسن تدبيره له، وكلّ متهم لربه، فهو بعيدٌ من موجبات قربه ومتعرضٌ لغضبه وسخطه.

وذلك ممن تهمته لربه .... وبعده عن موجبات قربه

ثانياً: دواء العيب:

1. اقتصار علم العبد على الظاهر لا على الحقائق:

فعلم العبد بأنه جاهل بحاله الذي يقتضيه وصفه البشري، وأصله الذي هو من نطفة مذرة، وفصله الذي هو جيفة قذرة، ينفي عنه التسخط لما حكم، فمولاه الذي هو أعلم منه بعواقب الأمور، وتنتهي عنه تهمته لمن هو أحب إليه منه، وأرحم به منه، وأعلم بمصالحه الظاهرة والباطنة، والعبد الذي يجهل أصله وفصله قد يحب ما هو شر له، ويَكره ما هو خير له؛ إذ نظره قاصر على ظواهر الأمور دون بواطنها، فربَّ أمر يكون ظاهره خيراً وباطنه شراً، ورب أمر عكس ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾[البقرة:216].

دواؤه بعلمـــــــه بجهلهــه .... في حالـه وأصلـه وفـصلـه
إذ قـد يحـبُّ ما يـكـون شـراً .... ويَكـره الأمر يـكـون خـيراً

2.حسن اختيار الله تعالى خير من حسن اختياره:

لما كان العبد جاهلاً بعواقب الأمور، ولا يعلم من الأمور ما هو خير له، ولا ما هو شر له، مفتقر إلى من يدبر أموره ويختار له ما فيه خير له وصلاح في الدنيا والآخرة، فليكن هكذا حال العبيد مع مولاه تعالى، ولا ينسب لنفسه ما هو عنه بمعزل من أوصاف الربوبية من العلم وغيره، فإنه وإن اكتسب شيئاً من علم فإنما ذلك بما ظهر، ورُبّما يعلم أمراً، ويخفي عليه باطنه.

فالعبـد لا يعلـم مـا يخـتار .... ووصفـه العجـز والافتـقار

وهذا الحكم هو الذي يحكم به على العبيد؛ لأنّ أصلَهم الجهل: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[النحل:78]، ثم إن العبد علمه قاصر على ما ظهر من الأمور لا بما خفي من بواطنها: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيم﴾ [النور:35]، وكذلك العبد عاجز في حال قدرته؛ لأنّ العجز وصفه الذاتي، وما بالذاتي لا يتخلف.

وربنا يعلم ما يخفي عليه .... وقادر عليه في عجز لديه

3 .**التدبير شأن الربوبية:**

فهو تعالى المنفرد به؛ إذ من أسمائه تعالى المدبر، وإذا كان الأمر هكذا فسبيل المعزول عن رتبة التدبير تركه والاستراحة من تعبه وهمه ونكده، وما ينشأ عنه من النكير عند صدور ما يخالف تدبيره، ففي تركه التدبير الاستراحة من آفاته، وفي تكلفه التدبير التعرض لما يخشى من محظوراته.

فليسترح من تعب التدبير .... والهمو والنكد والتدبير

قال ابن عطاء الله: «أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك».

ففي تدبير العبد لنفسه مناقضة العبودية، ومضادة أحكام الربوبية، ومنازعة القدر، وإضاعة العمر، فعلى العاقل اجتنابه، وقطع مواده وأسبابه.

قال سهل بن عبد الله: «إن كان ولا بد من التدبير فدبروا أن لا تدبروا».

وترك التدبير أصل من أصول الطريق، ومسلك أهل التحقيق، والكلام فيه طويل عريض، فمن أراد الاطلاع على ذلك، فلينظر كتاب: «التنوير في اسقاط التدبير»، فيطلع على ما في التدبير من الآفات، وما في تركه من السلامة والنجاة، وليكن العبد مفوضاً إلى ربه في تدبيره راضياً بحكمه وتقديره.

4 .**سخطه للقضاء لا يغير المقضي:**

وتفويض العبد لمولاه، ورضاه وقضاؤه بما قدره يثبت له مقام العبودية، والمعرفة بحقوق الربوبية، وسواء كان ذلك المقدر والمقضي به عالياً: أي مما يترتب

عليه الثواب، أو دانياً: أي مما يترتب عليه العقاب، إلا أن في الأول يكون راضياً بالقضاء والمقضي، وفي الثاني بالقضاء لا بالمقضي، فهذا مراده بقوله عالياً أو دانياً، والله سبحانه أعلم، ويحتمل أن يريد بقوله عاليا: أي في قدره، وهو الذي يعظم في النفوس والعطايا والمنح، ودانياً: أي وضيعاً لحقارته وقلته، فهنا يكون الرضا بالقضاء والمقضي.

مفوضاً لرب وراضيا .... بما قضاء عالياً ودانياً

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أنه يعلم من الأشياء ظواهرها، والله يعلم سواء علنها وحقائقها، فإن حسن اختيار الله تعالىٰ له خير من اختياره لنفسه فيما اختاره لنفسه حالاً، ويعلم أنه مدبر لا مدبر سواه، وأن سخطه للقضاء لا يغير للمقضىٰ فيلزم نفسه طريق الرضا بالقضاء ويستريح».

* * *

العيب الخامس والثلاثون
كثرة التمني

كثرة تمني المرء لخير يرتجي وصوله إليه أو دفع شر يخشى حصوله يعدُّ عيباً من عيوب النفس سيما إذا كان وقوع التمني دون توقف ولا تأن، فإن ذلك دليل علىٰ الطيش وعدم التدبر في الأمور، وليس هذا من شأن العقلاء.

قال السلمي: «ومن عيوبها: كثرة التمنىٰ، والتمنىٰ هو الاعتراض علىٰ الله تعالىٰ في قضائه وقدره».

من عيبها إكثاره التمني .... دون توقف ولا تأني
إما لخير يرتجي وصوله .... أو دفع شر يختشىٰ حصوله

أولاً: سبب العيب:

ولهذا العيب أسباب منها:

1. الخوض في أقدار الله تعالى:

فالخوض في الأمور التي لا ينبغي للإنسان الخوض فيها، من جلب ملائم أو دفع مؤلم، ومن حقِّه ألا يخوض في شيء من ذلك؛ إذ هو عبد تجري عليه أحكام مولاه تعالى، فالخير من فضله، والشر من عدله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:23]، فالخوض فيما جرت به الأقدار، وحكم به الحاكم المختار لا يفيد.

2. التدبير:

ومنه جلاء الخوض، وحق العبودية أن لا يدبر في شيء من أموره؛ إذ ليس ذلك من شأن العبودية، وإنما هو من شأن الربوبية.

3. رفض القضاء:

ورفض النظر لتقدير الحق جل جلاله، فلما لم ينظر العبد إلى سابق التقدير، وما جرت به المقادير خاض في الأمور، ودبَّر فيما سبق به القضاء والقدر، وتعلَّقت نفسه بتمني جلب ما سبق به القضاء ودفعه، وهذا قادح في الدين، ومن ضعف اليقين، وعيب من عيوب نفوس المؤمنين، وقد بوب البخاري فقال: «باب ما يكره من التمني».

وذلك من خوض ومن تدبر .... ورفضه النظر للتقدير

ثانياً: دواء العيب:

1. تسليم العبد لمولاه تعالى في أحكامه، ورضاه بمنعه وعطائه:

فهذا ينفي عنه علة التمني لجلب أو دفع؛ إذ التسليم ينفي عدم التدبير في الأمور والخوض فيها.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أنه لا يدرى ما يعقب التمنى أيجره إلى خير أم شر، إلى ما يرضيه أو إلى ما يسخطه، فإذا أيقن اتهام عاقبة تمنيه أسقط عن نفسه ذلك ورجع إلى الرضا والتسليم فيستريح».

دواؤه تسليمه لربه .... وعلمه في حاله بقربه

ولما كان العبد ظرفاً لوقوع الأحكام، وغرضاً ترميه المقادير في كلّ نفس كالسهام طلب منه التسليم للقضاء، وقبول الأحكام الجارية عليه وتلقيها بالرضى، ولا يتمنى دفع مؤلم، ولا جلب ملائم؛ لعلمه أن الحكيم بصير بحاله عالم به قريب منه.

إذ ما يكن من نفس تبديه .... إلا وفيه قدر يمضيه

وفي «حكم ابن عطاء الله»: «ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه»، فأنفاس العبد ظروف لوقع أحكام المولى تعالى عليه فيه، والناس فيما يجري عليهم من الأحكام: راض وساخط.

أ.الرضي بحكم المولى وما قسم له من أدنى أو أعلا ينال ذلك مع وجود الراحة في ظاهره من تعب الكد والتشمير، وفي باطنه من ثقل التدبير، فعيشه بذلك هني، وحاله عند الله رضي.

فإن رضي بحكمه وقسمته .... نال الذي يقضي مع استراحته

ب.سخط العبد لما جرى به الحكم ونفذ به القضاء وملاقاة ذلك بعدم التسليم وعدم الرضى لا يحصل له من ذلك إلا التعب والتعرض لسخط الرب،

ولا بُدّ من نفوذ ما سبق به القضاء كان عن سخط العبد، أو عن رضى، ولا ينفعه التخبط والاضطراب؛ إذ لا مانع ولا دافع لما سبق في أم الكتاب.

ونفسه يتعبها مهما سخط .... إذ ينفذ القضاء وهو يختبط

2 .اقتصار تمنيه على الخير:

فلا يتمنى العبد دفع ما جرى به القلم، ولا جلب ما به الحاكم حكم؛ ويلزم العبد إذا تمنى أن ينظر فيما يتمنى، كما جاء في الخبر عن خير البشر؛ إذ أمر المتمني بالنظر.

فعن أنس ﷺ قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واد من ذهب، أحب أن له وادياً آخر، ولن يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على مَن تاب»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ سهر، فلما قدم المدينة، قال: ليت رجلاً من أصحابي صالحاً يحرسني الليلة، إذ سمعنا صوت سلاح، فقال: من هذا؟، فقال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك، ونام النبي ﷺ»[2].

قال الرسول وهو خير مخبر .... إذا تمـــــنى أحد فلينظر

فيما تمنى والذي قصـــد له .... إذ أنه لا يدري ما كتب له

والعبد إذا كان ولا بد أن يتمنى، فلينظر أولاً ما قصد بتمنيه، وهذا النظر إنما ينشأ عن توقف وتأن وهو المطلوب، أما دون توقف أو أناه فهو عيب من عيوب النفس، فإذا قدم قبل تمنيه نظراً فيما قصد حصل له العلم بما قصد، فإن كان مقصداً حسناً كان من باب تمني الخير.

---

(1) في صحيح مسلم2: 725.

(2) في صحيح البخاري4: 34.

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فهو يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في حقه، فيقول: لو أوتيت مثل ما أوتي عملت فيه مثل ما يعمل»[1].

فهذا الحديث يدلّ على جواز تمني الخير، وإن كان مقصداً غير حسن فيكره، وفي البخاري من «باب ما يكره من التمني»، وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[النساء:32].

وإذا كان التمني على الوجه المذكور رُبَّما يكون فيما تمناه شرّاً له، وهو يظنُّ أنه خير؛ إذ لا يدري العبد ما كتب له فيما تمناه، وهذا التمني في غير الموت، أما تمني الموت، فجاء النهي عنه من الشارع ﷺ، فعن أنس ﷺ: «لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تتمنوا الموت» لتمنيت»[2].

ومن هذا المعنى تمني تلقاء العدو، فإنه مكروه، وفي البخاري: «باب كراهة تمني لقاء العدو» فعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية»[3].

وجاء نهي عن تمني الموت .... عند نزول الضر خوف الفوت

3. اشتمال تمنيه على التفويض لله تعالى:

---

(1) في صحيح البخاري9: 154.

(2) في صحيح البخاري9: 84.

(3) في صحيح البخاري9: 84.

فعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «لا يتمنين أحد منكم الموت لضرٍّ نزل به، فإن كان لا بُدّ مُتمنياً للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[1].

وليقل العبد أحيني ما كانت .... حياتي خيراً وأمت إن كـــانت

وفاتي خـيراً لي وذا تفويض .... فيه الدعاء والصمت والتعريض

لما كان العبد مغيباً عليه ما فيه صلاحه أو فساده، فلا يعلم الحياة خيراً له أو الموت أمر بأن يدعو بدعائه ﷺ؛ ليخرج العبد من كراهة تمني الموت، وهذا الدعاء فيه تفويض للمولى جل جلاله العالم بما فيه صلاح عبده، وما فيه خير له، ومقام التفويض مقام كريم؛ لما فيه من سقوط اختيار العبد لنفسه، ومن تدبيره لها، ففوَّض أمره إلى ربه، وخرج من اختيار نفسه إلى اختيار مولاه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[القصص:68].

وفي التفويض وإسقاط العبد التدبير براءة العبد من علة التمني؛ لما فيه من حظ نفسه الداعي له إلى الميل إلى ما يتمنّاه، وفي الدعاء المذكور تعريض بتساوي الأمرين عنده، ولم يمل إلى واحد منهما؛ إذ لا يعلم الخير لأي منهما، وهذا في حد الصمت.؛ إذ أنه لم يدع بنيل أمر معلوم.

* * *

(1) في صحيح البخاري 8: 76.

العيب السادس والسابع والثلاثون
الإنصراف للدنيا قولاً وفعلاً

والكلام على عيبين، وهما:

الأول: الخوض بكلِّ واد:

ومراده توجه العبد بكل قلبه وقالبه إلى جهات كثيرة من محاولة أمر الدنيا، فلا يترك أمراً إلا خاض فيه.

وفي ذلك له شغل شغيل عما أريد منه؛ إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة، فإذا توجه إلى أمر أعرض عن آخر، فكيف إذا كثرت التفاتاته، وتعددت أشغاله الدنيوية لم تترك للآخرة فيه نصيب.

وكفى بهذا عيب قادح في حاله، ومحط له عن درجات كماله، وتعييره بالخوض تقبيح للفعل، كما عبَّر الكفّار عن قبيح أفعاله التي كانوا يتعاطونها في دار الدنيا بقولهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر:45].

الثاني: الأخذ في الأسباب بالمعتاد:

يريد أن جريان العبد في أسبابه الدنيوية على معتاده في عادته غير محمودة عند أهل هذا الطريق، ويعدونه عيباً من عيوب النفس، وإنّما جريانهم في أسبابهم على غير العادة التي يعتادونها العامة، فهم ردوا العادات إلى سبيل العبادات.

قال السلمي: «ومن عيوبها: محبتها الخوض في أسباب الدنيا وحديثها».

من عيبها الخوض بكلِّ واد .... والأخذ في الأسباب بالمعتاد

أولاً: سبب الأمراض:

ويرجع لأمور منها:

1. فراغ لبه:

فلا عقل له كاملاً يدرك به الفاضل من المفضول، ويحتمل أن يريد فراغ لبِّه خلو قلبه من الأعمال الأُخروية حتى غلب عليه الخوض بكل واد، والأخذ في الأسباب بالمعتاد.

2. سكون الدنيا بقلبه:

وسكون الدنيا بالقلب تنشأ عنه عيوب كثيرة، وعلل عديدة، خص منها هذا العيب في هذا المجال لمناسبة المعنى الذي اقتضاه المحل.

وذاك ميراث فراغ لبه .... وفرع دنياه التي في قلبِه

ثانياً: دواء الأمراض:

1. اشتغال العبد بالذكر:

فهو مانع من الخوض في أدوية الدنيا؛ لأن القلب إذا استولى عليه سلطان الذكر لم يبق لغير فيه بغية، ورفع منه كل شاغل من الشواغل الدنيوية.

قال السُّلمي: «ومداواتها: الاشتغال بالفكر الدائم في كلِّ أوقاته، يشغله ذلك عن ذكر الدنيا وأهلها والخوض فيما هم فيه، ويَعلم أن ذلك مما لا يَعنيه فيتركه».

2. ترك ما لا يعني:

فيهتم بما يهمه ويعنيه دون سواه مما يهلكه ويرديه.

دواؤه اشتغالُه بِالذِّكرِ .... وترك ما لم يعنه من أمر

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

---

(1) في سنن ابن ماجة2: 1315، وسنن الترمذي4: 558.

فحسن إسلام الفتىٰ منه ورد .... ترك الذي لا يعنيه فيما قصد

وهو ما لا فائدة فيه للعبد دنيا وأُخرىٰ، فاشتغاله به دليل علىٰ عدم حسن إسلامه، كما أن تركه دليل علىٰ حسن إسلامه، وكذلك اشتغاله بما يَعنيه دليلٌ أيضاً علىٰ حسن إسلامه، كما أن اشتغاله بما لا يَعنيه دليل علىٰ عدم حسن إسلامه.

وحسن الإسلام عبارة عن قيام العبد بوظائف مقام الإسلام، واتصافه بأوصاف مقام أهل الإسلام، وعدم حسن الإسلام عدم القيام بذلك، وعدم اتصافه بأوصاف مقام أهل الإسلام، وفي الحديث ترغيب في الاشتغال بما يعني عما لا يعني، وأنواع كلٍّ منهما كثيرة.

* * *

العيب الثامن والثلاثون
إظهار طاعته ليعظمه الناس

إظهار الطاعة ليراه الناس عيب من عيوب النفس القادحة في الإيمان، وكذلك تزيين العمل وتحسينه ليراه الناس، فيعظمونه لأجل ذلك عيب أيضاً موهن للعمل، وقادح في العمل، وهذا هو الرياء بعينه، وهو نوع من أنواع الشرك الذي يجب علىٰ العبد اجتنابه، فيه من الخروج عن وصف العبودية، وعدم القيام بحقوق الربوبية، وحب الطاعة وإظهارها وتزيين العمل لعلة ليس من شأن أهل الإخلاص، وإنما شأنهم إخفاء الطاعة، ونشر المعاملات قصداً بها التقرب إلىٰ الله تعالىٰ، ومن قصد بعمله محمدة الناس، والتصنع للمخلوق فما أخلص لله تعالىٰ في أعماله، ولا صدق الله تعالىٰ في أحواله.

فأهل الصدق في معاملة الحقّ تعالىٰ أخفوا أعمالهم، وستروا أحوالهم ليلاً يعلم الخلق بخصوصيتهم، ولا يطلعوا علىٰ ما عملوا به الحقّ من خالص عبوديتهم، فعلىٰ العبد أن يقنع بعلم الله تعالىٰ بحاله، ولا يتطلع إلىٰ أن يعرف بذلك أحدٌ من الخلق، فيشغله حينئذٍ الحياءُ من ربِّه، والشكرُ له عن الاستشراف للخلق بذلك، ويغار علىٰ حاله من رؤية الأغيار.

من عيبها إظهاره للطاعه .... وحبه لـــرؤية الجماعة
لفعلـــه مـــــزينا إيـــاه .... لأجل تعظيم الذي يراه

قال أحمد بن أبي الحواري: «من أحب أن يعرف شيء من الخير، ويذكر به، فقد أشرك في عبادته؛ لأنّ من عبد علىٰ المحبة لا يحب أن يرىٰ خدمته سوىٰ مخدومه».

وقال أبو عبد الله القرشي: «كل مَن لا يقنع في أفعاله وأقواله بسمع الله تعالىٰ ونظره دخل عليه الرياء لا محالة».

قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:3]، وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:36]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾[العلق:14]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾[فصلت:53].

فمبنىٰ أمرهم من الخلق في بدايتهم علىٰ الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال تحقيقاً بفنائهم، وتثبيتاً لزهدهم، وعملاً علىٰ سلامة قلوبهم وحباً في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتىٰ إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلىٰ وجود البقاء.

وقد كان بعض الأقوياء من الرجال ومن أهلوا لهداية الخلق من أهل الكمال يظهرون أعمالهم، ويشهرون أحوالهم، رجاء هداية الخلق بهم، وردهم إلى باب الملك الحقّ.

وعلانية هذا أفضل من سره؛ لأنه سلم من الآفات التي تعرض لها غيره، وحصلت منه الفوائد التي تضمنها إظهاره وجهره.

قال مالك بن دينار ـ وقد نبهه على بعض دقائق الورع ـ : «ما أحوجني إلى معلم مثلك».

أولاً: سبب العيب:

محبة التزين بكثرة العبادات والطاعات:

وهذا ليعلو في أعينهم، ويرتفع مقامه، فيقدم بينهم.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: إظهار طاعاتها، ومحبة أن يعلم الناس منه ذلك أو يروه، والتزين بذلك عندهم».

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج هذا المرض بأمور منها:

1 .تعظيم العبد لربه تعالى بما شاهد من عظيم صفاته وأفعاله:

فيتحقق من عظمة كبريائه وجلاله لا يترك في قلبه عظمة لغيره، فيعتبر ذلك الغير، ويحتاج إلى أن يطلعه على طاعته، ويرائي بما يصدر منه من معاملاته، فوجود تعظيم الرب ينفي عن العبد ذلك العيب الذي هو حب الطاعة وإظهارها.

دواؤه تعظيمه لربه .... إِذ فقد ذاكَ هو أصل عيبه

ومَن عرف جل جلاله رآه وحده، ولم يشهد معه غيره؛ لتحقق أحديته، وشهود فردانيته، وهذا حال أهل القرب من الله تعالىٰ، ومَن كان ناظراً إلىٰ الأغيار، فمقامه البعد من الله تعالىٰ؛ إذ لو كان قريباً من الحق لما رأىٰ غيره.

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «مَن عَرَفَ الحقَّ شهده في كلِّ شيء، ومَن فني به غاب عن كلِّ شيءٍ، ومَن أَحبه لم يؤثر عليه شيئاً».

مَـن عـرف الحـقّ رآه وحده .... وناظـر الغيـر اسـتحق بعده

2. علم أن النفع والضر بيد الله تعالى.

يجتهد في تقرير هذه الحقيقة في نفسه بأنه لا ينفع ولا يضر إلا الخالق، فما الحاجة لرؤية غيره، مع عدم نفعه.

قال السُّلمي: «ومداواتها: أن يعلم أنه ليس إلىٰ الخلق نفعه ولا ضرّه، ويجتهد في مطالبة نفسه بالإخلاص في أعماله ليزيل عنه هذا العيب».

2. الاجتهاد في الإخلاص له سبحانه:

واطلب الخلاص بالإخلاص .... إذ ما له عن ذاك من مناص

فلا يريد الله قلباً مشتركاً، وهو الذي للغير فيه نصيب كائناً ذلك الغير ما كان، والعمل المشترك هو أن يُريد به غير الله تعالىٰ، فالله تعالىٰ لا يحب القلب ولا العمل الذي لغيره فيه شرك ونصيب؛ إذ هو أغنىٰ الشركاء، ولا شريك له تعالىٰ في ملكه.

فلا يحب اللهُ قلباً مشترك .... كذاك لا يحب فعلاً مشترك

هو غني ما له شـــريك .... فلم يجز في قصده التشريك

ومن «حكم ابن عطاء الله»: «كما لا يحب العمل المشترك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه».

قال ابن عباد: «العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع، والقلب المشترك الذي فيه محبة غير الله تعالى، والسكون إليه والاعتماد عليه بالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الناس، والقلب المشترك: كمعتل ينظر صاحبه إلى نفسه، فالعمل المشترك لا يحبُّه ولا يَقبله ولا يثيب عليه؛ لفقدان الإخلاص منه، والقلب المشترك لا يحبُّه ولا يُقبل عليه ولا يرضى عنه، لعدم وجود الصدق فيه، فمَن صحَّح أعماله بالإخلاص، وأحواله بالصدق كان محبوباً لله تعالى مثاباً مرضياً عنه وإلا فلا».

واعلم أنّ العمل المشترك لا يصدر إلا من قلب مشترك، ولما كان سبحانه لا يحب الشريك، لزم أن لا يقصد العامل في عمله التشريك، وإذا كان ذوو الهمم من المخلوقين يأنفون من الشرك، والتشريك فكيف برب العالمين.

إذا كان العبد يَعمل لعلَّة، فهو مشركٌ في عمله قاصداً به غير الله تعالى، ومَن كان قصده بعمله غير الله تعالى، فإنّ الله تعالى يعرض عنه، ويرد عمله.

ومَن يكن في قصده يشارك.... تـــــركه وذلك المشترك
كذا أتى معناه في الحـديث .... وصحّ نقلاً لذوي التثبيت

* * *

العيب التاسع والثلاثون والأربعون والحادي والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس الأربعون الطمع وأخواته

طمع العبد في الخلق عيب من عيوب النفس، وهو قادح في ورع العبد وصدقه، ومضر بصاحب هذين الحالين، والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة في عبوديتها، وهو أصل جميع الآفات؛ لأنه محضٌ تعلق بالخلق

بالالتجاء إليهم والاعتماد عليهم والعبودية لهم، وفي ذلك من الذلة والمهانة ما لا يزيد عليه.

قال في «التنوير»: «وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تفقد من سواه، وتطهر من الطمع في الخلق، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم».

وقيل: «ملاك الدين الورع، وفساده الطمع».

قال السلمي: «ومن عيوبها: الطمع».

مـن عـيـبـها طمـعـه فـي الخـلـق .... وذاك ضـدٌّ وورعٌ وصـدقٌ

وينشأ عن الطمع أمراض منها:

الأول: الذلّ:

فالطمع أصله الذل، قال ابن عطاء الله: «ما بسقت أغصان ذلّ إلا على بذر طمع».

فالطامع ذليل، والذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين، قال الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: 61].

وطمع العبد في غير مولاه تعالى طمع في غير مطمع، لكونه طمع في غير أهله، ورجاء نوال من غير محله، فلا يصحّ له سوى الذل والخزي والعياذ بالله تعالى، فالذل بالتملق والرغبة والخزي بالحرمان والخيبة.

وطمع العبد بغير مطمع .... لأنه ذل وخزي فاسمع

الثاني: الصغار:

فأصله أيضاً طمعه فيهم، واعتماده عليهم، واستناده عليهم.

قال بعض السلف: «الطمع هو الفقر الحاضر، والغنى الطامع فقير، والفقير المتعفف غنى، والطمع هو الذي يقطع الرقاب وأنشد: أيطمع في ليلى بوصلي إنما يقطع أعناق الرجال المطامع».

ففي أقوال السلف: ما يقتضي أن في طمع العبد في غير مولاه احتقار، وحط منزلة، وانسفال همة، وحرمانا، ووجود الذل والهوان، وهذا كلّه مشاهد ظاهر في أحوال الطامع.

وقال بعض سلف الإسلام .... قولاً صحيحاً سابغ الأحكام
في طمع العبد احتقار حاضر .... مشاهد في كل حال ظاهر

الثالث: خدمة غيره:

وذلك لأنّ من طمع في أحد استخدم.

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «أنت حر ممن أنت عنه آيس، وعبد لمن أنت له طامع».

والغنى عدم احتياج صاحبه إلى غيره، ولا يطمع في أحد سوى الله تعالى، وآفة الفقر احتياج صاحبه، ووجود الطمع في الخلق، فالغني إن أنتج نتيجة الفقر، فهو فقر في الحقيقة، فصاحبه فقير، والفقير إذا أنتج نتيجة الغنى، فهو في الحقيقة غنى، فالمعتبر في الغناء، والفقر النتيجة لا أنفسهما، فالغني الطامع مفتقر، والفقير القانع منتصر، قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:97] إنها القناعة.

إن طمع الغني فهو مفتقر .... أو قنع الفقير فهو منتصر

وقال بشر الحافي: «القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن».

وقال الكتاني: «مَن باع الحرير بالقناعة ظفر بالعزّ والمروءة».

الرابع: جلب الرياء والتصنع:

وذلك لأنّ مَن طمع في أحد يحتاج إلى أن يرائيه في أعماله، ويتصنع له في أحواله استجلاباً لمودته، وسعياً لحصول محبَّته، لكن الخيبة إلى هذا أقرب من حصول مطلوبه، والحرمان أولى له من نيل مرغوبه.

وقيل لأبي يزيد: «بم وصلت إلى ما وصلت؟ فقال جمعت أسباب الدنيا وربطتها بحبل القناعة، ووضعته في منجنيق الصدق، ورميتها في بحر الإياس، فاسترحت».

الخامس: الخيبة:

وهي غاية الطمع، فالطامع محروم، وذله محتوم، وعيشه في هم دائم، وغم لازم.

وقال ذو النون المصري: «من قنع استراح من الشغل، واستطال على الكل».

وقيل في ذم الطمع: «من تبعت عيناه ما في أيدي الناس طال حزنه».

السادس: فقد حلاوة الأعمال:

وذلك لفساد دينه، وضعف يقينه، وتعلقه بمَن ضره أقرب إليه من نفعه، وكيف يجد حلاوة الأعمال قلب مال إلى غير مولاه تعالى، واعتمد على سواه، وطلب الرزق من غير محله، وطمع في العطاء من غير أهله.

وقال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[النمل:21]: أي لأسلبنه القناعة، ولأبتلينه بالطمع.

السابع: رفض الهمم العوالي وأخذه بأسافلها:

فالطامع سقيط الهمة بين الناس لم يزل ذا حاجة وإفلاس، فلا ينال سؤدد بين الورىٰ، ولا راحة في الدنيا، ولا عزّ في الآخرة.

ووصف القناعة توجب لصاحبها العز، ووصف الطمع يورث صاحبه الذل، فعز القناعة لا ملاذ له عمَّن اتصف بها، وذلّ الطمع لا خلاص منه لمن اتصف به، ويتبع ذل الطمع التعب في الدنيا بقلبه في انتظار ما هو فيه طامع، وبقالبه في ترداده إلىٰ من طمع فيه، وخدمته له والخوف من الحرمان، ومن أعراض المطبوع فيه عنه، وسخطه عليه، فيخيب بذلك سعيه، ويحرم طلبه.

لعـــز هذا أو لذل هذا .... إذ لم يكن عز الغنىٰ ملاذا

إذ ليس إلا تعب وخوف .... وآفة وذِلـــــة وحليف

والآفات التي تلحقه بسبب طمعه من فساد دينه، ونقص يقينه، وفساد دنياه بما نال من الحرمان والخسران، والذل اللاحق له من الطمع؛ إذ مَن طمع ذلّ، والحيف هو الغلبة، والقهر الموجبان لذله.

و فيه أصل الذل والصغار .... وخدمة العبيد والأحرار

والجلب للرياء والتصنع .... وخيبة تلحقه بالطمع

وفقده حلاوة الأعمال .... ورفضه الهمم العوال

وقيل: «العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع».

فالعبد حر دائماً متىٰ قنع .... والحر عبد للذي فيه طمع

أولاً: سبب العيوب:

ويرجع سبب الطمع لأمور منها:

1. الشك في المقسوم:

ولو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، والأب أصل لما يتولد عنه.

2. **فقد الرضى بالمرسوم.**

وهذا أصل من أصول الطمع، وأقوى سبب حامل على ترك الصيانة والورع.

وأصله من شكه فيما قسم .... وفقده الرضى بما له رسم

ثانياً: دواء العيب:

يمكن علاجه بأمور منها:

1. **الإعراض عن الطمع، وترك أسبابه.**

2. **حسم أصله من الشكّ فيما قسم وعدم الرضى بما كتب للعبد.**

وبهذا ينفي عن النفس علّة الطمع في المخلوق، ويبريه من عيبه القادح في إيمانه، وليكن الإعراض بكلّ ما جرّ إلى الأغراض التي تعلقت بها همة الطامع على اختلاف أنواعها، وتباين ضروبها اكتفاء بقسمة المولى تعالى السابقة في الأزل.

3. **رفع همّته العالية بالأخلاق الكريمة:**

وذلك لأنها ما قد وصف به من أخلاق كريمة، وأحوال رفيعة يخشى سلبها بنفيه الطمع؛ ليستبدل الخلق الكريمة بأخلاق ذميمة، والرفيعة بالوضيعة.

4. **الترفع عن الأخلاق الشنيعة لطمعه:**

ولا أسوأ من هذه الشنيعة من أهل الهمم العلية، والأحوال الحميدة المرضية، ولما في الطمع من الآفات القادحة في الدين.

قال السلمي: «ومداواتها: أن طمعه يدخله في الرياء وينسيه حلاوة العبادة، ويصيره عبد العبيد بعد أن جعله الله حراً من عبوديتهم».

دواؤه بالترك والإعراض .... عن كلّ وجه جرّ للأعراض
إما اكتفاء بالذي قد قسما .... أو رفع همّة لما قد رسما
من خلق كريمة رفيعه .... وترك ما يخشاه من شنيعه

فعن معاذ ﷺ، قال ﷺ: «استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع، ومن طمع في غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع»[1]، وهو الطمع الذي يطبع على قلبه فيرغبه في الدنيا ويزهده في الآخرة.

واستعاذ المصطفى ﷺ من الطمع؛ لما فيه من الآفات القادحة في الدين، ولما ينشأ عنه من ضعف اليقين الذي هو سبب الشك في المقدور، واتصاف صاحبه بكل وصف منكور، فلزم العبد الاستعاذة مما استعاذ منه نبيه وقدوته ﷺ، وليجانب أسباب الطمع الذي يهوي به إلى طبع ذميم، وخلق لئم، وهو كل طبع يميل قلبه إلى الأغيار، ويخرجه من دائرة الكرام الأحرار.

قد استعاذ المصطفى من الطمع .... أعنى الذي يهوي به إلى طبع

العيب السابع والثامن والتاسع والأربعون
الحرص على عمارة الدنيا وأخواتها

ويندرج هاهنا ثلاثة عيوب للنفس، وهي:

الأول: الحرص على جميع حطام الدنيا والتكاثر منها.

قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:2].

والحرص حالة تلابس القلب تنشأ عن قوة انبعاثه إلى تحصيل مطلوب ملائم له إن كان محموداً إلى النفس أو كان مذموماً، فمن المحمود قوله تعالى:

---

(1) في مسند أحمد 26: 444، والمعجم الأوسط 4: 89.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم﴾[التوبة:128]، ومن المذموم: ولتجدنهم أحرص الناس على حياة}، وهو الذي عد من عيوب النفس.

قال السلمي: «ومن عيوبها: حرصها على عمارة الدنيا والتكثر منها».

وسبب العيب:

وينشأ عن **حب الدنيا وطول الأمل**.

الثاني: جمع الأموال:

وهو مذموم؛ لأن الغالب أن يكون جامع المال حريصاً شحيحاً مانعاً للحقوق، وقد توعد الله تعالى جامع المال، فقال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَه. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَه﴾[الهمزة:3]، وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾[الحديد:20]

الثالث: كل ما نهي عن منعه:

فأعلاه الواجب، وأدناه ما يرتفق به، قال تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون﴾ [الماعون:7].

من عيبها الحرص على التكاثر .... والجمع والمنع مع التهاتر

فمن منع المستحق عليه امتنع من التهاتر، وما يتعاطاه الناس في معاملاتهم من كثرة الكلام والتشدق واللغط، وهو حال الحريصين على التكاثر.

أولاً: سبب العيوب:

الجهل بحال الدنيا من كونها حقيرة عند الله تعالى:

فلا تزن عنده جناح بعوضه، وما يؤول إليه أمرها من الفناء والاضمحلال والتلاشي والزوال يحرص على التكاثر من حطامها، والجمع لها، ومنع حقوق الله منها.

ولو كان عالماً بحالها، وما يؤول إليه أمرها لم يحرص على جمعها، والتكاثر من حطامها، ولما أشغل بها قلبه؛ إذ الشغل بجمعها، والتمسك بها شغل، وتمسك بخيال، وما يستضرّ به في الحال والمآل، فحق للعاقل الغنية عنها لا فيها، والشغل بغيرها لا بها؛ لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال، والانقراض والارتحال.

وذلك من جهل بحال الدنيا .... وما إليه أمرها في الأشياء

وقد كتب علي بن أبي طالب إلى سلمان ﷺ: «إنما مثل الحياة الدنيا كمثل الحية لين لمسها قاتل سمها، فأعرض عنها، وعن ما يعجبك منها، لقلة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها، لما تيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها، أحذر ما تكون منها».

وقال بعض الحكماء: «دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام، وأحداثها كصوائب السهام، وشهواتها كشوب السمام، وفتنتها كالأمواج الطوام».

ثانياً: دواء العيب:

علمه أن ما يجمعه من حطام الدنيا:

وهو متاعها معد للزوال، ولا بُدّ له أن يتركه بعد موته، وأنه منتقل عنه إلى ما بعده، وعما قريب يوزن بارتحاله لم يحرص على جمعه والتكاثر منه، وأعظم مصيبة فيما يجمعه، ويحرص عليه كونه سبب بعده من الله تعالى، ومما فيه نفعه في الدار الآخرة، فالعلم هذا كلُّه ينفي عن العالم به علّة الحرص، ويبرؤه من عيبه، وكلُّ ما يَنفي العلة فهو دواء لها.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أن الدنيا ليست بدار قرار، وأن الآخرة دار مقرّ، والعاقل مَن يعمل لدار قراره لا لمراحل سفره، فإن المراحل تنقطع بالمقام في السفر، فيعمل إلى ما إليه ما به».

دواؤه العلم بـأن جمعه .... يـبعده عمـا لديـه يـنفعه
مع أنه المعدّ للزوال .... والترك والنقل والارتحال

ومن له همة عالية لا يجمع حطام الدنيا، ويحرص عليها، ويتكاثر منها، والمنع لها بأن ما يحرص عليه وعلى التكاثر منه مع ما فيه من الشقاء والفناء، قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾[النساء:77].

لا خير فيما آل للفناء .... مع كثرة الشقاء والعناء

والشيء إذا كان آيلا إلى الفناء، وشقاؤه وعناؤه كثيراً لا خير فيه، والعاقل لا يحرص عليه، ولا يسعى في الاستكثار منه، ولا يشح به، فيمنعه من عبيد الله تعالى، فالدنيا لا بقاء لها، ومتاعها لا دوام له.

قال بعض الحكماء: «إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك نفسك في أكلة، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار».

وقال بعض الحكماء: «كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولم أكن فيها، فلا أسكن إليها، فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل: إما بنعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو منية قاضية».

ولما كان أمر الدنيا آيلا إلى الفناء، وفي جمعها والتكاثر منها الشقاء والعناء فعجب ممن آثرها وترك الآخرة التي هي دار بقاء ونعيم لا يزول ولا يبيد.

يا عجـــــب لمؤثر دنياه .... وتارك إيثار أخراه

مع علمه بأن هذه فانيه .... وهذه دائمة وباقية

والعلم بفناء الدنيا وزوالها، ونكد نعيمها واضمحلالها يوجب عدم إيثارها، قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَصِيب﴾[الشورى:20].

قال علي ﷺ: «مَن جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً، ولا عن الناس مهرباً: من عرف الله تعالىٰ فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها».

وقال لقمان لابنه: «بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً».

* * *

العيب الخمسون والحادي والثاني والخمسون
استحسانه فعل نفسه دون غيره وأخواته

ويندرج تحته ثلاث عيوب للنفس وهي:

الأول: استحسان أفعاله:

يريد رضاه بأفعاله، وهذا ينشأ عن رضاه عن نفسه، فمَن رضي عنها رضي بكلِّ ما يصدر منها من الأفعال، فإذا كان العبد يستحسن أفعاله، فذلك عيب من عيوب نفسه، فالواجب علىٰ العبد أن لا يرضى أبداً عن نفسه، ولا يستحسن شيئاً منها، ويتهمها في جميع ذلك.

وقال أبو سليمان الداراني: «ما رضيت عن نفسي طرفة عين».

الثاني: استحسان ما يعجبه:

والغالب أنه لا يعجب العبد من الأعمال إلا ما فيه هوىٰ وحظ نفس، فإذا كان العبد آخذاً بكل ما يُعجبه من الأعمال ويرضاه من الأحوال، فيكون مختاراً لنفسه، وهذا يَصدق عليه قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:8].

الثالث: استبعاد فعل المخالف وإن كان يفعله:

بعده لفعل مَن يُخالفه إذا كان المخالف علىٰ الحقّ، وإنما بعد منه لثقله علىٰ النفس، فلا يزال يبعد من الحق حتىٰ يألف فعله الذي يختاره لنفسه.

قال السلمي: «ومن عيوبها: استحسان ما ترتكبه من الأمور، واستقباح أفعال من يرتكبها أو يخالفه».

من عيبها استحسان ما يرتكبه .... وأخذه بكل أمر يعجبه
ونقده لفعـــل مَن يخـــالفـه .... حتىٰ يكن لفعلـه يوالفه

أولاً: سبب العيب:

ويرجع هذا المرض لأسباب منها:

1. **الغفلة عن الرب تعالى:**

وعن ما اتصف به من الأوصاف الكاملة.

2. **شهود العبد نفسه.**

3. **رؤيته لها بعين الرضى والعجب.**

وذلك من غفلته عن ربه .... ومن شهود نفسه وعجبه

فهذه كلها أسباب تورث النفس عيوباً كثيرة، وعللاً عديدة، فليسارع العبد إلىٰ مداواة ذلك وإزالته بما ذكره من الدواء.

ثانياً: دواء العيب:

يعالج هذا المرض بأدوية منها:

1. إتهامه لنفسه:

يريد استعمال النظر، والبحث على ما يبرئ النفس من عللها، وينفي عنها ما اتصف به من العيوب القادحة فيها، فينظر إلى العيب والعلة، ويسلط عليها ما يُضادها وينفيها.

2. حسنُ ظنّه بكلِّ جنسه:

يريد أنّ العبد يحسن الظنَّ بكلِّ أمثاله، وجميع أشكاله بعد إقامة ميزان الشرع، فإذا وفى بذلك وجب تحسين الظن فلا تقع مخالفة.

قال السلمي: «ومداواتها: اتهام النفس؛ لأنها أمارة بالسوء، وحسن الظن بالخلق لانبهام العواقب».

3. رؤية الحال بعين النقص:

يعني رؤية العبد النقص في أعماله وأحواله، وذلك ينفي عن النفس استحسان ما يرتكبه، وأخذه بما يعجبه، وشهود نفسه، وعجبه بما يصدر منها.

4. ذكر ذنبه:

إن ذكره لذنبه يوجب احتقاره لنفسه، ولما يصدر منها من الطاعات سيما إذا عظم ذنبه عنده عظمة لا تصده عن حسن الظن بالله تعالى، فعظمة الذنب تنفي عن العبد شهوده لنفسه وعجبه بما يصدر منها من الأعمال، وتتحلى به من الأحوال، فقد ظهر لك أيها العبد أنّ هذه الأربعة أشياء المذكورة أدوية لعيوب النفس المعدات لها.

دواؤه اتهامه لنفسه .... وحسن ظنّه بكلِّ جنسه

ورؤية الحال بعين نقصه .... وذكر ذنبه الذي لا يحصىٰ

* * *

العيب الثالث والخمسون

إكرام النفس

إكرام النفس يقتضي الرضى عنها، وذلك عيب من عيوب النفس، وإكرامه لها بإعطائه لها ما تهوىٰ، وإسعافيه إياها فيما تميل إليه من الحظوظ والشهوات، وانقياده إليها في الجميع، فهذا كله من إكرامه لها، والنفس متىٰ أكرمتها حقرتك، ومتىٰ أسعفتها منعتك، ومتىٰ انقدت إليها أهلكتك، فلا تبالي حينئذ في أي واد من أودية البلاء رمتك، فمن كان حظها الإكرام استعبدته طول الدوام.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الشفقة علىٰ النفس والقيام بتعهدها».

مَن عيبها إكرامه لنفسه .... وذلك من نسيانه لرمسه

أولاً: سبب العيب:

نسيانه ليوم حلوله في رمسه:

وهو القبر، وما يكون فيه من السؤال وغير ذلك من الأهوال، ولو فكر في ذلك لنظر إلىٰ نفسه بعين الخلاص من تلك الأهوال.

ثانياً: دواء العيب:

الإعراض عنها وقلة الاشتغال بها:

فيكون دواء عيب النفس بقلة المبالاة بشأنها، فلا يُبالي بشؤونها الصادرة عنها من حيث الحسّ، وإنما ينظر إليها من حيث معانيها، فالمبالاة إنما تكون من حيث المعاني، لا من حيث حسها، وجميع الأشياء الظاهرة تعتبر بهذا الاعتبار.

قال السلمي: «ومداواتها: الإعراض عنها، وقلة الاشتغال بها، ولذلك سمعت جدي يقول: من كرمت عنده نفسه هان عليه دينه ».

دواؤه بقلة المبالة .... بشأنه حساً بكل حاله

وهذا يكون في كلِّ حال من أحوال العبد على اختلافها، وبكل اعتبار.

قال ابن نجيد: « النفس إذا كرمت أهلكت صاحبها، وآذته في دينه»، فلا إلى الطاعة تسعفه، ولا إلى الاستقامة تنقاد له، وهذا هو حال النفس الأمارة.

فابن نجيد قال: مَن قد كرمت .... عليه نفسه فدينه أذت

والعبد إذا أهان نفسه، وأذلها وحملها على طريق المجاهدة والرياضة، فذاك هو المكرم في دينه، ويوسم بصلاح حاله واستقامته، وعلامة ذلك إهانة نفسه وإذلالها.

ومن تهن عليه ذاك المكرم .... في دينه إذ بصلاح يوسم

قال ذو النون: «علامة الإصابة مخالفة النفس والهوى، ومخالفتها ترك شهواتها».

* * *

العيب الرابع والخمسون
الانتصار لنفسه

انتصار العبد لنفسه عيب من عيوب النفس العظيمة، ووصف من الأوصاف القبيحة الدميمة

أولاً: سبب العيب:

الرضى عن النفس:

وانتصار العبد لنفسه فرع عن الرضى عن النفس، ورؤيته لها بما يصدر منها، واستحسانه لذلك، وهذا كلُّه أصل في وجود الانتكاس.

ويتولد عن الانتصار للنفس علل كثيرة، ومفاسد عديدة منها: العجب، وحب الرئاسة، والشهرة بين الناس، واستمالة قلوب الخلق إليه، وإنما يحسن بالعبد إذا كان الحقُّ معه أن يكون انتصاره لله تعالى لا لنفسه وهواه.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: الانتقام لها والخصومة عنها والغضب لها».

مـن عـيـبـها انتـصاره لنفسـه .... وذاك أصل في وجود نكسـه

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. محبة الدين وغضبه للمعاصي:

فيجب أن يغار لدين الله تعالى، ولا يرتكب شيئاً من معاصيه قصداً.

قال السُّلمي: «ومداواتها: عداوتها وبغضها، ومحبة الدين والغضب لارتكاب المناهي».

2. رؤية العبد نفسه بعين الاحتقار:

فيحتقر نفسه لا ينتصر لها، بل يكون عليها؛ لكونها ملاحظة بعين الاحتقار، لما يصدر منها من قبيح الأفعال، وذميم الأحوال محفّة بكلّ عار يُنسب إليها، وبكلِّ قبيح أفعال يُسند إليها؛ لكونها ظلومة غشومة غدارة مكارة.

دواؤه رؤيتها بالاحتقار .... وأنهـا محقـة بكلِّ عـار

والنفس مستحقة للأوصاف الذميمية، وهي لازمة لها ما دامت أمارة وظلومة، وغشومة: الجهل الجائر.

لأنهـا ظلـومة غـشـومـه .... غـدارة مكـارة مـشـومـه

والسبب الذي استحقّ به أن توصف بالظلم وغيره من الأوصاف الذميمية أن لها الحق بالسعي في الانتصار لها، والانتصار على هذا الوجه إنما هو انتصار على سبيل الغلط، وقد يقع الانتصار ممن يعلم أنه على خطأ وباطل، وهذه هي المغالطة.

ترى لها الحق بعين الباطل .... مشغولةً باللهو والأباطل

والنبي ﷺ لم يكن ينتصر لنفسه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأوَّل مَن ينشق عنه القبر، وأوَّل شافع وأوَّل مشفع»[1].

وصحّ أنه ﷺ ما انتقم لنفسه قط، ولا انتصر لها أبداً، وإنما انتقامه لله تعالى، وانتصاره لإقامة الدين ولإعلاء كلمة التوحيد، وهذا سبيل من يرى الحق عين الحق.

ولم يكن خير الأنام ينتقم .... لنفسه لكن لفعل مجترم

فليكن المؤمن على سبيل نبينا ﷺ متى ما خالف وانتصر لنفسه، أو انتقم لها، فذلك عيب من عيوب النفس، فليجتهد في زواله والبراءة منه.

* * *

العيب الخامس والخمسون
قبول المدح

وكونه عيباً؛ لما فيه من رؤية النفس بعين الكمال والرضى عنها، ويحدث في النفس كبراً وعجباً وفتوراً على العمل، فقبول مدح الناس عيب، وينشأ عنه علل.

---

(1) في صحيح مسلم 4: 1782.

قال بعضهم: «من فرح بمدح، فقد أمكن الشيطان أن يدخل في بطنه»، وقال زياد بن مسلم: «ليس أحد يسمع ثناء عليه إلا تراءىٰ له الشيطان».

قال الغزالي: «وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق، وهم ممقوتون عند الخالق، هكذا اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالىٰ يبغض إليهم مدح الخلق».

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «الذي يمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك بما تعلمه منها».

وقال أيضاً: «أجهل الناس مَن ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس».

قال ابن عباد: «ذم العبد لنفسه واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها مطلوب منه؛ لأنّ ذلك يؤديه إلىٰ الحذر من غرورها وشرورها، فتصلح بذلك أعماله».

من عَيبِها قَبُول مَدح النَّاسِ .... والشُّغل بالرزق مع الأنفاسِ

ثانياً: سبب العيب:

اغترار العبد بحوله وقوته التي لا تأثير لها في الكائنات:

ولا يصدر عنها علىٰ الحقيقة شيء من المقدورات، وكان غافلاً عن الله تعالىٰ، وغائباً عن شهود أفعاله، وآثار أسماء صفاته، نشأت عن ذلك علل وعيوب في النفس وآفات منها: اهتمامه بالرزق، وشغله به، وتركه لما طلب منه، وإذا رأىٰ العبد في نفسه هذه العيوب، فليبادر إلىٰ زوالها بما ذكره من الدواء.

وذلك من غروره وغفلته .... عن ربه في فعلته وحالته

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج المرض بأمور منها:

1. مراقبة الله تعالى:

فمَن راقب الحق تعالى لم يشهد غيره، فالمراقب قلبه مع مراقبه، فلا يشهد إلا هو، ولا يسمع إلا منه، فهو مشغولٌ بحاله مع الله تعالى، وينظر هل هو محبوب عنده، أو ممقوت مذموم؟ فلا يغتر بمدح الناس، ولا يقبله منهم، فالمراقبة تنفي عن النفس قبول مدح الناس الذي هو عيب من عيوبها، فلذلك كانت المراقبة دواء لهذا العيب.

2. عدم الركون لغير الله تعالى:

فلا يركن إليه، ولا يُعوِّل عليه في مدح أو ذم، سئل ابن عطاء الله: «ما أفضل الطاعات؟ فقال: مراقبة الحق على دوام الأوقات».

دواؤه في الأول المـراقبه .... وترك ما يرجوه من مصاحبه

* * *

العيب السادس والخمسون
الاشتغال بالرزق

إن شغل العبد بالرزق عيبٌ من عيوب النفس؛ لما فيه من عدم الثقة بالله تعالى والتهمة له، وهذا قادحٌ في اليقين، وموجبٌ لخلل في الإيمان، وفسادُ حال العبد مع الله تعالى، والواجب على العبد قوّة يقينه في مولاه، وأن لا يتهمه في شيء ضمنه له، ووعده به، وأقسم عليه، وأكد الوعد بالقسم، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23].

قال السلمي: «ومن عيوبها: اهتمامها بالرزق وقد ضمن الله ذلك، وقلة اهتمامها بعمل افترضه الله عليه لا يقوم عليه غيره».

أولاً: سبب العيب:

قلة الثقة بالله تعالى أنه رزاق:

فمن ضعيف إيمانه، حرم الثقة بخالقه، فلم يعتمد على الله تعالى، واعتمد على نفسه فشقي وأشقى من حوله.

ثانياً: دواء العيب:

1. **قوة اليقين بالمولى جل جلاله.**

2. **الثقة بالله تعالى، وعدم اتهامه له فيما ضمنه له:**

قال السُّلمي: «أن يعلم أن الله الذي خلقه ضمن له كفاية رزقه».

لا سيما فيما وعده به وأقسم عليه، كما سبق في الآية قبل هذا، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:58]، ومن أسمائه تعالى الرزاق، وكيف يتسمى تعالى بما لم يتصف بمعناه، فإذا قوي يقين العبد في مولاه تعالى اطمأن قلبه، وسكنت نفسه، فلم تشتغل بطلب الرزق، ولا تتهم به، وكذلك ثقة العبد بمولاه تعالى في حالة سكونه، وتركه الأسباب ينفي عنه الاهتمام بالرزق والشغل به.

وللأخير قسوة اليقين .... وثقة بالله في سكون

قال حاتم الأصم: «ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ما تأكل وما تلبس وأين تسكن؟ فأقول: المأكل والملبس والمسكن».

ومراد الشيطان لعنه الله تعالى أن يشغل قلب حاتم عما هو بصدده من عبادة الله تعالى، والانقطاع إليه، فرماه بهذه الدواهي الثلاث؛ إذ هذه الأمور هي

الأكيدة عند الناس، وأكثر اهتمامهم بها، ولا بُدّ لهم منها، فذكر له أموراً لا غناء له عنها، وكفى بهذه شاغلة للقلب، ومحركة للنفس.

قال الإمام حاتـم الأصم .... حكاية هي لديه فهـــــــم
يقول لي الشيطان كل يوم .... من أين تأكل يا ضعيف القوم
من أين تلبس أي شيء تسكن .... أقول أكلي الموت لبسي الكفن
ومسكنـي القـبر وذاك المنتهى .... عند ذوي الحزم وأرباب النهى

لكن لما كان حاتم صادقاً في حاله مع الله تعالى ألهمه جواباً مسكتاً للشيطان تقوم له به عليه الحجة، فلا يستطيع اللعين مدافعته، ولا أن ينقض على حاتم حجته، فأجابه بأن قال: أكلي الموت، ولبسي الكفن، ومسكني القبر، ولما كانت الأمور التي ذكرها الشيطان لحاتم لا غناء عنها، فأجابه بما لا بُدّ منها، وإطلاقه الأكل للموت مجازاً لا حقيقة، وذلك لما كان الموت قاطعاً للأكل، فكان بمنزلة المأكول الذي يحتاج معه أكل غيره، وأما لباس الكفن، ومسكن القبر رفع رأسه.

والعاقل من يستريح من تعب الأعداء الذين هم يشغلونك عن حقوق مولاك، والمراد بالاستراحة راحة القلب، وسكون النفس، واطمئنانها من تعب التدبير في حصول الرزق، والاهتمام به.

فلتسترح من تعب الأعداء .... وكلمـا تعـتـاد مـن إغـواء

* * *

العيب السابع والخمسون
كثرة الذنوب

التكثير من الذنوب، وذلك بأن يتكرر من العبد ذنب بعد آخر إلى أن تتكاثر ذنوبه، وتتعدد دسائسه فتأنس النفس بالقدوم على الذنوب، وتتحاسر على اجتراح السيئات، ولا تبالي بأفعال المخالفات، فلا يَزال العبد كذلك حتى يؤثر ذلك قسوة في قلبه، ويزداد بعداً من ربه تعالى، فليتنزل منزلة البعد أو يعامل بما يعامل به الأشقياء.

قال السلمي: «ومن عيوبها: كثرة الذنوب والمخالفات إلى أن يقسى القلب».

من عيبها التكثير من ذنوب .... حتى يؤثر قسوة القلوب

أولاً: سبب العيب:

ويرجع على أسباب متعددة منها:

1. **تكثير الذنوب عدم الخشية من الله تعالى.**
2. **الجهل بعظمة الله تعالى.**
3. **الاستخفاف بحقوق الربوبية.**
4. **عدم الصدق في العبودية.**

فهذه كلها أسباب تجاسر العبد على القدوم على المعاصي، والمخالفات، واكتساب السيئات.

وسبب قسوة القلب: كثرة المعاصي والمخالفات، قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُون﴾ [المطففين:14].

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}[المطففين: 14]»[1].

فليحذر العبد أسباب الذنوب، وليجانب ما ينشأ عنه قسوة القلوب.

ثانياً: دواء العيب:

يرجع دواؤه لأمور منها:

1. كثرة الاستغفار:

فهو مرهم جراحات الذنوب به تداوى كلومها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:110].

فعن حذيفة ﷺ قال: «يا رسول الله، إني ذرب اللسان، وإن عامة ذلك على أهلي، فقال: أين أنت من الاستغفار؟، فقال: إني لأستغفر في اليوم والليلة ـ أو في اليوم ـ مائة مرة»[2].

قال الساحلي: «انظر إلى اختصاص هذا الدواء بهذه العلة على لسان الطبيب الأكبر، وكونه ﷺ لم يقل له: وأين أنت من التهليل، أو التسبيح، أو غير ذلك من باقي الأذكار، وإنما دله على ما يناسب حاله من الأذكار، وذلك دليل على استعمال الأذكار بحسب الأحوال».

فإذ قد علمت أن ذكر الاستغفاردواء لعلة الذنوب، ويبرئ النفس من هذا العيب الذي هو من أعظم العيوب، فلا بُدّ لهذا من الدواء من مقدار، فإن

---

(1) في سنن الترمذي5: 434، وسنن ابن ماجة2: 1418.

(2) في مسند أحمد38: 384، وسنن النسائي9: 169.

مقادير الأدوية معتبرة عند الحكماء، فالزيادة على المقدار مضر بالعليل مؤد إلى إتلافه

فإذا علمت ذلك، فتقدير المقدار الذي يستعمله صاحب علة كثرة الذنوب من الدواء الذي هو الاستغفار راجع إلى الحكيم، وهو القدوة المربي العالم لعيوب النفوس وعلاجها وتباين الطباع واختلافها، فيعطي لكل عليل من الدواء ما يبرئ علته، ومن المقدار ما يوافق حاله وطبيعته، وإنما أحلنا ذلك إلى الحكيم القدوة؛ لأن المقادير لا تنحصر لكثرة أحوال الناس، واختلاف طبائعهم، فإذا جعل الحكيم لعلة الذنوب عدداً معلوماً من الدواء الذي هو الاستغفار، فعلى العليل التزامه والقيام بشروطه وآدابه.

فالشروط خمسة: الطهارة الكاملة عند التوجه إلى الذكر، وأن يكون الذكر متوجها إلى القبلة، وأن يكون في مكان خال، ومدافعة الخواطر المغايرة لمعنى الذكر، وأن يقدم بين يدي ذكره مقصداً يرجع إليه معنى الذكر.

وآدابه خمسة: خلو البطن من الطعام، والجلوس على هيئة تقتضي الخضوع والانكسار والمذلة، وتغميض العينين؛ لأن في تغميضهما عوناً على جمع الفكرة، وحضور القلب واتخاذ سبحة لحصر العدد الذي التزمه، وأن لا يقطع الذكر في أثنائه بما ينافي الذكر.

فالأذكار المعدة لنفي علل النفس إذا استعملت على الوجه الذي ذكرناه، وعلى الوصف الذي رسمناه زالت العلل لا محالة، وكلُّ عيب من عيوب النفس اعتقد برءه واضمحلاله.

2. توبة تذهب بالإصرار:

وهي التوبة النصوح التي أمر الله تعالى عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[التحريم:8]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:31]، وهذه التوبة العامة التي فرضها على جميع المؤمنين.

ولا شك أن هذه التوبة من الأدوية التي يداوى بها جراحات الذنوب، وتطهر النفوس من النقائص والعيوب، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قال ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»[1].

والتوبة الرجوع عن المعاصي إلى الطاعات، وترك المخالفات، واستعمال الموافقات وإذا أرادنا أن نستعمل التوبة على طريق الاستشفاء بها من علل الذنوب، وأن تذهب بها عن النفس ما اتصفت به من عظيم العيوب، فلا بد أن تأتي بها مستوفاة بشروطها وآدابها؛ إذ استيفاء شروط الأدوية مشروط عند الحكماء.

وهذا الحكم تستوي فيه أدوية العلل الظاهرة والعلل الباطنة، فكما أن الأطباء الذين هم يعالجون العلل الظاهرة اشترطوا في أدويتهم شروطا يكون قوام أدويتهم بها، فكذلك الحكماء الربانيون اشترطوا شروطا تكتمل بها أدويتهم التي يعالجون بها أمراض القلوب وعلل النفوس، وقد قلنا: إن التوبة مما يداوى بها علة الذنوب، فلا بُدّ إذا من شروطها ليصحّ الانتفاع بها فيما اعتدت له.

فشروطها أربعة: الإقلاع عن جميع الذنوب؛ لأن الإقلاع يضاد الإقامة التي تقتضي التكاثر مما أقلع عنه، والندم على ما فات، والعزم أن لا يعود، فينتفي

(1) في صحيح البخاري6: 101.

الإصرار، وأن يقصد بالتوبة الرجوع إلى الله تعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وآدابها أربعة: ترك صحبة العصاة الذين ألفهم على المعاصي، ومواصلة أهل الخير، واجتناب مواضع اللهو والسهو والغفلة فإن النفس تنبعث بذلك إلى الشهوات، وأن لا يذكر شيئاً من لذة المعصية، ويجاهد نفسه في إصلاح ذلك وإخراجه من قلبه.

والإتيان بالتوبة بشروطها وآدابها تكون دواء كاملة التركيب من أجزائه.

3. **صحبة الأخيار والصوام:**

لا شك أن صحبة الفريقين أو أحدهما دواء لعلة الذنوب، فمن صحب الأخيار تنزه عن اكتساب الذنوب، ومن صحب الصوام برئت نفسه من النقص والعيوب، وذلك لأن للصحبة أثراً، وللمخالطة والمعاشرة نبأ وخبر، فمن صحب الأخيار بهم اهتدى، ومن صحب الصوام بهم.

والمراد بالصحبة هنا الصحبة الخاصة، وقوة المداخلة، وطول المعاشرة التي تفيد الاقتداء بالمصحوب، وتحصل المطلوب والمرغوب من ترك أسباب الذنوب وموجبات الاتصاف بالعيوب.

والمراد بالأخيار الذين اختارهم الحق سبحانه لولايته، والجلوس على بساط قربه في حضرة مناجاته، وجعلهم هداة للخلق، ودعاة للحق.

والمراد بالصوام: أي الذين صاموا الصوم الخالص بأهل التخصيص، فجميع جوارحهم محبوسة عما منعوا منه شرعاً، فصحبة هؤلاء يكون بها الاهتداء، والنجاة من موارد الردى، ولهذا رغب أهل التوفيق في صحبتهم،

واستعملوا أنفسهم في خدمتهم، وحرصوا على مخالطتهم، ومعاشرتهم، وليحصل لهم بذلك خير الدنيا والآخرة.

4. حضور الذكر:

فإنه من الأدوية التي تنفي علة التكاثر من الذنب؛ لأن حضور العبد مجالس الذكر يذكره عظمة ربه، وشهود جلاله وجماله وأوصاف كماله، فالجلال يكسبه خوفاً، والجمال حياء، فلا يقرب ذنباً ولا يأتي عيباً.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة، فضلا يتتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم، حتى يملئوا ما بينهم وبين السماء الدنيا»[1].

وعن أنس ﷺ قال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة، فارتعوا» ، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»[2].

وذلك كما أن رياض الجنة لا يدخلها الشيطان، ولا تقع فيها معصية ولا حظ نفس، بل النفوس فيها مطمئنة، فكذلك مجالس الذكر لا يكون فيها شيء من النقائص والمخالفات، فكانت بذلك دافعة نافية للذنوب وأسبابها، كما ينفي الدواء العلة المضادة له.

5. القيام في آخر الليل وفي الأسحار للذكر والدعاء والاستغفار.

قيام العبد في آخر الليل وبالأسحار ذاكراً وداعياً ومستغفراً ينفي عنه الوقوع في الذنب والاتصاف بالعيب، والمراد بآخر الليل الثلث الأخير منه، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى

---

(1) في صحيح مسلم4: 2069.

(2) في مسند أحمد1: 498.

السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»[1].

والمراد بالسحر السدس الأخير من الليل.

وخص هذان الوقتان بالذكر والدعاء والاستغفار.

أما الذكر، فلخصوصيات وردت فيه، عن أبي الدرداء ﷺ، قال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكر الله تعالى، قال معاذ بن جبل ﷺ: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»[2].

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:152]، وفوائد الذكر كثيرة أكثر من أن تحصى، فتبين من هذا أن الذكر مرهم لجراحات الذنوب، ومطهر للنفس من نقائص العيوب.

وأما الدعاء فإنه من الأدوية التي تذهب علة الذنوب، وتطهر النفس من العيوب، وهو مطلوب في كل الأوقات، وخصوصاً في الثلث الأخير من الليل للحديث: «هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟»[3].

ومن ناجي ربه غفرت ذنوبه، وستر عيبه، فلهذا كان الدعاء من أدوية علة الذنوب، ومطهرا للنفس من العيوب.

وللدعاء شروط وآداب.

---

(1) في صحيح مسلم1: 522.

(2) في سنن الترمذي5: 459.

(3) في صحيح مسلم1: 522.

فشروطه أربعة: الصدق بمراقبة الظاهر والباطن، وتجنب الاعتداء في الدعاء، وافتتاح الدعاء بالحمد والثناء على الله والصلاة على رسول الله ﷺ، وإساءة الظن بالنفس وحسن الظن بالله إيماناً بالقبول والإجابة.

وآدابه أربعة: الطهارة الكاملة، وتقديم صلاة ركعتين، ونصب اليدين عند الرغبة، ودلالة الدعاء على المعنى الذي أراده وقصده.

قال السلمي: «ومداواتها: كثرة الاستغفار والتوبة في كل نفس، ومداومة الصيام، والتهجد بالليل وخدمة أهل الخير، ومجالسة الصالحين، وحضور مجالس الذكر».

دواؤه كثـــرة الاستغفار .... وتوبة تذهب بالإصـرار
وصحة الأخيار والصيام .... ثم حضور الذكر والقيام
في آخر الليل وبالأسحار .... للذكر والدعا والاستغفار

وأما الاستغفار في الأسحار فلحديث: «هل من مستغفر يغفر له؟»[1].

فلا ينفع ذكر الجمع في التداوي به من علل النفس المذكور ما لم يكن الذكر مع أهل الجمع؛ لأن فيه تفرقة وعدم وجدان للوجد الحقيقي، ولا يخلوا من الشوائب القادحة فيه، فصار دواء معتلاً، والمعتل لا يزيل العلة، وإذا كان مع الجمع أهله، كان جامعا للهمم والقلوب، وموقضاً للنفس من سنة الغفلة، ولا يشاب بقادح، وما كان كذلك يصح أن يكون دواؤه لعلة التكاثر من الذنوب وصارفاً عن النفس ما اتصفت به من نقائص العيوب.

ولا يفيد فيه ذكر الجمع .... ما لم يكن ذاك بأهل الجمع

والمراد بأهل الجمع أهل الصدق القائمين بشروطه وآدابه.

فشروطه سبعة:

أ.أن يكون حال الاجتماع مصلحاً لحال السالك تدعو إليه الضرورة من ترويح النفس من ضغطة المجاهدة، أو تنشيطها لما رأى ذلك.

ب.أن يكون في محلِّ الاجتماع القدوة، أو من يقوم مقامه في ضبط أمور الجمع، وردهم إلى نظر واحد؛ لأنّ الأهواء إذا اختلفت كان عنها الشتات والفساد.

ج.أن يقدم بين يدي الاجتماع قصداً نافعاً، فيقصد معاملة الله تعالى بالانقطاع مع صالحي إخوانه، كي يرحم بهم، ويرى أنهم القوم الذين لا يشقى جليسهم.

---

(1) في صحيح مسلم1: 522.

د.لا يحمله غلبة النوم على تضييع شيء من لزومه، أو تقصير في فريضة؛ لأن تجار الآخرة يصونون رؤوس أموالهم من الضياع.

هـ.أن يكونوا صنفاً واحداً يجمعهم طريق واحد؛ لأنّ الباطن يسكن إلى مؤالفة الصنف، كما ينفر عن ملابسة غير الصنف.

و.ألا يمزجو ما اجتمعوا عليه من الذكر بما ينافر الذكر. من لغو، وهدر، وغير ذلك، مما يجر إلى الغفلة، ويدعو إلى الخسران.

س.استصحاب الطهارة حتى يكون جميع ما يلتمسون به من أعمال الخير صادراً عن أكمل الحالات، وأجمل الصفات.

وآدابه سبعة:

أ.أن يكون الاجتماع للذكر ليلاً، لما في الليل من الهدوء والخلوة، ولأنه محل المناجاة والعبادات، وزمان الإجابة والقبول.

ب.ألا ينام بين الحاضرين، ذلك مما يكسل الذاكرين، ويذهب بنشاطهم.

ج.الابتداء بركعتين في موضع الاجتماع للذكر.

د.خديهم يعينه القدوة يقوم بخدمة القوم، ليريحهم من شغب ذلك، ويتفرغون للذكر.

هـ.التزام الأدب مع الله، ومع القوم الداكرين.

و.الابتداء بعد ركعتين بالصلاة على رسول الله ﷺ، أقل ذلك مائة.

ولا ينفع الصوم في ذلك إذا كان دون صمت واعتزال، ولا القيام دون صدق وابتهال، وإنما كان الأمر كذلك لنقص صوم من لم يصمت لسانه حين صيامه عن فضول الكلام الذي لا يعني، ولم يعتزل بقلبه وقالبه عن الخلق شغلا بالحق.

وكذلك قيام الليل دون صدق في العبودية لإظهار فقر العبد إلى ربه، فهو أيضا ناقص، وقد قدمنا أن من الحكمة أن يكون الدواء كامل الأجزاء، فإذا كمل حصل به الانتفاع، وكانت العلة بسببه أسرع إلى الزوال والاندفاع.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال : «رب صائم ليس حظه من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس حظه من قيامه إلا السهر»[1].

ولا الصيام دون صمت واعتزال .... ولا القيام دون صدق وابتهال

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾ [الرعد:28].

ولما كان الذكر يلين ويزيل قسوتها أمره ﷺ بالتزامه والدوام عليه، ومن فوائد الذكر قبول الحق تعالى على الذكر ومجالسته، ولا تكون المجالسة إلا مع القرب والقبول.

فعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «قال الله تعالى: عبدي أنا عند ظنك بي، وأنا معك إذا ذكرتني»[2].

وقد شكا للمصطفى إنسان .... قسوة قلب شأنه العصيان

قال إدنه للذكر كي يزولا .... محله ويقتني قبولا

وقال: مَن أذنب ذنباً نكتاً .... في قلبه سواده وثبتا

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء»[3].

---

(1) في مسند الشهاب2: 309، ومسند أحمد15: 28.

(2) في المستدرك1: 674.

(3) في سنن الترمذي5: 434، وسنن ابن ماجة2: 1418.

فإن يتب من ذاك أو يستغفر .... زال الذي نكته أو يغفر

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:110].

وإذا أذنب العبد ذنباً نكتت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب واستغفر زالت تلك النكتة، وإن تمادىٰ في المعاصي، والمخالفات زادت النكتة سواداً حتىٰ يتغطىٰ القلب.

ولا يزال العبد يزيد في المعاصي ويقترف السيئات حتىٰ يصير القلب بعيدا من الحق منحرفا عنه، ثم كذلك إلىٰ أن يذهب منه نور الهدىٰ، وتعلوه ظلمة المعاصي، فلا يميز حينئذ المنكر من المعروف، ولا يعرف الحق من الباطل، تلتبس عليه الأمور بسبب ما يعلوه من الظلمة، ويفقده من النور.

وإن يكن في غيه تمادىٰ .... فنكته يـزيده اسـودادا

حتىٰ يصيب القلب ليس يعرف .... النكر والمعـروف بـل يجـازف

والذي أتىٰ في سورة المطففين هو قوله تعالىٰ: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين:14]، وهذه الآية تلاها رسول الله ﷺ للذي شكىٰ له قسوة القلب، فتلاها له عليه الصلاة والسلام، ليعلمه أن علة ثم تلا له إمام العرفين .... ما قد أتىٰ في سورة المطففين

وسبب قسوة القلب اكتساب الذنوب، واقراف السيئات، وهذا فيه تحذير من المعاصي، والمخالفات، واكتساب الذنوب، والسيئات، فبين ﷺ العلة وسببها، ودواء العلة، وهو الذكر.

من ذكر ران واقع في القلب .... مكتسب من ارتكاب الذنب

* * *

العيب الثامن والخمسون
رقيق العلم

رقيق العلم: هي المسائل اللطيفة المتضمنة للمعاني الغريبة التي لا كبير حاجة إليها لعامة المؤمنين، ولا ينبني عليها حكم من أحكام الدين، ولا نقص فيه بسبب الجهل بها؛ إذ هي علوم علمها يجدي، وجهلها لا يردي.

قال السلمي: «ومن عيوبها: حبها للكلام مع الناس والخوض في ففايق العلوم ليصبو به قلوب الأغيار، ويصرف بحسن كلامه وجوه الناس عنه».

مـن عيبها ذكر رقيق العلم .... والخوض فيه بدقيق الفهم

أولاً: سبب العيب:

ويرجع هذا المرض لأسباب منها:

1. استمالة أنفس العامة ولكسب الجاه عند الناس:

فاستمالة أنفس الإغمار أي الجهال تنزهاً للقلوب من أن تميل إلى مثل ذلك، فذلك عند أهل الحق عيب من عيوب النفس قادح فيها، وعلة تذهب من الروح القوة وتنفيها، والشغل برقيق العلم والخوض فيه عند أهل السلوك من الشغل بما لا يعني، وهذا بالنظر إلى مَن له نصيب من فاخر العلوم، وعالم بما يحتاج إليه من ضروريات المسائل الدينية، وأقبح من هذا من كان جاهلا بأمور دينه غير عالم بأحكامه، ويشتغل برقيق العلم ودقائقه.

كي يستميل أنفس الأغمار .... مكتسباً جهلاً على استمرار

2. إيثار العبد لدنياه:

فإيثاره لها يحدث في النفس عيبا، منها السعي فيما يميل النفوس إليه، والخوض في ذلك.

3 .**ترك ما يرضي المولى تعالى:**

وهو تعالى لا يرتضي إيثار العبد لدنياه، ولا السعي فيما يحصل متاع الدنيا، فترك مرضاة المولى نتيجة حب الدنيا وإيثارها، وذم طالبها والتنفير من حبها، والرغبة فيها، وما يُزهد العبد فيها.

وذاك مـن إيثاره دنياه .... وتركه ما يرتضي مولاه

ثانياً: دواء العيب:

1 .**عمله بمواعظه:**

التارك لدنياه، والمؤثر في جميع أحواله وشؤونه لمولاه، مواعظه لمن عمل بها نافعة، ورؤيته لعيوب النفس، وعللها دافعة، ألا ترى إلى قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، وقالوا: «أنفع ما يكون للقلوب: آية قاطعة، أو موعظة نافعة، أو حجة أنوارها ساطعة».

دواؤه عمـــله بوعظه .... لينتفع بلفظه ولحـظه

بأن يكون تاركًا دنياه .... ومؤثراً في حاله مولاه

2 .**صحبة الأخيار:**

دواء لعيوب النفس لكن بشرط الاحترام لهم والبرور بهم، فاحترامهم واجب وبرورهم حتم لازم، فهذا لا يقع لمن صحبهم الانتفاع بهم.

3 . **العمل بما يعلم:**

قال السُّلمي: «ومداواتها: العمل بما يعلم، وأن يعظ الناس بفعله لا بقوله».

وقيل: إن الله تعالى أمر المسيح ﷺ أن يبتدئ بوعظ نفسه، وذكره ليكون الوعاظ في مواعظهم على السبيل الذي أمر الله تعالى به نبيه المسيح ﷺ، وهو الطريق المحمود.

قد أمر الله المسيح المرتضى .... أن يبتدي بنفسه إن وعظا

وإن كانت النفس تتعظ بوعظ صاحبها لها، فغيره يتعظ بموعظته وينتفع بها، والأصل في ذلك وجود الصدق، وإخلاص العمل لله تعالى، وسلامة الصدور، وإرادة هداية عباده تعالى إلى بابه الكريم، وعدم رؤية النفس، فهذه كلُّها أسباب توجب قبول موعظة مَن اتصف بها كما أن عدمها توجب عدم القبول، أو يعظهم ولم يعظ نفسه، وقد ذم الله تعالى قوما كان حالهم أن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، فقال تعالى موبخا لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:44].

وإن تكن بوعظه متعظه .... أو لتتب فتستحي من العظه

وعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»[1].

والمصطفى في ليلة الإسراء .... رأى الذي حل بالخطاب

وقال تعالى في البقرة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:44].

أتأمرون قد أتى في البقره .... في آية زجـــرة مذكـــره

* * *

(1) في مسند أحمد19: 244، ومسند الحارث1: 170.

العيب التاسع والخمسون
طلبها للفرح

سرور النفس بما يحصل لها من أغراضها وشهواتها وفرحها بذلك، ومرحها وطلبها للراحة عيب من عيوبها، وذلك دليل على عدم خوفها من خالقها، وعدم مراقبتها لجلاله تعالى، ومشاهدتها لعظمته، ولو كانت مشاهدة للعظمة، ومراقبة للجلال لأكتسبت من ذلك هيبة وخوفاً وحياءً، وفي القرآن أن الله لا يحب الفرحين، وقد كان ﷺ دائم الأحزان والفكر في عظمة الله تعالى، ومعاني أسمائه وعظيم أفعاله.

قال بشر الحافي: «الحزن إذا سكن في موضع لم يرض أن يساكنه أحد».

وكان الحسن البصري: «ما يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة».

وطلب الراحة في الدنيا والمرح علامة على فراغ القلب من التقوى، ودليل على نسيان الآخرة، ولا عيب أعظم من هذا، وكيف يسر ويفرح من الموت طالبه، والقبر ينتظره والسؤال في القبر وراءه والحساب والعقاب أمامه، ولا يعرف في الجنة مسكنه أو النار قراره، وهل يقابل عند لقاء الله برضاه، أو بسخطه.

قال السلمي: «ومن عيوبها: سرورها ومدحها وطلبها الراحة وتلك من نتائج الغفلة».

من عيبها سرورها والفرح .... وطلبها الراحة وهي تمرح

أولاً: سبب العيب:

ويعود هذا المرض لأمور منها:

1. رضاه عن نفسه.

2 .**عدم إتهامه لها فيما يبدو منها.**

وهذا سواء من الأعمال، وتدعيه من الأحوال، ولا شك أن الرضى عن النفس يحدث فيها عيوباً كثيرة، وكذلك عدم إتهامه لها.

وذاك من رضاه عنه أبداً .... وعدم اتهامه فيما بدا

ثانياً: دواء العيب:

ولهذا المرض أدوية متعددة منها:

1 .**استيقاظه من غفلته عما يوجب الحزن:**

فعليه اليقظة عن أمور توجب له الحزن والقبض لا السرور والفرح والمرح، وهي الموت المحتوم، وما بعده من الأحوال: كالسؤال والحساب والعقاب وجهل العاقبة، وغير ذلك مما يوجب يقظة القلب، وانتباه الروح وخمود النفس، فالغفلة عن الله تعالى وعن ما ذكرنا من أمور الآخرة هي أصل كل عيب وعلة وزوال الأصل يقضي بزوال ما تفرع عنه.

2 .**تذكر تقصيره وارتكابه لما نهى الله عنه:**

وتذكر هذه الأمور إنما هو مع اليقظة من الغفلة، فإذا تذكر العبد ذلك انقلب سروره حزناً، وبسطه قبضاً، وفرحه إنكماشاً، ولم يطلب الراحة بل يأخذ بالجد والتشمير في تدارك ما قصر فيه من العبادات، وتكبير ما اجترحه من السيئات.

3 .**تذكر أمور الآخرة:**

فكره ما بين يديه آت من أمور الآخرة التي من تذكرها لم يبق له سرور، ولا انبساط ولا مرح.

دواؤه استيقاظه من غفلته .... لأن ذاك هو أصل علته

وذكره تقصيره وزلتـه .... وكل نهي كان فيه عمله
وذكر ما بين يديه آت .... من أمر أُخراه بلا انفلات

4.عمله بأن الدنيا دار سجن لا راحة:

قال السلمي: «ومداواتها: التيقظ لما بين يديها، وعلمها بتقصيرها فيما أمر به، وارتكابها ما نهىٰ عنه، وأن هذه الدار له سجن لا سرور ولا راحة في السجن، فيجب أن يكون عيشه فيها عيش المسجونين لاعيش المستروحين».

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»[1]، وإنما كانت سجن المؤمن، لما يلقاه فيها من الشدائد والمصائب، ولما كلف فيها من التكاليف والمتاعب، فكانت بذلك سجنه، وإنما كانت جنّة الكافر؛ لما يتهيأ له فيها من شهوات نفسه، ولذات الدنيا التي هي جنته، وإنما أصاب المؤمن في الدنيا الشدائد والمصائب، لئلا يركن إليها ويأنس بها.

قال الرسول هذا سجن المؤمن .... وجنة الكافر طول الزمن

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «إنما جعلها حملاً للأغيار، ومقعداً لوقوع الأكدار، تزهيداً لك فيها».

وليس في السجن إلا ما يتأذىٰ به الإنسان في ظاهره وباطنه، فمَن طلب فيه فرحاً، فقد طلب في غير محلِّه؛ لأنه الدنيا محلّ للترس، وهو عكس الفرح.

وكذلك المؤمن في الدنيا لا يلقىٰ فيه إلا الاغترار والأكدار، وفي كلامه توطين للنفس علىٰ ما يلقاه العبد المؤمن في دار الدنيا من الأذىٰ والأكدار، وأنواع المصائب والأغيار، وإياس لها من أن تطمع في شيء في غير محله.

---

(1) في صحيح مسلم4: 2272.

والسجن فاعلم ليس فيه فرح .... وإنما فيه الأذىٰ والترس

قال داود الطائي: «قطع نياط قلوب العارفين أحد الخلودين»: أي قطع قلوب العارفين ذكرهم إحدىٰ الخلودين: إما خلود في الجنة وإما خلود في النار، فليت شعري وكيف لا ينقطع قلب مَن لا يعرف من أي القبضتين هو، ولا من أي الفريقين، ولا في أي الدارين يكون.

فالعارفون أشداء الخوف من ذلك، لما لم يعلموا السابقة، ولم يعلموا العاقبة، وإنما خاف العارفون من ذلك، لشهودهم الجلال، ولم ييأسوا من الجمال، وهكذا حال العارفين، فهم أشد خشية من الله تعالىٰ، وكلما زاد العبد معرفة كان أشد خوفاً، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[فاطر:28].

وقال داود الإمامه الطائي .... كلمة عظيمة الأنبـــــــاء
قطع قلوب العارفين أبداً .... بذكرهم إحدىٰ الخلودين غدا

وقال رجل لبشر الحافي: «مالي أراك مهموما ؟ قال: لأني مطلوبه».

وقال بشر للذي قد سأله .... ما لك مهموماً جواباً أجمله
لأنني في حالتي مطلـوب .... وذا جواب جامع مصيـب

* * *

العيب الستون والحادي والستون
اتباع الهوى ورضا النفس

فهاهنا الكلام على عيبين معاً، وهما:

الأول: اتباع هوى نفسه:

وقد نهى الله تعالى عن اتباع الهوى فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص:26]، وقد عدّ متبع الهوى من الحمقاء، وكُلُّ مَن اتبع هوى نفسه، فهو منقاد إليها مملوك لها ولهواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[الجاثية:23].

الثاني: السعي لرضى نفسه:

فإنه سعي لغير الله تعالى ومخالفة الحق؛ إذ النفس لا ترضى إلا بما هو باطل، ولا عيب أعظم من هذين الأمرين الذين هما اتباع هوى النفس، والسعي فيما رضي بمخالفة هوى النفس أولى من اتباع هواها، والسعي في رضى المولى جل جلاله أحق من السعي في رضى النفس.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: اتباعها هواها وموافقة رضاها وارتكاب مراداتها».

من عيبها اتباعه هواها .... وسعيه لما به رضاها

أولاً: سبب الأمراض:

ويعود هذا لأمور منها:

1. جهل المتبع هوى نفسه بها:

فجهله بنفسه وبما يؤول إليه أمره إن اتبع هوىٰ نفسه؛ إذ لو كان عالماً بها، وأنها أمارة بالسوء، ولا تهوىٰ إلا ما كان مخالفاً للحق، ولا ترضى إلا بما هو باطل مسخط الله تعالىٰ لما اتبع هواها.

2. العلم بمآله إن اتبع هواها:

فمن سعىٰ في رضاء نفسه، فإن أمره يؤول إلىٰ الندامة حيث لا تنفعه، وأنه مؤاخذ بذلك، ومعاقب عليه، ومحاسب به، ومبعد من الله سبحانه بسببه.

3. إهمال العبد تأديب نفسه:

فالأصل ترك تأديب ورياضتها وتذكيرها بالوعيد، وبما ينفرها من أن تهوىٰ وترضى بمخالفته الحق، وبما يسخط مولاها تعالىٰ، ويبعدها منه، فمن أهملها في جميع أحوالها، فإهماله لها أصل يتفرع عنه عيوب وعلل.

وذلك من جهل بها وبالمآل .... وأصله إهمالها بكل حال

ثانياً: دواء الأمراض:

وذكروا أدوية لهذين العيبين ومنها:

1. إيثار العبد مولاها تعالى باتباعه مرضاته دون اتباعه هوى نفسه:

ويكون السعي فيما يرضاه سبحانه دون السعي فيما يرضيها، فإيثار المولىٰ والشغل فيما يرضى دواء لعيوب النفس، وشاف لها من عللها، والحامل للعبد علىٰ إيثاره مولاها، وشغله بما يرضاه ثلاثة أشياء:

أ. الحياء من الله تعالىٰ، هو حال المقربين، فهم يستحيون من الله تعالىٰ أن يؤثروا غيره عليه.

ب. صدق المحبة للمولىٰ تعالىٰ، فالمحبون الصادقون في المحبة يمنعهم صدقهم أن يؤثروا غير محبوبهم؛ إذ هذا قادح في حالهم، وهذا حال المحبين.

ج. الخوف، وهو حال عوام المؤمنين، فخوفهم من الله تعالىٰ يمنعهم من أن يؤثروا غيره.

2. شغل العبد بما يرضي الحق سبحانه:

والمراد بالشغل شغل القلب والجوارح بمرضاة الله تعالىٰ، فالداعي للقلب إلىٰ شغله بمرضاة الله صدق المحبة ومعرفة العظمة، والداعي للجوارح لذلك ميلها إلىٰ ما مال إليه القلب؛ إذ هو الأمير المطاع والملك المتبع.

3. تهمة العبد نفسه على الدوام:

وهذا فيما تدعيه من الأحوال، وفيما يصدر منها من الأقوال والأفعال، فإذا اتهمها لم يتبع هواها.

قال أبو حفص: «مَن لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها علىٰ مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

وقال ابن عطاء الله: «النفس مجبولة علىٰ سوء الأدب، والعبيد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بزهده عن سوء المخالفة، فمن أطلق عنانها، فهو شريكها معها في فسادها».

4. قهرها في سائر الأيام:

فالعبد مطالب بقهر نفسه في سائر أيامه، وفي كل أوقاته، فمهما رفع عنها عصاة التأديب في وقت ما استخفته، وأطلقت عنانها في ميدان المخالفة، فمن قهرها فقد أحكمها، ومن راضها فقد ألجمها، ومن أهملها فقد أهلكها وإلىٰ العدو أسلمها.

قال السلمي: «ومداواتها: ما أمر الله به من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:40]، وقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيم﴾ [يوسف:53]».

دواؤه إيثاره مولاهـــــا .... وشغله بكل ما يرضاه

وتهمه النفس علىٰ الدوام ....وقهرها في سائر الأيام

وذلك بسبب كونها أمارة وهي التي تأمر بالمخالفات، وتنفّر من الطاعات.

قال الجنيد: «الأمارة هي الداعية إلىٰ المهالك، المعينة للأعداء، المتبعة للهوىٰ، المتصفة بأصناف الأسواء، وما دامت أمارة هي ذات هوىٰ موثرة لكي غي وسوء ـ الأغيار ـ».

وإيثار الغي دوام ارتكابه، وإيثار الأغيار دوام العود إليها، وشغله بها عن الله تعالىٰ.

لأنها أمارة ذات هوىٰ .... موثرة لكل غيّ وسوىٰ

وهذه النفس الأمارة المتصفة بهذه الأوصاف يعسر عليها مخالفة هواها.

قال أبو بكر الصديق: «لرد أمس بالحبال، وربط الشمس بالعقال، ونقل ماء البحار، ونحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوىٰ إذا تمكن».

وهذه المقالة تدل علىٰ استصعاب مخالفة الهوىٰ إذا تمكن في النفس الأمارة.

وقد روي عمن عرف بالغار .... نحت الجبال قال بالأظفار

أيســـــر من خلافها هواها .... مهمىٰ يكن قد حل في قواها

قال سهل بن عبد الله: «ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس».

وجاء في سورة الجاثية من إنكار على من اتبع هواه وتوبيخه لذلك، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية:23].

أفرأيت قد أتى في الجاثيه.... إشارة إلى ما ذكرنا كافيه

ولا شيء للعبد في ترك الهوى، والعدول عن سعيه لنفسه بما ترضى أنفع من اعتصامه بالله تعالى؛ لأنه أنفع لك أيها العبد المبتلى باتباع الهوى، والسعي للنفس بما ترضى من جميع الأسباب العملية، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾[آل عمران:101]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ﴾[النساء:146].

والاعتصام بالله عروة وحصن لارتقاء جنة بها من كل سوء يتقى، ومن الأسواء: هواك الذي يضلك عن سبيل الله، والشر الذي يعتريك، وهو السعي فيما به النفس رضى.

فلتعتصم بالله من هواها .... ولتحترز من شر ما اعتراها

* * *

العيب الثاني والثالث والستون
معاشرة الأقران وصحبة الإخوان

ويذكر هاهنا عيبين:

الأول: إيثار العبد صحبة الإخوان:

والمراد المخالطة التي تردي ولا تجدي، فإن إيثارها تحدث في النفس عيوباً وعللاً.

قال الثوري: «من عاشر الناس داراهم، ومن داراهم رآهم، ومن رآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا، فلهذا أثر القوم العزلة؛ إذ هي أسلم للقلب من العلل، وأبعد للنفس من العيب المخل».

وقال ذو النون المصري: «لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة».

وقال الجنيد: «مكابدة العزلة أيسر من مداواة الخلطة».

وقال ابن عطاء الله في «حكمه»: «ما نفع القلب شيء من عزلة يدخل بها ميدان فكرة».

الثاني: إيثار معاشرة الأقران:

والأقران هم الأمثال، يقال: فلان قرين فلان أي مثله في الحال، فصحبة الأمثال توجب المساواة في الحال، وعدم الزيادة من صالح الأعمال، وربما أوجبت نقصاً ورجوعاً القهقرا، وهذا من أعظم عيوب النفس، وأكبر العلل.

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله».

قال سهل بن عبد الله: «احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبارة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين».

والمظاهرة والمعاونة بما يكون من التعاون بين الأقران فيما للنفس فيه هوى وحظ، وهو عيب من عيوب النفس قادح في الدين، فلهذا نهى الله تعالى عنه فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:2].

قال السلمي: «ومن عيوبها: ميلها إلى معاشرة الأقران وصحبة الإخوان».

من عيبها الإيثار للمعاشره .... وصحبة الأقران والمظاهره

أولاً: سبب الأمراض:

وتنشأ هذه العيوب عن أمور منها:

1 .الأنس بالناس:

فيأنس بهذا العالم عالم الملك الذي هو مستوطن الأرواح الأرضية، والأنفس الأمارة الشهوانية، والأجساد الطينية، فما دامت الأرواح والأنفس مستوطنة فيه، ومتعلقة به ومتعشقة فيه، وماثلة إليه وتأنسه به، فإنها تؤثر معاشرة أهل هذا العالم.

2 .نسيان الموت:

ويقوي ذلك نسيانها للفراق اللازم بسبب الموت الذي هو مفرق الجموع، وماحي الأصول والفروع، وهذا وصف الحمقاء. أما العقلاء فأثروا الله على سواه، ولم يوثروا المعاشرة إلا ما كان للآخرة، ولم يصحبوا من الأقران إلا من أعان على طاعة الرحمن.

وذلك من أنس بهذا العالم .... وفقد ذكر للفراق اللازم

ثانياً: دواء العيوب:

العلم بمفارقة الأصحاب:

علم العبد بأن كل صاحب لا بد له أن يفارقه، وعما قريب زائل وذاهب، ينفي عنه إيثاره لمعاشرته، واستئناسه بمصاحبته، وإذا كان ولا بد من فراق الصاحب، فالعاقل ما كان آخراً يجعله أولاً، وفي هذا راحته من الأسف وحزن الفراق.

دواؤه العلم بأن الصاحب .... مفارق وزائل وذاهب

فهذه هي الدنيا لا يدوم فيها شيء سوى ذكر الله تعالى، ومن ذلك:

أ.عش ما شئت فإنك ميت، وهو يقين لا شكّ فيه، والحكم عام لكل أحد، قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[القصص:88]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون ﴾[العنكبوت:57].

ب.حب مَن شئت فليس يثبت، بمعنىٰ اصحب من شئت فأنت مفارقه، وفي هذا تسلية للعبد عن مفارقة الأصحاب والخلان والآباء والأبناء والإخوان، وعدم الاعتداد بهم، والاستناد إليهم، وتعلق القلب بهم، والاستئناس بموالفتهم، فيبني أمره معهم علىٰ الفراق، وما يكون من الاجتماع معهم غير ثابت، ولا باق، فليكن استئناس العبد بربه، وركونه إليه وتعلقه وأنسه به علىٰ بساط مراقبته في خضرة شهوده؛ لأنه تعالىٰ غير مفارق لعبده علىٰ كل حال.

ج.اعمل ما شئت به تجازىٰ، بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾[الزلزلة:8]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيد ﴾[فصلت:46]، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[الإسراء:7]، وفي هذا ترغيب في عمل الصالحات، وترهيب من اكتساب السيئات.

قد قال جبريل لخير المرسلين ....ثلاثة لـــــــكل لب يستبين
عش الذي شئت فإنك ميت .... وحب مَن شئت فليس يثبت
واعمل بما شئت به تجــازىٰ .... إذ كـــل شخص فعله مجازىٰ

د.المال حسرة سوىٰ من واسيت، فهذا مستثنىٰ من المال الذي يكون حسرة لصاحبه، فالمال إذا واسىٰ منه صاحبه القربىٰ، وذوي الحاجة، وأدىٰ منه حق الله تعالىٰ لا يكون حسرة لصاحبه في الدنيا، ولا في الآخرة.

هـ. خلطة الناس تجلب العداوة، وأما الخلطة بالناس، فجالبة للعداوة والملامة، وكل من خالطهم قل أن يخرج منهم على سلامة.

قال أبو القاسم الحكيم: «الصداقة عداوة إلا ما صافيت، وجمع المال حسرة إلا ما واسيت، والمخالطة تخليط إلا ما داويت».

و.اقتصد في صحبة الأخيار، فالاقتصاد في الشيء سلوك الوسط فيه من غير تفريط، ولا إفراط، فليكن العبد في صحبته للأخيار على هذا الوجه، فلا إفراط في صحبته لهم إلى كشف الأسرار التي هي من وراء أستار، والاطلاع على ما سبيله أن يخفى ولا يذكر، ولا تفريط يؤدي إلى تضييع حقوق الصحبة والتقصير فيها، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

و.احترز من صحبة الأشرار: لما كانت صحبة الأشرار تردي، ولا تجدي، ويحصل لمن صحبهم الندامة والخسران وسوء العاقبة والحرمان، أمر بالتحرز منها، فمن صحب الأخيار انتظم في سلكهم، ومن صحب الأشرار حصل في شركهم.

قال سهل بن عبد الله: «احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين».

والقول الجامع في ذلك ما قاله ابن عطاء الله في «حكمه»: «لا تصحب مَن لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله».

قال الحكيم حكمة مصداقه .... في المال والخلطة والصداقه
كل عدو غير من صافيت .... والمال حسرة سوى من واسيت
والخلطة التخليط منافيها .... ما لم تكن مدارياً سفيها
فلتقتصد في صحبة الأخيار .... ولتحترز من صحبة الأشرار

قال السُّلمي: «ومداواتها: أن يعلم أن الصاحب له مفارق، والمعاشرة منقطعة».

* * *

العيب الرابع والخامس والستون
الأنس بالطاعة واستحسان أعماله

وهاهنا ذكر عيبين، وهما:

الأول: استئناس العبد بطاعته:

فاستئناسه بها استئناس بالأغيار وركون إليها، وربما دعاه ذلك إلى الوقوف عندها والقنوع بها، وهذه كلها علل قاطعة، وحجب مانعة، فالطاعات وسائل لا مقاصد.

قال الواسطي: «استحلاء الطاعات سموم قاتلة».

والاستئناس بالطاعة، ووجود حلاوتها أمران متلازمان، والذي يجب على العبد أن يكون أنسه بالله تعالى، ولذاته بمناجاته وسروره بشهوده تعالى.

الثاني: استحسان أعماله:

فرؤية العبد أعماله من بضاعته، وهذا حال من أضاف أعماله إليه، وكان مشاهداً لها، ومعتمداً عليها، وطالب الأعوض عليها، وهذه كلها أحوال ذميمة عند أهل الإخلاص والصدق في العبودية، لما فيها من سوء الأدب مع الربوبية.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: أنسها بطاعتها ورؤية استحسانها».

من عيبها استناسه بطاعته .... ورؤيته للأعمال من بضاعته

أولاً: سبب الأمراض:

وترجع الأمراض لأسباب منها:

1 .**فقدان البصيرة التي هي ناظرة القلب.**

2 .**عدم التحقيق في السريرة التي هي الباطن.**

فإذا فقد العبد بصيرته، ولم يتحقق في باطنه بحقائق التوحيد التي تنتفي معه الإثنية، ولم يبق معه لغيره أثر بالكلية رأى جميع أعمال الطاعات ليست منه على الحقيقة، وإنما هي من الله سبحانه؛ إذ هي خلقه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96].

وذاك من فقدانه البصيره .... وعدم التحقيق في السريره

ثانياً: دواء العيوب:

وتعالج الأمراض بأمور منها:

1 .**نظر العبد لعلله القادحة في أعمال طاعته.**

قال السُّلمي: «ومداواتها: أن تعلم أفعالها وإن أخلصتها فهي معلولة بأن أفعالها لا تخلو من العلل، ويعمل في إسقاط رؤية استحسانه من أفعالها».

2 .**تذكر زللـه وخطاياه.**

وهذا ينفي عنه الاستيناس بالطاعات، ولم ير عمله من جملة البضاعات؛ إذ الناظر للعلل والذاكر للزلل، فحاله يقتضي أن يحتقر ما لديه من الطاعات، ولا يعول على ما فعله من الأعمال الصالحات؛ لوجود العلل فيها، وارتكاب ذنب وزلل يفسدها وينفيها.

ثم إن العبد لا يزال ناظراً لعلله، وذاكراً لزلله إلى أن يتحقق أن ما اهتدى إليه من صالح الأعمال أن ذلك من توفيق مولاه ذي الجلال، فيشتغل حينئذٍ بما كلفه وما أولاه، ويستعين على ما فيه رضاه ويمنعه الحياء أن يطلب على عمله

الأغراض أو يقصد به الأغراض، فإن خطر بباله شيء من ذلك، فليرجع على نفسه بالملامة، ويعرض عنها كل الإعراض.

دواؤه نظـــــره لعــلله .... وذكر ما ارتكبه من زللـــــــه
حتى يرى احتقار ما لديه .... فلا يعـــــول دائماً عليـــــــه
وينتظر التوفيق من مولاه .... وليشتغل بشغـــــــل ما أولاه
ويترك الأعواض والأغراض .... ويكتسب عن نفسه إعراضا

* * *

العيب السادس والستون
موت النفس باتباع الهوى

تمكين النفس من الهوى تمكيناً يعوق العبد عما قد نواه مما يخالف هوى نفسه، ويمنعه من القيام عما فيه رضى ربّه، وهذا حال الهوى فإنه أشدّ عائق، وأعظم قاطع وحاجب، ولا شيء أعظم من الهوى إذا تمكن، فيعسر زواله حينئذٍ.

قال السلمي: «ومن عيوبها: إماتتها النفس باتباع الهوى والشهوات، فإن النفس إذا مُكِّنت من ذلك ماتت عن الطاعات والموافقات».

من عيبها تمكينها من الهوى .... حتى يعوق العبد عما قد نوى

أولاً: سبب العيب:

ويرجع المرض لأمور منها:

1. **غفلة الإنسان عن مدافعة الهوى.**
2. **هفوته عن مجانبته.**
3. **دم استيقاظه من سنة الغفلة.**

وذلك من غفلته وهفوته .... وفقده استيقاظه في حالته

والغفلة أشد من الهفوة؛ لأن الغفلة لا انتباه معها، وليس كذلك الهفوة؛ إذ قد يكون معها بعض شعور، فإذا توالت غفلة العبد وهفوته، ولم يستيقظ منها في الحالة تمكن الهوىٰ من قلبه حتىٰ يعوقه عما نواه من مخالفة الهوىٰ، والسعي في مرضاة المولىٰ.

ثانياً: دواء العيب:

ولهذا المرض أدوية منها:

1. منعها مرادها.

فهي لا تريد إلا ما وافق هواها، ولا تميل إلا إلىٰ ما يبعدها عن مولاها، فإذا منعت مما تريد وقوبلت بالحرب الشديد لم يتمكن منها الهوىٰ، ويعود ما كان لها داء دواء، وسئل الجنيد، فقيل له: متىٰ يكون داء النفس دواؤها؟ فأجاب بأن قال: إذا خالفت النفس داؤها دواؤها».

وقال سهل بن عبد الله: «ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوىٰ».

2. ترك العبد لما له استعدادها:

وهو لا يستعد إلا لما لها فيه هوىٰ وغرض فاسد، فينبغي للعبد الناظر في نجاة نفسه الباحث علىٰ خلاصها أن يترك كلما استعدت له، ولا يميل إلىٰ شيء من ذلك أبداً.

3. أخذها بالحزم والإكراه:

والحزم إفراغ القوة في الأمور، وعدم التراخي فيه، وهكذا يكون العبد في مجاهدة نفسه، وإخراجها عن مألوفها، ومنعها من معتادها.

والإكراه: عدم المطاوعة، فإكراه النفس حملها علىٰ أمر لم تطاوعك عليه، ولا تسعف فيه.

5.اجتناب جميع الملاهي:

وهي التي تلهي العبد عما يعنيه وكلف به، فالنفس تميل إلى ذلك؛ لما لها فيه من الحظ والهوى، فجنبها مواضع الملاهي ومقاربة أهلها، فإن لم تجنبها لذلك، فلا تأمن من تمكن الهوى.

دواؤه في منعـــها مرادها .... وتركه لما له استعدادها

وأخذها بالحزم والإكراه .... مع اجتناب جملة الملاهي

قال أبو حفص الحداد: «إن النفس مهما مالت إلى أمر من الأمور، فليأخذ العبد خلافه»؛ إذ هي لا تميل بطبعها النفساني إلا إلى ما له هواها، ولها فيه حظ وشهوة، وما كان كذلك، فلا خير فيه، وليس لعاقل أن يصطفيه.

قيل لأبي حفص: بما يستجلب صلاح النفس ؟ قال: مخالفتها لأنها موضع كل آفة الأمن من مكر الشيطان».

قال أبو حفص هو الحداد .... كلمة لمثلـــنا تـراد

مهما تمل لأمر خذ خلافه .... لأنها موضع كل آفه

قال السلمي: «ومداواتها: منعها من مراداتها، وحملها على المكاره، ومخالفاتها فيما تطلب، فإن ذلك الذي يميت عنها شهواتها».

* * *

العيب السابع والستون
أمن مكر الشيطان

الأمن من الوسواس الذي أمر ﷺ بالاستعاذة منه عيب من عيوب النفس، وكذلك الغفلة عما للوسواس من البأس، فمن غفل عن بأسه الشديد، ولم يدافعه في كلِّ يوم جديد، فذلك من علامة الشقاء

فالوسوسة الصوت الخفي، ويكون من شيطان الجن والإنس. قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاس. مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاس﴾ [الناس:6]، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالاستعاذة من الوسواس، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس. مَلِكِ النَّاس﴾ [الناس:2].

قال السلمي: «ومن عيوبها: أن تأمن من مكر الشيطان وتسويله ومكره».

من عيبها الأمن من الوسواس .... وغفلة عما له من بأس

وإذا أمن العبد من الوسواس، وغفل عن مدافعته لما به من البأس، وكان آخذاً به مع الأنفاس، كان ذلك علامة على الشقاء، والعياذ بالله تعالى.

إذ أخذه به بلا انتهاء .... وذلك من علامة الشقاء

أولاً: سبب العيب:

ويرجع المرض لأمور منها:

1. **ضعف إيمانه وفساد اعتقاد.**

حتى يسلم أمره لعدوه ويرضخ لوساوسه.

2. **ترك الالتجاء إلى الله تعالى.**

فلا بد من نصرة الله تعالى في رد مكائد الشيطان ودفع وسواسه.

ثانياً: دواء العيب:

1. صحة إيمان العبد بالله تعالى:

وبما جاءت به رسله عليهم السلام من العقائد التعبدية، والأمور الأخروية ينفي عنه علة الوسواس؛ لأن القلب المغمور بنور الإيمان لا يجد الشيطان إليه سبيلا؛ إذ من صح إيمانه، وأشرقت أنوار الإيمان باطنه ثبت قدمه في مركز العبودية.

دواؤه بصحة الإيمان .... كما أتى في محكم القرآن

قال أبو سليمان: «إذا خلص العبد انقطعت الوساوس والرياء».

فصحة الإيمان مانع من الشيطان ووسوسته.

2. التوكل والإخلاص:

فمَن صحّ توكله على الله تعالى، وإخلاصه منعه من الضلال ومتابعة الشيطان.

إذ منع المولى الكريم ذو العلا .... من الضلال مؤمناً توكلا

وإذا ضلّ العبد طريق الرشد، واتبع طريق الغي، ذهل عن الحق حتى إذا صحّ إيمان العبد، وتحقَّق العبد في مقام التوكل منعه تعالى من الضلال، وأذهب عنه الذهول الكائن منه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:3].

3. التضرع إلى الله تعالى:

فعلى العبد أن يلجأ إلى الله تعالى لدفع وساوس الشيطان؛ لأن القادر على نصر عباده على أعدائهم.

قال السلمي: «ومداواتها: تصحيح العبودية بشرائطه والتضرع إلى الله في أن يمنّ عليه بذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الحجر:42]».

فإن لم ينصره الله تعالى ضل السبيل ووقع في الغي والهلاك، وهكذا يفعل الله بحزب الشيطان، و﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:104].

وجعل الغي لمـــن تولى .... شيطانه بشركه فزلى

وصار في عبادة الشيطان .... مع ظنه عبادة الرحمان

وعلى العاقل الاعتصام بالله تعالى حفظه من الوقوع في الغي والزلل والوسواس، ومجنب للعبد من جملة الأدناس، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران:101]، والمراد بالأدناس: المعاصي، والمخالفات لأنها تدنس العبد.

فلتعتصم بالله من وسواس .... مجانباً لجملة الأدناس

* * *

العيب الثامن والستون

التظاهر بالصلاح

التظاهر بالصلاح أي الصلاح الموضوع وهو الصلاح المتروك الذي لا يعتد به لخلل.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الترسم برسم الصلاح من غير مطالبة القلب بالإخلاص فيما ترسم به من الصلاح».

من عيبها الإظهار للخشوع .... وبالصلاح الظاهر الموضوع

دون تحقّق وذا نفاق .... صاحبه ليس له خلاق

الخشوع: هو الخوف الدائم اللازم للقلب.

وسئل الجنيد عن الخشوع: «تذلل القلوب لعلام الغيوب».

واتفقوا على أن محله القلب؛ لأنه من أعمال القلوب، ويظهر أثره في الظواهر، فإذا كان العبد يظهر خشوعه، فيتحلى به في ظاهره، ولم يتحقق به في باطنه، فهو عيب من عيوب النفس، ويعدونه من النفاق، وصاحبه من الذين لا خلاق لهم، وكذلك صلاح الظاهر دون الباطن، فهو أيضًا من عيوب النفس، وحال من لا خلاق له.

قال السري: «من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى».

أولاً: سبب العيب:

فقدانه للصدق والإخلاص.

فيتظاهر على الناس بما لم يعط؛ لخداعهم وتحصيل أغراض دنيونية.

ثانياً: دواء العيب:

ويعالجة بأمور منها:

1. **ترك الخشوع الظاهر بقدر ما يرى من خشوع باطن.**

قال السلمي: «ومداواتها: ترك الخشوع الظاهر إلا بقدر ما يرى من خشوع الباطن في قلبه وسرّه».

2. **الصدق.**

3. **الإخلاص.**

وهما تأكيد للأولى وزيادة، فيدفعان عن النفس ما يلتبس به من عيبها الذي هو إظهار الخشوع دون تحقق به في الباطن، ويدفعان علّة إظهار الصلاح في

الظاهر مع فساد الباطن، وكذلك ترك جميع المعاصي والمخالفات، ففعله في العلة والعيب ما يفعله الصدق والإخلاص.

والصدق: عبارة عن إفراد الوجهة إلى الله تعالى، والتنزه عن طلب الأعوان، وقصد الأغراض، وقيل الصدق موافقة السر النطق، وقيل الصدق صحة التوحيد مع القصد.

والإخلاص: عبارة عن تخليص الأعمال من الشوائب القادحة فيها، ولا يشترط فيه ترك الأعوان على الأعمال، فهذا الفرق بين الإخلاص والصدق، قال ذو النون المصري: «الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه، والصدق لا يتم إلا بالإخلاص والمداومة عليه».

دواؤه في الصدق والإخلاص .... وتربكه لجملة المعاصي

وحال مَن تشبه بما ليس فيه، وتحلى بحال حاله لا يقتضيه كلابس ثوب زور.

ومن أظهر من نفسه الخشوع، ولم يتحقق بمعناه في باطنه، فقد تشبه بما لا يملك، وهو شبيه بلابس ثوب من زور، فالظاهر أنه يملكه، وهو في الحقيقة لغيره، وهذا الحكم يجري في كلِّ من أظهر حالاً، ولم يتحقق بمعناه في الباطن، وهو نوع من أنواع النفاق.

فعن أسماء رضي الله عنها: أنّ امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة، فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال ﷺ: المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[1].

---

(1) في صحيح البخاري 7: 35.

إذ مَن تشبه بما لا يملك .... كلابس لثوب زور يشرك
جاء بمعناه الرسول الصادق .... فاعمل به إن كنت عبداً صادق

* * *

العيب التاسع والستون
قلة الاعتبار

إذا لم يعتبر العبد ما عامله به جل وعز من عظيم حلمه، وكريم عفوه، عما اقترفه من الأوزار، وما فعله من الذنوب العظام الكبار، فذلك عيبٌ من عيوب النفس.

قال السلمي: «ومن عيوبها: قلة الاعتبار بما يراه من إمهال الله إياه في ذنوبه».

من عيبها قلة الاعتبار .... بحلم مولانا عن الأوزار

أولاً: سبب العيب:

الاغترار بالحلم:

ينشأ عنه فقد النظر للعلم، وذاك داع إلى غلبة الجهال الذي هو سبب عدم حفظ الأدب، والذي يجب على العبد أن لا يغتر بحلم الله تعالى، فشهود العبد للوصفين، وتقلبه بين الحالين، يحول بينه وبين الأمر المؤدي إلى الخسران، والإياس المؤدي إلى الكفران، ولهذا قرن الله تعالى في كتابه العزيز بين ما يدل العبد على حلمه، وما يدل على عدله، فقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيم. وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيم﴾[الحجر:50].

وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[غافر:3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم﴾[الأعراف:167]، وكذلك لا

يزال العبد معتقداً أن الله تعالىٰ عالم بجميع أفعاله مطلع علىٰ جميع أحواله مراقب له في جميع أعماله، وإذا كان كذلك لم يفقد نظره لعلمه تعالىٰ، ولا يغتر بحلمه.

وذا من اغتراره بحلمه .... وفقده نظره لعلمه

ثانياً: دواء العيب:

1 .الخشية من الله تعالى:

فإنها تمنع العبد من الورود علىٰ سيء الأعمال، ومن التحلي بدميم الأحوال، فإذا رأىٰ العبد في نفسه عيباً من العيوب، أو جرأة علىٰ اكتساب الذنوب، فليلزم الخشية من ربه التي هي سبب اختصاصه وقربه، ومتىٰ ما أتىٰ عيباً، أو افترق ذنباً، فلا يظن أن الله تعالىٰ أهمله.

دواؤه خشـــيتيه ليربيه .... لكي ينال من عظيم قربه

وأن يرىٰ تأخيره إمهال .... ولا يـــــــظن أنه إهمال

بل يعتقد أن الله تعالىٰ أمهله إلىٰ أجل معلوم، وأخره إلىٰ سؤال حساب محتوم.

فلا شك من سؤاله في الحافرة عما عمل خيراً كان أو شراً، وبعد ذلك جزاؤه في الآخرة عن فعله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزلزلة:7]، وقال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾[غافر:17].

لا بد من سؤاله في الحافره .... وبعده جزاؤه في الآخره

فلا بد من سؤاله في القبر، وبعد ذلك وقوع الحساب في الدار الآخرة والجزاء، فمن الناس من يجازىٰ بذنبه، ومنهم مَن يعفو عنه بفضله.

فـإن يكن بذنبه يجازىٰ .... فـويله وكـلّ شـرّ حـازا

وإن يكن يـرحمه مـولاه .... ففـضله وجـوده أولاه

ولا شك أن من جوزي بذنبه حاز جميع أنواع الشرور، وكان حظه الويل والثبور، ومن واجهه تعالىٰ بفضله، فقد رحمه مولاه، وفضل وجوده أولاه، فالمجازات بالذنب عدل، والموالاة بالفضل والجود منة وفضل، فحقّ العبد أن يخاف عدله تعالىٰ، ويرجو فضله.

فليخف العبد قيام العدل .... وليرتجي أيضاً نوال الفضل

وإنما يكون بالخوف لقيام العدل؛ لما في الخوف من حفظ رتبة الأدب، والعدل علىٰ القيام بالحقوق اللازمة للعبد، ولهذا كان الخوف غالب أحوال المريدين، وسبيل السالكين، ومنتهىٰ أمل العارفين.

قال أبو حفص: «الخوف سوط الله تعالىٰ يقوم به الشاردين عن بابه»، وإنّما أمر برجاء نوال الفضل، لما في ذلك من حسن الظن بالله تعالىٰ.

ولا بد وأن يكون هذا الرجاء مقارنا بالعمل، قال ابن عطاء الله: «الرجا ما قارنه عمل، وإلا فمو منية».

قال معروف الكرخي: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة مَن لا يطاع جهل وحمق».

وقال الحسن: «إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتىٰ خرجوا من الدنيا، وليست لهم حسنة، يقول أحدهم: أحسن الظن بربي، كذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِين﴾ [فصلت:23]».

وعن شداد بن أوس ﷺ، قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1].

ومن دان نفسه يقول حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا».

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقياً حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه»[2].

والعدل من صفات الجلال، فإذا تجلى الحقّ جل جلاله على عبده بصفات جلاله وقابله بعدله، فصغير الذنب كبير، وهذا فعله تعالى لمن أبغضه، وإن تجلى عليه بصفات جماله، وواجهه بفضله، فكبير الذنب صغير، وهذا فعله تعالى بمن أحبه.

قال ابن عطاء الله في «حكمه» حيث قال: «لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

إذ لا صغيرة إن أتاك العدل .... ولا كبيرة إن أتاك الفضل

قال يحيى بن معاذ: «إن وضع عليهم عدله، لم تبق لهم حسنة، وإن نالهم فضله، لم تبق لهم سيئة»، ومن دعائه: «إلهي إن أحببتني غفرت سيئاتي، وإن مقتني لم تقبل حسناتي».

---

(1) في سنن الترمذي 4: 638، وحسنه.

(2) ينظر: سنن الترمذي 4: 638.

وما أحسن قول أبي الحسن الشاذلي: «واجعل سيئاتنا سيئات مَن أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضرّ مع الحب منك».

وفي مناجاة ابن عطاء الله التي ختم بها «حكمه»: «إلهي كم من طاعة بنيتها، وحالة شيدتها، هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك».

2. الإمهال ليس إهمال:

ولينتبه العبد أن الإمهال ليس بإهمال:

وقال شاعر مقالاً حسناً .... لما ذكرنا موضحاً مبيناً

قد غرّها إمهال خالقها لها .... لا تحسبن إمهالها إهمالها

لما كان الحق جل جلاله لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب أمهل العصاة من الخلق إلى يوم لا ريب فيه، فإمهاله لخلقه ليس بإهمال، والنفس الأمارة قد تغترّ بالإمهال، فتحسبه إهمالاً، وهذا من غلطها، وباطل حسبانها.

قال السلمي: «ومداواتها: دوام الخشية، وأن يعلم أن ذلك الإمهال ليس بإهمال، فإن الله تعالى مسائله عن ذلك ومجازيه عن ذلك إلا أن يرحمه الله، فإن الاعتبار لأهل الخشية، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات:26]».

* * *

العيب السبعون

إفشاء السر

الصاحب أمين على سرّ صاحبه، فحفظ الأمانة واجبٌ، وصيانةُ السر من حقوق الصاحب، فمَن أفشى سرّ صاحبه الذي أمّنه عليه، فقد خانه، وترك الواجب عليه، وهذا عيبٌ من عيوب النفس، وعلّة فيها.

قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبصَار ﴾ [إبراهيم:42].

قال السلمي: «ومن عيوبها: محبتها لإفشاء عيوب إخوانه وأصحابه».

من عيبها إفشاء سر الصاحب .... وهي خيانة وترك واجب

ثانياً: سبب العيب:

وذاك من خساسة ونقص .... فاعله المذموم وهو يغضي

1. **خساسة الفاعل.**

2. **نقص الفاعل.**

فلا شكّ أنّ إفشاء سرّ الصاحب دليل على خساسة فاعل ذلك ونقصه؛ إذ الوفاء يقتضي حفظ الأسرار، ولهذا قيل: «قلوب الأحرار قبور الأسرار، فما أفشى السر كريم، ولا أباح به حليم»، وحفظ السر من شأن أهل الكمال وأقوياء الرجال.

ثانياً: دواء العيب:

ويرجع دواء المرض لأمور منها:

مراجعة نفسه بما يحبه لها يحبه لأخيه:

فرجوع العبد لنفسه، وما يريده لها من الخير يحبه لجنسه من المؤمنين، ينفي عنه إفشاء سر صاحبه؛ لأنه كما لا يريد إفشاء سره، كذلك لا يريد إفشاء سر غيره، ومن شروط كمال الإيمان أن يحب المؤمن لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه، فعن أنس ﷺ قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]، وضابط هذا أن ينظر الإنسان في نفسه، فما يحبُّه لها يحبُّه لصاحبه، ولجميع المؤمنين، وما يَكرهه لها يكرهه لهم.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يرجع في ذلك إلى نفسه، فيحب للناس ما يحب لنفسه»

دواؤه رجوعه لنفسه .... فما يرد لها يرد لجنسه
إذ ذاك شرط المؤمنين قد أتى .... وصح في معنى حديثٍ ثبتا

* * *

العيب الحادي والسبعون
الرضى عن النفس في العمل

الرضى عن نفسه فيما تقوم به من عمل، بلا طلب زيادة في الخيرات.

وقد قيل: «عدم الزيادة في العمل الصالح من العقوبات المعجلة».

وهي عند أهل السلوك وقفة، والوقفة عندهم حرام، وهي أيضاً من مبادئ الحجاب، وسلم إلى القطيعة.

قال بعضهم: «مَن لم يكن في زيادة، فهو في نقصان، ومَن كان في نقصان، فالموت خير له».

---

(1) في صحيح البخاري 1: 12.

قال السُّلمي: «ومن عيوبها: ترك الاستزادة فى نفسه فى أفعاله وأقواله عن الاقتداء بالسلف».

من عيبها رضاء عنها في العمل .... وعدم ازدياده بما فعل

أولاً: سبب العيب:

الهمة الخسيسة هي التي ترضى بأسافل الأمور دون أعاليها:

فتنحط عن الرتبة العلية، وتقنع بالرتبة الدنية، ولذلك كانت لا تطلب الزيادة في أعمال الطاعات، ولا تحرص على الترقي إلى أعلى الدرجات، وهذه الهمة هي همة ذوي الأرواح الأرضية، والنفوس الحيوانية.

وذلك من همته الخسيسة .... وتركه للحالة النفيسة

ثانياً: دواء العيب:

ويرجع علاجه لأمور منها:

1. **طلب الزيادة من الأعمال الصالحات.**

2. **الحرص على الترقي في الدرجات:**

فيبحث على الأسباب والوسائل التي تقتضي الترقي إلى أعالي الدرجات ورفيع المنازل والمقامات، فينفي عن النفس ما تجده من الكسل الحامل على عدم الزيادة من العمل.

3. **طلب الفائدة الدينية:**

وذلك بالبحث والحرص على إقامة الوظائف الشرعية يزيل عن الهمة خساستها، ولا تترك الحالة النفيسة لنفاستها.

دواؤه في طلب الزيادة .... بالبحث والحرص والاستفادة

ولا شك أن النفس إذا سمح لها في عدم الزيادة مالت إلى النقص، ثم إلى الترك بالكلية، وهذا من حيلها وخدعها، والحزم أولى، وإلزامها الثبات على العمل أجمل لها.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «من لم يكن في زيادة فهو في نقصان».

قال علي المرتضى العدنان .... مَن لم يزد فهو في نقصان

وثبات المرء في أعماله يقتضي تجددها ما دام ثابت فيها، وإذا تجددت الأعمال حصلت الزيادة فيها وتضعفت.

وبيان ذلك: أن الإنسان إذا عمل عملاً اليوم مثلاً، وثبت عليه إلى غد، ثم عمله من الغد، وثبت فيه إلى بعد غد، وعمله أيضاً، فكان العمل الثاني في اليوم الثاني زيادة في عمله الأول مضعفاً له، والعمل الثالث في اليوم الثالث زيادة في عمله الثاني ومضعف له، وهكذا ما دام الثبات في الأعمال وتجددها، فتحصل فيها الزيادة، ويحصل أيضا تضعيف العمل بإعادة ما فعله اليوم من الغد.

قالوا: ثبات المرء في أعماله .... زيادة لدينه في أفعاله

لأن ما أتى به من الغد .... مضعف لما مضى من عدد

* * *

العيب الثاني والسبعون
تحقير المسلمين

الاحتقار للمسلمين والتكبر على العالمين، ولا يصحّ أن يتكبر عليه، ولا يحتقر، والتكبر واحتقار المسلمين خصلتان مذمومتان ما تخلق بها كريم، ولا اتصف بهما عفيف في الناس عظيم، والتكبر واحتقار المسلمين نتيجة الكبر.

قال السلمي: «ومن عيوبها: تحقير المسلمين والترفع والتكبر عليهم».

من عيبها احتقاره للمسلمين .... وكبره على جميع العالمين

فعن مالك: «بلغني أنّ أوَّل معصية كانت الحسد والكبر، حَسَد إبليس آدم وتكبر عليه، ومن اتصف به وكفى به ذماً».

ولقد استعاذ كليم الله تعالى موسى ﷺ فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر:27].

وما زال أَهل التقى والفضلاء الحق يصرون على سلامة قلوبهم من العلل، وتطهير أنفسهم من العيوب، وأسباب الزلل يحذرون من الكبر؛ لأنه من أعظم عيوب النفس، ومن أشد أمراض القلوب، وأعظم حاجب، وقاطع عن الله تعالى، ومانع من الدخول إلى حضرته العلية.

ثم أقل ما يهيج منها على صاحبها أربع آفات:

أ.حرمان الحق، وعمى القلب عن نعرفة آيات الله تعالى، وفهم أحكام الله سبحانه، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[الأعراف:146]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:35].

ب. المقت والبغض من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:23].

ج.الخزي والنكال في الدنيا، قال حاتم: «اجتنب الموت على ثلاثة: الكبر، والحرص، والخيلاء، فإن المتكبر لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله وخدامه، والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحرجه إلى كسرة أو شربة، ولا يجد لها مساغاً، والمختال لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره».

وقيل: «من تكبر بغير حق أورثه الله ذلاً بحق».

د.النار والعذاب في العقبي، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمَن نازعني واحداً منهما، قذفته في النار»[1].

والمعنى أنّ العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص به، ولا تنبغي لأحد غيره، كما أن رداء الأنس إزاره يختصّ بهما لا يُشارك فيهما، وإن خصلة تفوتك معرفة الحق، وفهم آيات الله تعالى، وأحكامه التي هي أصل الأمر كله، ثم تثمر لك المقت من الله تعالى، والخزي في الدنيا، والنار في الآخرة، لا يسع لعاقل أن يغفل عن نفسه، فلا يصلحها بإزالتها بالحذر والتحرز، والاستعاذة بالله تعالى من ذلك.

وحقيقة الكبر: رؤية شفوف النفس على خلق الله تعالى، وينشأ عن هذا احتقار المسلمين، فالكبر أصلٌ ينشأ عنه خبائث كثيرة، وهوس الصفات القلبية يظهر أثرها في الظواهر: كالخيلاء، والغلظة، والفضاضة، والغضب، ونحو ذلك، فمن اجتنب الأصل اجتنب الفروع.

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأسباب منها:

1. **وصف الخيلاء.**

2. **التجبر.**

وذاك من جهالة النفس .... وسوء فعل موجب للبس

---

(1) في سنن أبي داود4: 53، وسنن ابن ماجة2: 1397.

ثانياً: دواء العيب:

وله أدوية منها:

1. الرجوع إلى وصف التواضع:

فإن الرجوع إليه ينفي عن النفس علة الكبر، واحتقار المسلمين؛ إذ من اتصف بوصف، وتحلى به عن ضده، والتواضع من أخلاق المؤمنين، وأوصاف المتقين، والتواضع وصف يلابس القلب، ويكسبه ذلاً وافتقاراً، وانكساراً واحتقاراً للنفس، وهذه أوصاف العبد، كما أن الكبرياء من أوصاف الربوبية.

والتواضع الحقيقي ما قاله ابن عطاء الله في «حكمه»: «هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته، وتجلي صفاته».

قال ذو النون المصري: «من أراد التواضع، فليوجه نفسه إلى عظمة الله تعالى، فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرق التواضع فيه لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى».

2. احترامه لهم على تواضعه لهم:

فعن المعرور بن سويد ﷺ، قال: «لقيت أبا ذر ﷺ بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلاً فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[1].

---

(1) في صحيح البخاري1: 15.

دواؤه الرجوع للتواضع .... ثم احترام مذنب وطايع

فمن يصح أن يحترم ويتواضع له، وهو كل من تدين بدين الإسلام كبيراً كان أو صغيراً، مذنباً كان أو طائعاً، فاحترام الكبير، والمطيع، والحر، والتواضع لهم من حيث هم، وللمذنب، والصغير، من حيث أنت أيها المحترم، ولا يصح أن يعامل الكافر بما يعامل به المسلم من الاحترام والتواضع؛ لأن الله تعالى يقول في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ الفتح:29]، إلا مَن يرجى خيره من الكفار، ويطمع في إسلامه، فليعامل بما يعامل به المؤلفة قلوبهم.

من كل من يدين بالإسلام .... كان كبيراً أو بلا احتلام

فمن نتائج التواضع لعبيد الله تعالى، فمن ذلك العفو، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف:199]، ومن ذلك الاستغفار للمؤمنين والمشاورة معهم: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران:159].

وربنا نبيه قد أمره .... بالعفو والغفران والمشاوره

ونظر رسول الله ﷺ للكعبة، وتعظيمه لها مقدمة من عظيم حرمة المؤمنين عند الله تعالى، وعظيم كرامتهم لديه، وأن الكعبة، وإن كانت معظمة عند الله تعالى ومحترمة لديه، فالمؤمنون أعظم عنده تعالى حرمة وأكرم وفائدة؛ لذا فإن التواضع للمؤمنين، والعفو عليهم، والاستغفار لهم، والاستشارة معهم، وخفض الجناح لهم، وتعظيم حرمتهم، وإكرامهم أمور استعملت لمستحقيها، والفاعل ذلك فعله لأهله، ووضع الأشياء في محلها؛ إذ من عظمه الله تعالى واجب تعظيمه، ومن أكرمه لازم إكرامه.

فعن ابن عمر ﷺ: «رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة، ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيراً»[1].

ونظر الرسول نحو الكعبه .... معظماً لما لها من حرمه

فقال: ما للمؤمنين أعظم .... عند الإله حرمة وأكرم

والسبب الذي من أجله كان المؤمنون به أعظم حرمة عند الله، وأكرم لديه، وذلك من وجوه:

أ.أنها أول بيت وضع للناس.

ب. جعلها الله تعالى بيته، وأضافه إليه.

ج.أنها مأوى رسله عليهم الصلاة والسلام.

والمؤمنين يزيدون على الكعبة بحرمتين: الدم والمال، فعن ابن عباس ﷺ: «أنه نظر إلى الكعبة، فقال: ما أعظم حرمتك، وما أعظم حقك، وللمسلم أعظم حرمة منك، حرم الله ماله، وحرم دمه، وحرم عرضه وأذاه، وأن يظن به ظن سوء»[2].

إذ حرم الله لـديك واحـده .... والمؤمنون باثنتين زائـده

دمـــــاً ومالاً ثم ظن سوء .... فـانظر لهذا وبخير فأتو

فمن كان لبيباً ويقظاناً يعلم مضاره فيتجنبها، ومنافعه فيأتيها، فمن جملة المنافع احترام المؤمنين في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتواضع لهم، ومن جملة المضار التخلق بالأخلاق الفرعونية التي منها الكبر والفضاضة والغلظة المنافية

---

(1) في سنن ابن ماجة5: 85.

(2) في مصنف ابن ابي شيبة14: 250.

للتواضع، وكذلك التخلق بأخلاق الشياطين الداعية إلى الشرور، وفعل كل منكر، ولهذا نهى عن التخلق بها.

واللبيب: هو الكيس الذي ليس بغبي، واليقظان: هو المتنبّه الذي ليس بغافل.

ولكن لبيباً حازماً يقظاناً .... ولا تكن فرعوناً أو شيطاناً

قال السلمي: «ومداواتها: الرجوع إلى التواضع واعتماد حرمة المسلمين، فإن الله تعالى يقول لنبيه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران: 159]، فيعلم أن الكبر الذي أوقع إبليس فيما أوقعه فيه حتى قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف:12]».

* * *

العيب الثالث والرابع والسبعون
الكسل والقعود عن الطاعة

ويُذكر هاهنا عيبين:

الأول: الكسل:

وهي حالة تلابس القلب، تسلبه وصف النشاط، وينشأ عن ذلك ركود الهمة، والتقاعد عن أداء الواجبات، والتراخي في أداء المفروضات، وقد ذمّ الله تعالى قوماً وصفوا به، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا﴾[النساء:142]، فالكسل مذموم، وصاحبه ملوم، وهو من أوصاف المنافقين، كما ذكر الله تعالى في الآية.

وعده الله تعالىٰ من العيوب المهلكة، وتنشأ عنها أمراض توهن القلب، وتضعف الروح.

الثاني: التقاعد عن الطاعات:

وعدم النشاط إلىٰ أداء الواجبات، وهو مسبب عن الكسل، وناشيء عنه، وأي عيب أعظم من الكسل، والقعود عن أداء حقوق المولىٰ المعبود مَن فضله ممدود، عم كلّ موجود.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الكسل والقعود عن الأمر».

من عيبها الكسل والقعود .... عن أمر مولىٰ فضله ممدود

أولاً: سبب الأمراض:

وترجع الأمراض لأمور منها:

1. الجهل بنعم الله تعالى عليه:

فجهل العبد بما عنده من آثار فعل مولاه الذي أمّده به وأنواع نعمه التي أنعم بها عليه.

2. فقد التوجه إليه تعالى:

وأعرض عن الله تعالىٰ، وترك ما أمره به من أداء حقوقه، وإن أتىٰ بشيء من ذلك كان علىٰ تكاسل، وتقاعد، وعدم نشاط.

وذلك من جهل بما لديه .... وفقده توجهاً إليه

ثانياً: دواء الأمراض:

العلم بأنه مأمور من جهة الحق:

قال السلمي: «ومداواتها: أنه يعلم أنه مأمور من جهة الحق؛ ليحمله فرح ذلك على النشاط، ولذلك سمعت جدي إسماعيل بن مجيد يقول: التهاون بالأمر من قلّة المعرفة بالآمر».

وإذا كان العبد ناظراً لربه، ومتوجهاً إليه بسره وقلبه، وعلم قربه منه، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، نشطت نفسه لأداء حقوقه قياماً بأوصاف ربوبيته تعالى، فاستشعار القرب منشط لفعل القرب، فكلَّما زاد العبد معرفة بالله تعالى، وتحققوا في مقام قربه زاد نشاطاً في أداء حقوقه، ومحبة لإجابة داعي المولى تبارك وتعالى، كما أن من أعرض عن الله تعالى، وجهل العظمة، ولم يعرفه حق المعرفة، تهاون بأداء الحقوق، وتكاسل عنها.

دواؤه نظيره ليربيه .... لتنشط النفس بذكر قربه

قال ابن نجيد: «تهاون العبد بأمر ربه؛ لفقده عرفانه من قلبه».

وهذه مقالة حسنة المباني متجهة محققة المعاني، مبنية لا خفاء فيها.

ولا شكّ أن العبد إذا خلى قلبه من معرفة الله تعالى، وفقد ذلك من قلبه، تهاون بأمر ربه؛ لأن القيام بالأمر بحسب معرفة الأمر، وما هو عليه من أوصاف العظمة والكبرياء.

فابن نجيد قال: قولا حسناً .... متجهاً محققاً مبيناً

تهاون العبد بأمر ربه .... لفقده عرفانه من قلبه

* * *

العيب الخامس والسبعون
فعل الخير ظاهر والشر سراً

إذا كان العبد يظهر فعل الخير من التنسك والتعبد والصلاح وغير ذلك من أفعال الخير، وكان في باطنه على غير ذلك، فهو عيب من عيوب النفس العظيمة، ومن أخلاقها وأحوالها الذميمة، وهذا الوصف من أوصاف المنافقين، فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا﴾[النساء:142].

والمؤمنون حالتهم بخلاف ذلك، فبواطنهم منطوية على ما ظهر في ظواهرهم من الصلاح، والخير، ولربما كان ما انطوت عليه بواطنهم من الخير والصلاح أتم مما يظهر على ظواهرهم، كل ذلك خوفاً من الوقوع في الرياء الذي هو الشرك الأصغر.

قال السلمي: «ومن عيوبها: أن تتزيّن بزي الصالحين فتعمل عمل أهل الفساد».

من عيبها إظهار فعل الخير .... وفعله بعكسه في السرّ

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. غلبة الرياء:

2. حبه المدح من الناس والثناء منهم:

ولا شك أن مَن أحب ذلك من الناس توجه إليهم بالأسباب التي يمدحونه، ويثنون عليه من أجلها، وهذا حال من أقبل على الخلق، وأعرض عن

الخالق، فصير أعماله لأجل من أقبل عليهم، فهو من الذين اتخذوا من دون الله أرباباً، فهم فيه متشاكسون.

وذلك من غلبة الرياء .... وحبه للمدح والثناء

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأدوية منها:

1. إصلاح السريرة:

والمراد بالسريرة هنا القلب، فإنه قد يعبر عنه بالسريرة تارة، وتارة يعبر عنها بالباطن بضرب من المجاز، وإصلاحه بتصفيته من الأخلاق الذميمة، ومن كل شائبة قادحة في الأعمال، وقادحة في التوحيد، فإذا أصلح العبد سريرته طهرت من جميع الشوائب، والقوادح في توحيده، وفي أعماله، وأحواله، ومن ذلك الرياء.

2. توبة يمحو بها الجريرة:

والمراد هنا التوبة النصوح، والرياء، وتوابعه هي من الجريرة التي تمحو بها التوبة.

3. علم العبد بأن ربّه تعالى يراه:

ومراقب له في جميع أحواله وحركاته وسكناته، فإذا علم العبد ذلك راقب مولاه، وأقبل عليه وأعرض عمَّن سواه، فتكون أحواله مراقبة الله تعالى، وكل مناف لعلة، فهو دواء لها.

قال السلمي: «ومداواتها: ترك زينة الظاهر إلا بعد إصلاح الباطن، فإن تزين بزينة قوم اجتهد في أن يوافقهم في أخلاقهم وأفعالهم كلها وبعضها».

دواؤه إصلاح السريره .... وتوبة يمحو بها الجريره

والعـــلم أن ربه يراه .... في كل حال دائماً ينهاه
وذلك من غلبة الرياء .... وحبـه للمدح والثناء

والقلب الفاجر هو الخلي من معرفة الله تعالى، المحجوب عن شهود عظمته وكبريائه، المشحون بالخبائث، وأنواع الشرور، المتخلق بالأخلاق الإبليسية، فكفى بالعبد شراً أن يكون قلبه بهذه الأوصاف.

قال الرسول وهو قول ظاهر .... كفى الفتى شراً بقلب فاجر
وهو يرى خشية رب النـاس .... للخلق بالرياء والالتبـاس

قال أبو عثمان الحيري: «زينة الظاهر مع فجور يورث الإصرار».

لا شك أن من أظهر الخشوع، وأبطن الفجور، فإن ذلك يورث أضراراً في الباطن، ثم ذكر من ذلك الأضرار طمس الأضواء والأفكار، والمراد بالأضواء هنا نور المعرفة الداعية إلى إخلاص الأعمال، وتصفية الأحوال من الشوائب والأكدار.

قال أبو عثمان أعني الحيري .... خشـــوع ظاهر مع الفجور
لباطن يـــــورث الإصرار .... فيطمس الأضواء والأفكارا

فإظهار الخشوع مع الفجور هو محض الخبث والنفاق.

وإظهار الخشوع مع الفجور، فهو باطل محض، ونفاق خلاص، وكلاهما مضر في الدين والأخلاق، فالضر في الدين لخروجه عن سنن المهتدين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى، والضرر في الأخلاق، لعدم اتصافها بالحميدة؛ إذ ليس من الديانة الإيمانية الرياء في الأعمال، وليس من الأخلاق الحميدة الاتصاف بوصف النفاق.

وذلك محض الخبث والنفاق .... يضر في الدين وفي الأخلاق

العيب السادس والسبعون
تضييع الأوقات فيما لا يعنيه

أن يضيع العبد أوقاته، ولا يتدارك ما قد فاته من أداء الواجبات، ونوافل الخيرات، وأنواع الرغبات شغلاً بدنياه، وخوضاً في أمورها، فالشغل بأمور الدنيا عن حقوق المولى شغل بما لا يعني، وترك لما له قيمة لما ليس له قيمة وتضييع الأوقات خسارة لا خلف لها، وندامة لا تدارك لها، وليس من شأن العقلاء تضييع الأوقات النفيسة بالخوض في أمور خسيسة.

قال السلمي: «ومن عيوبها: تضييع أوقاته بالاشتغال بما لا يعنيه من أمور الدينا، والخوض فيها مع أهلها»، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

من عيبها تضييعه أوقاته .... بالخوض في الدنيا وما قد فاته

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. **غفلته عن الموت.**
2. **جهالته بعزازة الوقت.**

فمن ضيعها بالخوض فيها بأمور دنياه، فهو جاهل بها وبعزازتها، فصرفها فيما هو ليس بعزيز من الاشتغال بأمور دنياه عن أداء حقوق الربوبية، والقيام بالتكاليف الشرعية.

---

(1) في سنن ابن ماجة2: 1315، وسنن الترمذي4: 558.

وذلك من جهالة بالبوق .... أو ما له من عزة وثبت

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل منه لا قيمة له».

قال الجنيد: «الوقت إذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعز من الوقت، وكل جزء يحصل للعبد من العمر غير خال من عمل صالح، فيتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى، لا قيمة لما يتوصل إلى ذلك؛ لأنه في غاية الشرف والنفاسة».

ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم، وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير.

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. اهتمام العبد بوقته فيما يصرفه من الأعمال:

فإذا اهتم به وعلم عزازته لم يصرفه إلا فيما هو أعز، وهي الأعمال الصالحات التي بها الفوز في الدنيا والآخرة، وينال بها رضى المولى تعالى.

قال الحسن البصري: «أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم».

2. تجويز هجوم الموت في الوقت الذي هو فيه:

فتعين عليه صرفه فيما يرضي الله تعالى حرصاً على أن يلقاه على حالة يرضاها منه، ويرضى عليه بها، وهذا هو فائدة العمر، والمراد من الحياة.

قال السُّلمي: «ومداواتها: أن يعلم أن وقته أعزّ الأشياء عليه، فيشغله بأعز الأشياء وهو ذكر الله والمداومة على طاعته، ومطالبته الإخلاص من نفسه».

دواؤه اهـتـمـامـه بوقـتـه .... وذكره فيه هجوم موته

والوقت أعز شيء عند عبيد الله، لما فيه من قضاء مآربهم الأخروية، فأما الدنيوية بحسب التبع، ومتىٰ ذهب الوقت بغير شغل صالح، فقد فات منه الأرب: أي المقصد المطلوب، وهو أداء حقوق الله تعالىٰ، والقيام بالتكاليف الشرعية، والأعمال الدينية التي ينال العبد بها رضى مولاه تعالىٰ، وينال بها الفوز الأكبر، والملك الأعظم.

أعز شيء وقتنا متىٰ ذهب .... بغير شغل فاتنا منه الأرب

ومتىٰ فات العبد هذا المقصد، والنوال الأعظم فيعود عليه حسرة، والحسرة التي تعود علىٰ العبد في الآخرة بسبب تضييع أوقاته باشتغاله بدنياه؛ لما يفوته من النعيم المقيم، والثواب العظيم حسبما.

ثم يعود حسرة في الآخره .... وظلمة في القلب ثم الحافره

وهذا ما ينشأ عن تضييع الأوقات والاشتغال بأمر الدنيا والخوض فيها من ظلمة القلب والحافرة.

وحال النفس إن لم يشغلها صاحبها أشغلته بكل شر، وهذا حالها ما دامت نفساً، ومن الخير شغلها بالأعمال الصالحات، والنظر في الأمور الآخرة، ومن الشرّ الخوض في الدنيا حتىٰ تضيع أوقاته في ذلك، فمن لم يشغل نفسه بما يعينها، وما طلب منها، وأُمر به أشغلته بما لا يعني ونهي عنه، فالعاقل من أشغل نفسه بما فه فلاحها وصلاحها قبل أن تشغله بما فيه هلاكها وضررها، وليبن أمره علىٰ مخالفتها، وعدم قبول نصحها، وليتهمها في جميع الأمور، وليحذرها كل الحذر.

قال الحسن: «عليك بنفسك إن لم تشغلها أشغلتك».

والنفس إن لم تشتغل بالخير .... أشغلت المرء بكل شر

والنفس التي أُمر بالحذر منها هي الأمارة، وكذلك اللوامة، إلا أن الحذر من الأولى يكون أكثر وأشد.

وإنما أمر بالحذر من النفس لما فيها من الشر، والميل إلى كل محظور، هذا شأنها دائماً، وحالها أبداً، فلا عاصم منها إلا من رحم الله تعالى.

فليحذرن النفس أتم الحذر .... في كل وقت وزمان يجري

والحذر من النفس عدم الاطمئنان والركون إليها والتجنب منها، وتوقع المكروه منها والاستعداد لمدافعته لها.

قال الجنيد: «النفس الأمارة بالسوء هي الداعية إلى المهالك، المعينة للأعداء المتبعة للهوى والمتضمنة بأصناف الأسواء».

وقال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضى عن نفسه والكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف:53].

* * *

العيب السابع والسبعون
الغضب

شدته في غضبه عيب، فإن شدة الغضب ينشأ عن قوة النفس التي لا رياضة لها، وعن ضعف العقل الحاجز لها عن ذلك.

والغضب: هو قوة تنبعث عن غليان دم القلب، وهو من أخلاق الجبابرة والفراعنة، فمن كان حاله شدة الغضب، ففيه أخلاق فرعونية.

وإنما نهاه ﷺ عن الغضب؛ لما فيه من الشرور، وارتكاب الأمر المحظور، وأمر الغاضب آيل إلى العطب، وأيضاً فإن الغضب مفتاح نصر النفس.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الغضب».

من عيبها شدته في غضبه .... وذاك أمر آيل لعطبه

ولأن من غضب لغير الله تعالى، فقد فتح باباً لنصر نفسه، وكان بمنزل عن ضبطه لحسه: أي عن ملاكه لنفسه لضعف روحانيته وقوة نفسانيته، فغلب عليه الجهل، وعدم فائدة العقل، وما غضب حليم، ولا بخل كريم، ومَن كمل عقله وقوت روحانيته ملك نفسه عن الغضب.

لأنه مفتاح نصر نفسه .... وبعده عن ضبطه لحسه

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1].

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. **عزة في النفس.**
2. **رؤية الحق لها بين أبناء جنسها.**

فكلا الأمرين باعثٌ للعبد على انتصاره لنفسه، ومثير لغضبه على مَن خالفه، وفي ذلك عطبه، ودليل على عدم ملاكه لنفسه، وعدم ضبطه لحسه، وإذا علمت أيها العبد الأصل الذي ينشأ عنه الغضب، فلزمك حسم ذلك الأصل، لتنقطع عنك فروعه، وحسمه باستبداله بضده، فتستبدل عزة النفس بذلها، ورؤية

---

(1) في الموطأ5: 1332.

الحق لها بإيحائه لغيرها، فلا ترىٰ لها فعلاً حسناً، ولا تقيم لها عند انتصارها لنفسها وزناً، ولا تزال حاطاً لها عن رتبة الكمال، ومبيناً لها في كل حال من الأحوال، وإن خالطها شيءٌ من هذا العيب المذكور.

وأصله من عزة في النفس .... ورؤية الحق لها في الجنس

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأدوية منها:

حمل النفس على الرضا بالقضاء:

إذا كان العبد راضياً بما يصدر له من عبيد الله، وسلك في ذلك علىٰ سبيل توحيد الأفعال، فلم ير فاعلاً غير الله تعالىٰ، وردَّ نفسه إلىٰ أحكام القضاء، وأنّ ما صدر من العبيد هو قضاء قضاه سبحانه، وأجرىٰ ذلك علىٰ أيديهم، وألسنتهم لم يغضب، ولا يحزن علىٰ شيء صدر له من العبيد، لنسبة ذلك عنده إلىٰ من أجراه علىٰ أيديهم، وأطلق ألسنتهم به، وبهذا النظر ينتفي عن النفس علة الغضب، وتكون مع الله، ومع عبيد الله سالكة مسلك الأدب، وتكون مع جميع الخلق علىٰ السبيل.

قال السلمي: «ومداواتها: حمل النفس علىٰ الرضا بالقضاء، فإن الغضب جمرة من الشيطان».

دواؤه استعماله وصف الرضي .... ورده النفس لأحكام القضا

ولين النفس لجميع الخلق وانطباعها إلىٰ اتباع الحق هو نتيجة استعمال الرضى، وثمرة رد النفس لأحكام القضاء، وإذا كانت النفس تلين لجميع الخلق، فدليل علىٰ اكتمال رياضتها، وتمام تهذيبها، بما نالته من استعمال وصف الرضى،

وإذا كانت تنطبع إلى اتباع الحق فدليل على صفائها من كدرات الأهواء، فلما تصفت أنابت، وإلى الحق استجابت.

حتى تلين لجميع الخلـــــق .... وتنطبع إلى اتباع الحق

والغضب تارة يكون لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وتعديت حدوده، كغضبه ﷺ، فإنه كان يغضب الله تعالى لا لنفسه، وهذا الغضب محمود، وصاحبه مثاب عليه، وينشأ عن قوة الإيمان، وخالص التوحيد، وتارة يكون لحظ نفس وهوى، وهذا هو المذموم المعدود من عيوب النفس.

وغضب المرء لغير ربـــــــه .... من نفخة الشيطان في قلبه

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مراراً، قال: «لا تغضب»[1].

قال الرسول للذي أتاه .... لا تغضبن عندما استوصـــــــاه

واعلم أن الغضب يخرج العبد عن ملاك نفسه، ويبعده عن ضبطه لحسه، ويوقعه في مهوات الزلل، ويدعوه إلى سيء العمل، وتنشأ عنه أفعال دنيئة، وأحوال سيئة رديئة تفضي بالعبد إلى الهلاك، وتجره إلى الاستهلاك، كما نبه على ذلك.

إذ غضب العبد إلى الهلاك .... يجره بقصد الاستهلاك

ولا شك أنّ الغضب يجرّ صاحبه إلى هلاكه في دينه ودنياه؛ إذ لعلّه يفعل في حالة غضبه فعلاً يكون فيه هلاك في الدين، وهلاك في الدنيا، وقل أن يسلم العبد

---

(1) في صحيح البخاري 8: 28.

من ذلك، فمن غضب عطب، فالغضب ينشأ عنه العطب، ويقل معه الأدب، ولا يَنال العلا قط من كان طبعه الغضب، فعلىٰ العبد المؤمن أن يجانبه، وليتق عواقبه.

* * *

العيب الثامن والسبعون
الكذب

الكذب عيب من عيوب النفس العظيمة، وهي من الأخلاق الخسيسة الذميمة، لا يتصف به حسيب ولا يتخلق به كريم، والكذب محرم في جميع الأديان، وعلىٰ كلِّ إنسان، وصاحبه ملعون علىٰ كلِّ لسان، فما كذب عفيف، ولا اتصف به شريف، وقد جعله النبي ﷺ من أخلاق المنافقين، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[1].

قال السلمي: «ومن عيوبها: الكذب».

من عيبها الكذب في الأخبار .... وذاك من خساسة وعـــــــار

وقد ورد النهي عن الكذب في الكتاب العزيز، وفي الأحاديث النبوية، ووقع التحذير منه، فمَن لم يحذره، ولم ينزه نفسه عنه، فيُسمىٰ عند الله كذاباً، فعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «لا يزال العبد يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال يكذب ويتحرىٰ الكذب حتىٰ يكتب عند الله كذاباً»[2].

---

(1) في صحيح البخاري1: 16.

(2) في مسند أبي داود الطيالسي1: 200، والمعجم الصغير2: 8.

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأسباب منها:

1. **طلب رضا الناس.**

2. **التزين للناس.**

3. **طلب الجاه.**

قال السلمي: «فإن الذي يحمل صاحب الكذب على الكذب طلب رضا الناس أو التزين لهم وطلب الجاه عندهم».

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. **العلم بقبح الكذب في نفسه:**

وينشأ عنه مفاسد وأمور ذميمة منها: أنه يوصل صاحبها للعطب في الدين والدنيا، ويكون موصوفاً عند الناس بالذل، والصغار، والإبلاس، وغير ذلك من الأوصاف الذميمة، والأحوال المكروهة الخسيسة، وإذا حصل للعبد العلم بقبح الكذب، وما ينشأ عنه من الأمور الذميمة التي ذكرنا، فوجب عليه تجنبه والبعد منه؛ ليسلم من آفاته والوقوع في محظوراته، وهذا نعت العقلاء، وشأن النبلاء، وإذا حصل من العلم بقبح الشيء تجنبه، فقد حصلت ثمرة العلم، وحصل التداوي به من عيب النفس الذي هو الكذب الناشيء عنه هذه المفاسد المذكورة.

دواؤه العلـــــم بقبح الكذب .... وأنه موصل للعـــــطب
في الدين والدنيا وعند الناس .... بالذل والصغار والإلباس

2. **ترك طلب التباهي:**

فإنه قد يراد به التباهي بين الأقران، والفخر بين أبناء الزمان في الأمور المباحة، وغاية هذا الكذب أن يكون مكروهاً، وهو بعيدٌ من أحوال أهل الصدق، وكرام السجية، وهذا الكذب لا يبلغ حكمه حكم الكذب المحرم الذي ينشأ عنه مفاسد، ويوقع صاحبه في المعاطب والمآثم.

3. **يرفض الكذب لوجه الله تعالى:**

فيقصد العبد برفضه وجه الله تعالى، وفراراً مما نهاه عنه ، فيترك المكروه منه ليلاً يقع في الكذب المحرم؛ إذ الرائع حول الحمّى يوشك أن يقع فيه.

4. **ترك قصد الناس بالكلام:**

فيتركه الخوض فيما لا يعني لقصد وجه الله تعالى.

وقد يرد لطلب التبـــــاهي .... ورفضه بقصد وجه الله

وترك قصد الناس بالكلام .... إذ قد أتى عن سيد الأنام

الصدق يهدي لعظيم البـــــر .... والبر يهدي لجنان فادر

وكذب يهدي إلى الفجور .... وذاك باب الـويل والثبور

قال السلمي: «ومداواتها: ترك الاشتغال برضا الخلق وسخطهم».

* * *

العيب التاسع والسبعون
الشح والبخل

الشح والبخل المتصف بهما مذموم، والمتخلِّقُ بهما ملوم، فما شحّ كريمٌ، ولا بخل عظيم، وليس الشحُّ من أوصاف المؤمنين، ولا البخل من أخلاق المتقين.

وقد أخبر الله تعالى بفلاح مَن وُقي شح نفسه فقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[الحشر:9]، وقد استعاذ ﷺ من البخل لما فيه من نقص الحال، وقدح في وصف الكمال.

وجعل الشح البخل مع حرص، وفي هذا إشارة إلى أن التفرقة بين الشح والبخل من حيث إن أحدهما أعم من الآخر، ولعل الشيخ جعلهما وصفان نظراً إلى هذا المعنى، وبالجملة، فإن الشح والبخل من أعظم عيوب النفس.

ومما جاء في الترهيب من البخل فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل»[1].

وأصل الجود حقارة الدنيا وبغضها، والعلم بأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، والاعتماد على الله تعالى والنظر إلى ما في خزائنه، وغير ذلك من الأسباب الموجبة لسخاء النفس، والتحلي بوصف الجود.

أولاً: سبب الأمراض:

1. حب الدنيا:

فالأصل الذي يفشأ عنه الشح والبخل.

ولما كان حب الدنيا أضرّ شيء على العباد بالغ القرآن في ذمها، وجاءت آيات في وصفها ونعتها، فقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾[الحديد:20].

---

(1) في سنن الترمذي 4: 342، والمعجم الأوسط 3: 27.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على نقصها، وسوء حالها، وأما الأحاديث النبوية والآثار في ذمها، والتحذير منها كثيرة. منها:

فعن الحسن البصري ﷺ مرسلاً قال ﷺ: «حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة»[1].

وعن سهل بن سعد ﷺ: «كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: «أترون هذه هينة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرا منها قطرة أبداً»[2].

قال السلمي: «ومن عيوبها: الشح والبخل، وهما نتائج حب الدنيا».

من عيبها الشحّ كذاك البخل .... وحب دنياه لذاك أصل

2. خوف الفقر:

فخوفه أصل ينشأ عنه فروع منها البخل؛ لأنّ البخيل الحامل له على البخل أمور منها خوف الفقر.

2. ضعف الإيمان بالمقدر:

وهو أصل الأمر الذي هو ما سبق في الأزل، وما حكم به الحاكم المختار الفعال لما يريد.

لكن ضعف الإيمان بما سبق به القضاء، وجرى به القلم، والشك فيما قدره الحق سبحانه، وبه حكم أوقع في النفس أن البخل يكون به الغنى، والجود يكون منه الفقر، ولو قوي إيمانه بما جرى به القضاء، لتحقق أنّ الجود لا ينشأ عنه فقر،

---

(1) في ذم الدنيا ص 16، والزهد لابن أبي الدنيا ص26.

(2) في سنن ابن ماجة2: 1376.

والغنى لا يكون بسبب البخل، وينشأ عن ضعف الإيمان التهمة في قسمة الأرزاق.

منشأه الأصلي خوف الفقر .... وضعف إيمان بأصل الأمر

وتهمة لقســـــمة الأرزاق .... دون رضى بالواحد الخلاق

ثانياً: دواء العيب:

العلم بحقارة الدنيا:

هذا دواء دافع لعيب الشح والبخل، ومخرج لحبّ الدنيا من القلب، ولا شَكّ أن من علم أصول الدنيا، وأنها قليلة فانية، لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن ما حصل منها، وكان حلالاً عليه الحساب، وما كان حراماً، فعليه العقاب لا يشح بها ، ولا يبخل، ولا يَسكن حبُّها في قلبه، ولا يشغله طلبها عما كلِّف العبد من عبادة ربه، بل يكون لها تاركاً، وعنها معرضاً، ولها باذلاً، وهذا فعل الأكياس من الناس أهل العقول السليمة الراجحة الذين عرفوا الآخرة فطلبوها، ورغبوا فيها، وعرفوا الدنيا فتركوها، وأعرضوا عنها.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أن الدنيا قليلة وأنها فانية، وأن حلالها حساب وحرامها عذاب».

دواؤه العلم بأصل الدنيا .... وأنها قليلة في المحيا

فانية حلالها حساب .... زائلة حرامها عقاب

والبخل عيب من عيوب النفس ومصيبة، ورذيلة قبيحة ذميمة، ولا شكّ أنّ البخل وصف ذميم قبيح رذيل مَن اتصف به كان رذيلاً ذميماً، والمبتلى به ابتلي بمصيبة تضره في دينه ودنياه.

أما في دينه، فلعدم فلاحه؛ لأن الله عز وجل إنما شهد بالفلاح لمن وقى شح نفسه، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[الحشر:9]، فدلّ هذا على أن مَن لم يوق شح نفسه، فليس بمفلح، وأما مضرته في الدنيا؛ لحقارته بين أمثاله، وانسفال منصبه بين أشكاله؛ لأن البخيل مذموم، وبين الناس ملوم، والبخل مرض من أمراض القلب، وجالب لما سخط الرب.

وبخله مصيبة عظيمه ... رذيلة قبيحة ذميمه

وإذا ساء ظنّ العبد بمولاه تعالى، واتهمه في وعده الصادق حيث قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِين﴾[سبأ:39]، فوعد الله بالخلف لما أنفقه العبد في طاعته، فسوء ظن العبد بمولاه تعالى مانع له من الجود بالحاضر الموجود، ولو حسن ظنه بالله تعالى، وصدق بما وعده به من الخلف لجاد بالحاضر الموجود، ووعد بالغائب المفقود، وهكذا كان ﷺ فإنه كان يجود بالحاضر، ويُعدّ طالبيه بالغائب.

إذ منعه للحاضر الموجود .... من سوء ظن كان بالمعبود

وعن عمر بن الخطاب ﷺ: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يسأله، فقال النبي ﷺ: ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءني شيء قضيته، فقال عمر: يا رسول الله، قد أعطيته، فما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم رسول الله ﷺ، وعرف البشر في وجهه لقول الأنصاري، ثم قال: بهذا أمرت»[1].

---

(1) في مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص118.

قال الرسول أنفقن بلالاً .... ولا تخف من ربنا إقلالاً

ولا يخشى الفقر الناشئ عنه البخل وحاله ﷺ الجود، فكان يأمر أصحابه به، فكان ﷺ يعطي الموجود، ويعد بالمفقود.

ومن الخطيئات التي حب الدنيا رأسها البخل؛ إذ هو ناشئ عن حب الدنيا، فحب الدنيا أصل البخل، كما ورد في قوله ﷺ.

وقال: كل زلة وإثم .... من حب دنيانا فكن ذا فهم

والاتصاف بالأوصاف الزكية التي منها العدل في الإعطاء والإنفاق، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات:9]: أي الذين قصدوا العدل في أمورهم، وهو ما بين السرف والافتقار، وقد مدح الله عز وجل الذين نهجوا هذا المنهج القويم وسلكوا هذا الصراط المستقيم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:67].

بأن ترى في حلبة السباق .... بالقسط في الإعطاء والإنفاق

فالإسراف إفراط، والإقتار تفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وليس في الإسراف والإقتار خير يرتجى في العاجل، ولا ثواب في الأجل، وليس هو عرف جار بين أهل العدل الأفاضل، وما كان لا خ ير فيه عاجلاً، ولا ثواب آجلاً، فليتجنبه من كان عاقلاً.

إذ ليس في الإسراف والافتقار .... خير ولا بر ولا عرف جار

* * *

العيب الثمانون
بُعد الأمل

إذا نسيت النفس قرب أجلها بعد أملها، وهذا عيب معروف من عيوبها، ووصف ذميم قادح في حالها، وموجب لنفي كمالها، لأن بعد الأمل عائق عن كل خير، وجالب لكل فتنة، وهو يقسي القلب، وينسي الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:16]، فإن العبد إن بعد أمله قلت طاعته، وكثرت معصيته، وإذا نسي قرب الأجل تأخرت توبته، وأي حال أسوأ من هذه الحال، وأي عيب للنفس، وآفة أعظم من هذه.

وفي «حكمنا الصغرى»: «أوهام طول الأمال مانعة لبروز صور الأعمال».

أولاً: سبب العيب:

نسيان الموت:

فالعاقل لا يبعد أمله، ولا ينسى قرب أجله، فيقصر الأمل، وعدم نسيان قرب الأجل ينهض الإنسان إلى العمل، ومن أبتلي بهذه العلة العظيمة، واتصفت نفسه بهذا العيب العظيم.

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. ذكر الموت وقرب الأجل:

فإنه ينفي عن النفس بعد الأمل.

قال السلمي: «ومداواتها: تقريب الأجل ويعلم أن بعض السلف قال: «أحسب الله لا يؤمن على حال فأخذ الأحوال كلها».

2. الجد والتشمير في العمل:

فمن ذكر الموت شمر وجد في العمل خوف الفوت.

دواؤه دوام ذكر الموت .... والجد والتشمير خوف الفوت

روى الحسن البصري ﷺ قال ﷺ: «أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله، فقال: قصِّروا آمالكم، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله تعالى حقّ الحياء»[1].

واعلم أن مضمون قصر الأمل ذكر الموت، وحصن حصينه ذكر فجئته، وأخذه على غرة، قال هرم بن حيان لأويس القرني أوصني، قال: «توسد الموت إذا نمت واجعله نصب عينك إذا قمت، وادع الله تعالى أن يصلح قلبك»، وأوصاه مرة أخرى فقال: «عليك بذكر الموت، فلا يفارقن قلبك ما بقيت».

وقال الحسن: «ما رأيت عاقلا قط إلا وجدته حذراً من الموت، حزيناً من أجله».

قال عبد الحق في «الحاكمة»: «والناس في طول الأمل وقصره على أحوال مختلفة، فمنهم من طول في أمله زاد في كسله، ودخل الهوى في عمله، وآخر قد قصر أمله، وجعل التقوى بضاعته، والعبادة صناعته، ولم يتجاوز بأمله ساعته».

وقد أكثر الناس من التحذير من طول الأمل؛ لأن به يقع التسويف في العمل فرحم الله امرءاً قصر في أمله قبل حلول أجله.

---

(1) في قصر الأمل لابن أبي الدنيا ص41.

والقلب الغافل تعتريه أوهام، فيغلب عليه، ظلمتها فيرىٰ ما هو أقرب إليه من شراك نعله بعيداً، وهـو الموت، ويطول أمله، فيكون مدة كونه حياً غافلاً عن الموت، أمله طويل، وأجله عنده بعيد، فهو كسائر في غبرة الآمال، وهذا لا بُدّ من عثاره في شرك الآجال، كأن الموت نصب له شركاً فبينما هو سائر في ظلمة وهمه المعبر عنها بغبرة الآمال، إلا وقد وقع في شراك الموت.

فمن مشىٰ في غبرة الآمال .... عثاره في شرك الآجال

واعلم أن طويل الأمل ركب الغرور، ومشىٰ في غبرة تثور، وقصير الأمل ركب فرساً من الخيل العتاق، وسار مع حلبة السباق، فإذا انكشف الغبار يعلم من الراكب علىٰ فرس، ومن علىٰ حمار.

وسترىٰ إذا انجلىٰ الغبار .... أفرس تحتك أم حمـــــــار؟

فلا يحسن بالعاقل أن يأمن مكر الله تعالىٰ؛ إذ لا يأمن مكر الله تعالىٰ إلا القوم الخاسرون؛ لأن مَن كان حاله الحذر من عقاب الله تعالىٰ الغالب سلامته، وأنه يامن مما كان منه حذرا؛ إذ الحذر يمنعه من مخالفة ربه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28]، والحذر هو الذي يخاف مكر الله تعالىٰ، فهو لبيب حاضر، أي غير غافل عن أسباب العقاب، وموجبات العذاب.

وقال بعض سلف الأنام .... قولاً صحيحاً واضح الأحكام

أحـــب ربي إنه لا يومن .... بكل حال فاحذره تامنوا

وآمن المكر كذاك خاسر .... وخائف المكر لبيب ظافر

* * *

العيب الحادي والثمانون
الاغترار بالمدائح الباطلة

اغترارها بالمدح بغير حق، فالمدح من حيث هو مدح مذموم، وإن كان بحق، لما فيه من الآفات والعلل التي تسري منها للمادح والممدوح

ففي الذبح هلاك الجسوم الظاهرة، وإتلافها، وفي المدح هلاك الرسوم الباطنة وإتلافها، وما يؤدي إلى هلاك الباطن وإتلافه وفساده أعظم ضررا مما فيه هلاك الظاهر وإتلافه وفساده، وما كان أعظم فسادا، فليحذره العاقل أكثر من غيره.

قال السّلمي: «ومن عيوبها: الاغترار بالمدائح الباطلة».

من عيبها اغترارها بالمدح .... بغير حق وهو عين الذبح

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأسباب منها:

1. **السخف:**

والسخف والسخافة دناءة العقل

2. **الحماقة:**

فمن مدح بغير حق، واغتر بذلك، فهو سخيفُ العقل أحمق زرا به سخفه وحمقه حتى قبل المديح بغير حق، وذاق طعمه، وتلذذ به.

وذاك من سخف ومن حماقه .... يزري بمن قبله وذاقه

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. مدح وذم الخلق لا يوجب كمال الممدوح ولا فائدة فيه:

فإذا علم العبد هذا لا يغتر بمدحهم، ولا يكترث بذمهم، وإنما يرجع في ذلك إلى علم الله تعالى فيه، فالممدوح من حسنت أحواله مع الله تعالى، وكان مستقيماً مع مولاه، وكان الشرع شاهداً بكماله، والمذموم من كانت أحواله على العكس من هذا، والعبد أعلم بنفسه من غيره؛ إذ لا يعلم غير العبد ما لا يعلمه هو من نفسه.

دواؤه العلم بأن مدحهم .... ليس يفيد وكذاك ذمهم

2. عدم الاغترار بكلام الناس مع معرفته بنفسه:

قال السلمي: «ومداواتها: أن لا يغره كلام الناس مع ما يعرفه بنفسه، فإن حقيقة الأمر يخلص إليه دونهم، وأن ثناءهم عليه دون ما يعرفه الله تعالى منه، ويعرفه هو من نفسه لا ينجيه فلم يخبره به».

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس»، وقال أيضاً: «الناس يمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك بما تعلم منها».

وأجهل الناس الذي يترك ما .... علمه لأجل ما وهمـــــا

العبد مأمور بالحياء من الله تعالىٰ إذا مدح بغير ما آتاه مـن أوصاف الكمال التي توجب له المدح، لكن إذا مدح، فليعلم أنّ ذلك من منّة الله تعالىٰ عليه، حيث ستر القبيح، وأظهر الجميل، فيجب عليه حينئذٍ التوجه إلىٰ الله تعالىٰ بالثناء الأكمل، حيث ستر زلله التي توجب مذمته، فالعبد دائر بين أمرين واجبين:

أ.الحياء من المولىٰ، حيث مدح، وليس هو للمدح أهلا.

ب.ثناء علىٰ الله تعالىٰ، حيث ستر قبيح أفعاله، وأظهر للخلق كمال أحواله.

وليستح العبد من مولاه .... مهما مدح بغيـــر مـــا أتـــاه

وليتوجه بالثناء الأكمل .... علىٰ الذي ستره في الـــــــزلل

والمغتر بالأمداح لم يفلح في دينه بسبب ما ينشأ من اغتراره بالمدح من العلل والآفات التي ينشأ عنها فساد دينه، وسواء كان المدح بحق أو بغير حق، فكلا الأمرين ذميم، والثاني أعظم في الذم وأقوىٰ في جلب العلل والآفات.

ومَن يكن يغتر بالأمداح .... فما له في الدين من فلاح

* * *

العيب الثاني والثمانون

الحرص

وهو قوة الطلب لتحصيل أمر، فإن كان خيراً كان من القلب، وإن كان شراً كان من النفس، والحرص يكون في الخير، ومنه: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم﴾[التوبة:128]، ويكون في الشر ومنه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون﴾[البقرة:96].

والمراد الحرص على تحصيل متاع الدنيا وجمع حطامها، فإذا وجد الإنسان من نفسه وجود الحرص على الدنيا، وقوة الطلب لها، فليعلم أن ذلك عيب من عيوب النفس قائم به قادح في كماله، ومانع له من صلاح حاله.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الحرص».

من عيبها الحرص وثم الحسد .... كلاهما من ربنا مبعد

أولاً: سبب العيب:

طول الأمل وحب الدنيا:

وحب الدنيا من فساد الحال، وسوء المآل، والحرص لا يسلم من آفات تقدح في دينه ومروءته، وتحطه عن درجة الكمال منها الرغبة في تحصيل الدنيا، ولو من وجه غير جائز شرعاً، فلا يبالي في تحصيل ذلك من حلال أو من حرام، ومنها التملق لأهل الدنيا والذلة لهم، والاضطرار إلى مخالطتهم، ومخالطة الأضداد

واستعمال غير المعتاد، واستغراق أوقاته النفيسة في تحصيل أمور خسيسة إلى غير ذلك من العلل القادحة في كماله، والمفاسد التي تقدح في دينه.

ثانياً: دواء العيب:

العلم بوجود النقص إذا وجد الحرص:

فإذا علم العبد أن منتهى الحرص النقص أقلع عنه، وكل ما نفى العلة كان دواء لها، والمراد بالنقص هنا عدم الشيء الذي يحرص عليه.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أنه لا يستجلب بحرصه زيادة ما قدر الله تعالى من رزقه».

دواؤه العلم بأن الحرصـــــا .... مؤثر في منتهاه نقصاً

وقيل: «الحريص ملوم، ومن الرزق محروم، وبين الناس مذموم».

واعلم أن الحرص عناء لا يفيد غناء، ومن «حكمنا الصغرى»: «العناء لا يضمن الغنى».

وإذا علمت الداء، وعلمت الدواء، فقد قال الحكماء: «إن الدواء لا يفيد في زوال الداء إلا مع قطع مواده، والتحفظ من أصوله وأسبابه».

وقد تقدم أصل العيبين المذكورين الذي ينشأ عنه العيب المذكور، وهو ضعف قوى الإيمان، والبعد عن مناهج الإحسان، فليبادر العبد إلى ما يقوي إيمانه، ويحققه في مناهج الإحسان، وكذلك يحسم الأسباب التي ينشأ عنها الحرص، فإذا انحسمت الأصول، والأسباب، كان له في ذلك عونا على إفادة الدواء، وانتفاء الداء، وعلى هذا الوجه يكون معاناة الحكماء للأمراض المتمكنة، والعلل المزمنة.

والحرص لا يجلب الأرزاق، فإنه لا يقرب بعيداً، ولا يبعد قريباً، وإنما هو عناء لا يفيد غناء، والخلاق سبحانه لا يرضى من العبد الحرص؛ لما فيه من استشعار الحريص أن جلب الرزق بحوله وقوته، وليس الأمر كذلك، وإنما الرزق مقسوم ومكتوب، وكذلك الأجل.

مع أنه لا يجلب الأرزاقـــا .... وليس يرضي فعله الخلاقا

وعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات، فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد...»[1].

وإذا كان الرزق مقسماً، والأجل محتوماً، والعمل مرسوما، فليس الحرص بنافع، ولا لحلول الأجل دافع، وليس للعمل تأثير في تواصل، أو تقاطع، بل الأمور تتوقف على السابقة الأزلية، والمشيئة الربانية.

وجاء في الحديث كتب رزقنا .... وأجل وعمل في خلقنا

كذا الشقاوة مع السعاده .... فما يفيد النقص والزيـــاده

* * *

(1) في صحيح البخاري4: 133.

العيب الثالث والثمانون
الحسد

حقيقة الحسد: قال القرافي: «تمني زوال النعمة على الغير»، وقال الغزالي: «هو إرادة زوال نعم الله تعالى على أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها له، ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة».

قال السلمي: «ومن عيوبها: الحسد».

فعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»[1]: أي لا غبطة إلا في ذلك، فعبر عن الغبطة بالحسد إتساعاً لمقاربتهما، فإن لم يكن فيها صلاح وأردت زوالها عنه، فذلك غيرة، ويكفي في معرفة كونها صلاحاً غلبة الظن، فإن وقع الشك فالتحريم احتياطاً.

قال القرافي: «ثم الحسد حسدان: تمني زوال النعمة، وتحويلها للحاسد، وتمني زوالها من غير طلب حصولها للحاسد، وهذا أشر الحاسدين، لأنه طلب المفسدة الصرفة من غير معارض عادي طبيعي».

وحكم الحسد في الشريعة التحريم، وحكم الغبطة الإباحة،؛ لعدم تعلقه بمفسدة البتة، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[الفلق:5]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء:54]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[النساء:32]: أي لا تتمنوا زواله.

---

(1) في صحيح مسلم1: 559.

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. **ضعف الإيمان:**

2. **البعد عن مناهج الإحسان:**

أصلهما ضعف قوي الإيمان .... والبعد عن مناهج الإحسان

تنشأ عنهما مفاسد في الدين، ووهن في اليقين:

منها: الحرص ولو قوي إيمان العبد بالرزق المقسوم أنه لا يفوته، وما لم يقسمه له لم يدركه أبداً لم يحرص على تحصيل ما قسم له، ولا يسعى في تحصيل ما لم يقسم له، ويستعمل الأسباب على الوجه الذي أمر به شرعاً معتقداً أنّ الأسباب عندها لا بها.

ومنها الحسد، فإنه أيضا ينشأ عن ضعف الإيمان، والبعد عن مناهج الإحسان. إذ قوة الإيمان، والثبات على مناهج الإحسان يحققان للعبد ثبات ما له من الرزق قسم، فيرتفع الحرص وعدم إفادة الحسد في زوال ما به المولى أنعم، فيرتفع الحسد.

ثانياً: دواء المرض:

ويرجع لأمور منها:

1. **كثرة الدعاء للمظلوم:**

والمراد بالمظلوم المحسود، وكونه مظلوماً؛ لجور الحاسد عليه بتمنيه زوال ما أنعم الله تعالى به عليه، وكفارة هذا الذنب كثرة الدعاء لذي النعمة، ولا شك أن وجود الدعاء من العبد لذي النعمة يرفع عن الداعي علة الحسد، ويدفع عنه عيبه.

2. علم الحاسد أنه عدو النعمة:

بكونه يريد زوالها عن من أراد الله تعالى أن ينعم عليه، ولا تقتصر عداوة هذا على النعمة فقط، بل هو عدو النعمة، وعدو المنعم، وعدو المنعم عليه، وإذا علم العبد أنه بهذه المنزلة من العداوة، أقلع عنها بتركه موجبها.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم الحسد عدو نعمة الله، ونتيجة الحسد من قلة الشفقة على المسلمين».

ثم دواء الحســـــــــد المشؤوم .... بكثرة الدعاء للمظلـــــوم

والعلم أنـــــه عـــــدو النعمه .... إذ قصـــده به حلول النقمه

3. العلم بأنه يريد أن يحكم على قسمة مولاه:

وكونه يريد أن يحكم على .... قسمة مولاه الدائم ذي العُلا

ومريد الحكم على قسمة المولى جل جلاله أرزاقه لعباده جور في الحكم، وتعاظم في الظلم، فيتوجه إليه العتاب من رب الأرباب: «عبدي أنت ظالم بحسدك لمن أظهرت عليه نعمتي، ولم ترض بقسمتي، فلأمنعنك في الدنيا بلوغ قصدك، ولأردن في الآخرة عملك».

والحسد من صفة اليهود؛ لأنّ الحسد من أخلاقهم، وغالب أحوالهم، فلا تجد يهودياً، إلا وقد أبتلي به، يظهر ذلك من أحوالهم مع نبينا ﷺ، فإن نبوءته عندهم ثابتة، ورسالته محققة لا يشكون فيها تحققوا ذلك من التوراة، ومما جاءهم به، وأظهره لهم من المعجزات لكن حملهم على إنكار نبوءته ﷺ الحسد، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:33]، فجحودهم على وجه الحسد، ولا تصافهم بالحسد أدلة كثيرة.

وابتلاء الحاسد بالكمد الذي يصيبه من الحسد بكونه لا يبلغ قصده، وأن أثره يظهر فيه قبل المحسود فلا يصل للحاسد من حسده إلا الغم الدائم، والهم اللازم، والذنب الكبير.

وأنها من صفة اليهود .... مع ارتفاع رتبة المحسود

هذا مع ابتلائه بالكمد .... وغيره من تابعات الحسد

وما قصده الحاسد من زوال النعمة على المحسود، ونزول النقمة به، وغير ذلك مما تضمنه مقصد الحاسد، فلا يصل شيء من ذلك للمحسود إلا اجتماع الغم والذنوب للحاسد؛ إذ لا يصح حصول الغم، والذنوب للمحسود، لأنه مظلوم، بل الغم والذنب يصلان للحاسد.

فلا وصول منه للمحسود .... إلا اجتماع الغم والذنوب

* * *

العيب الرابع والخامس والثمانون
الإصرار والمجاهرة على الذنب

وهاهنا ذكر عيبين من عيوب النفس:

الأول: الإصرار على الذنب:

والإصرار على الذنب الإقامة عليه، ونية العود إليه، وعدم الرجوع عنه، والتوبة منه، فإذا كان العبد مصراً على الذنب، فليعلم أنّ ذلك عيب من عيوب نفسه القاطعة له عن مرضات ربه.

ومدح الله تعالى قوماً استغفروا من الذنب، ولم يصروا عليه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوْا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوْا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَى مَا فَعَلُوْا وَهُمْ يَعْلَمُون﴾[آل عمران:135]، ثم وعدهم الله

بالمغفرة والجنة، فقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[آل عمران:136]، وإذا كان هذا جزاء من استغفر ولم يصر، فجزاء من أصر ولم يستغفر الحرمان مما وعد به من استغفر ولم يصر.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الإصرار على الذنب مع تمنى الرحمة ورجاء المغفرة».

الثاني: المجاهرة بالذنب:

إن المجاهر به بارز الله تعالى بالمحاربة، وجاهر بالعداوة، والحامل على ذلك عدم الخوف من عقاب الله، وعدم الحياء منه تعالى.

من عيبها الإصرار والمجاهره .... مع رجاء رحمـــــة ومغفـــــره

وإذا كان العبد مأمورا بالحياء من الناس، فأحرى من الله تعالى، فعن زيد بن أسلم ﷺ: «أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنا على عهد النبي ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ بسوط، فأتي بسوط مكسور، فقال: فوق هذا، فأتي بسوط جديد لم تقطع ثمرته، فقال: بين هذين فأتي بسوط، قد ركب به ولان، فأمر به فجلد، ثم قال: أيها الناس، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئا، فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا صفحته، نقيم عليه كتاب الله تعالى»[1].

وأعظم من الذنب رجاء المغفرة والرحمة مع الإصرار على الذنب، والمجاهرة به، وهذا الرجاء غير نافع وليس بحقيقي، وإنما الرجاء ما قارنه عمل، قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «الرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية».

---

(1) في الموطأ2: 22.

فالرجاء الحقيقي الذي يبعث صاحبه على الاجتهاد في الأعمال الصالحة، والكاذب الذي يفتر صاحبه على العمل، ويجريه على المعاصي والذنوب، وهذا ليس برجاء عند العلماء، ولكنه أمنية واغترار.

أولاً: سبب الأمراض:

ويرجع لأمور منها:

1. **الغرور من العبد.**

2. **قلة المبالات بحدود الله تعالى.**

وذا غرور ظاهر وجهل .... ليس له في الصالحات أصل

ورجاء الرحمة والمغفرة مع الإصرار على الذنب والمجاهرة بهذا غرور ظاهر لا خفاء فيه، وجهل بالله تعالى وبعظيم صفاته وأفعاله.

قال معروف الكرخي: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق».

وقال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم:59]، والخلف الردي من الناس، ويدخل فيهم من أصر على الذنب، وجاهر به ورجا مغفرة الله تعالى ورحمته.

قد ذم ربي من طريقه .... اقتفى وكان خلفاً فاسداً

ثانياً: دواء الأمراض:

علم العبد بأن الغفران والرحمة والعفو لأهل الإحسان:

فمن علمه رغب في دخوله في زمرة أهل الإحسان؛ لينال من العفو والرحمة والغفران ما نالهم، وأقلع عن اكتساب المعاصي، فلم يعص ربه سراً ولا جهراً، وما كان سبباً في الإقلاع من الذنب، فهو دواء له.

وأهل الإحسان الذين أحسنوا العمل وأقلعوا عن المعاصي والزلل.

دواؤه العلم بأن الغفران .... والعفو والرحمة لأهل الإحسان

ويستفيد العبد العلم بأن مغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته لمن أحسن عمله من قوله تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:156]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:135].

والحكمة من الآيتين عدم الإصرار شرط عند المستغفرين في إفادة الاستغفار الفائدة المطلوبة، وكون الرحمة سابقة الإحسان خذ ذلك حكمة، والحكمة وضع الشيء في محله، ومن فهم الآيتين على مقتضاهما، فقد وضع الشيء في محله.

في آل عمران ولم يصروا .... شرط لدى المستغفرين ذكروا

وسورة الأعرف فيها الرحمة .... سابقة الإحسان خذها حكمة

وفعل المعاصي والإصرار عليها سبب ذلك التهاون بقدر عظمة الباري تعالى، وعدم الحياء منه، وفقدان الخوف من عقابه، ولو كان العبد معظماً لباريه، خائفاً من عقابه راعياً لثوابه، امتلأ قلبه حياء وهيبة من الله تعالى لم يعصه.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أن الله تعالى أوجب مغفرته لمن لا يصر على الذنب، حيث قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:135]، ويعلم أن الله تعالى أوجب الرحمة للمحسنين، وأوجب المغفرة للتائبين حيث قال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود:3]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[طه:82]».

وقال أبو حفص: «الإصرار على الذنب من التهاون بقدر الله تعال».

قال أبو حفص: وبالإصرار .... تهاون العبد بقدر البار

* * *

العيب السادس والسابع والثمانون
الإعراض عن الطاعات والمواعظ

وهاهنا ذكر عيبين من عيوب النفس، وهما:

الأول: ألا تجيب داعي الله تعالى طوعاً.

قال السلمي: «ومن عيوبها: لا تجيب إلى طاعة الله تعالى طوعاً».

الثاني: ألا تلقي إلى المواعظ سمعاً.

وهو وصف النفس الأبية التي قال الله فيها: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[الفرقان:44]، والواجب على من كانت نفسه متصفة بهذا العيب أن يجاهدها حق المجاهدة ويريضها أتم رياضة، حتى تجيب داعي الله طوعا، وتلقي إلى نداء الحق سمعا، وتتخذ الإجابة لداعي الله طبعاً.

من عيبها أن لا تجيب طوعاً .... لطاعة ولا تلقي سمعاً

أولاً: سبب الأمراض:

الدعاوى الباطلة والاغترار:

إذا كانت الدعاوى الباطلة في النفس كامنة واغترت، فكانت بذلك من مكر الله تعالى آمنة، ينشأ عن ذلك عيوب في النفس عن الله تعالى قاطعة، وأمراض من صحّة الأعمال واستقامتها مانعة.

وذاك من دعوى لديها كامنه .... حتى غدت ذات اغترار آمنه

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. الجوع:

فلما فيه من كسر النفس وإذلالها، وإخراجها عن مألوفاتها الطبيعية وشهواتها ، والجوع سبب عظيم لتسخير النفوس وترييضها وتزكيتها، وقد تقدم لنا قبل هذا؛ لما في الجوع من الفوائد الجليلة التي يكون فيها صلاح الظاهر وطهارة الباطن.

2. الأسفار:

ففيه تعب النفس وجهدها، وقلّ أن يتهيأ لها فيه ما تطلبه من شهواتها، وفيه غربتها من أوطانها، ومفارقة عشيرتها وخلانها، وفي ذلك انحطاطها وانكسارها، فلذلك كان دواء لها من العيوب والأمراض، ومخرجاً لها عما تميل إليه من الشهوات والأغراض.

3. الجهد في الليل والنهار:

يريد اتعابها في الأعمال الصالحة، فلا يزال يجهدها في ذلك حتى تألف إلى الأعمال بكره، وهذا في بداية أمرها، لكن في تمكينها يعود الكُره طوعاً، فتصير أعمالها على سبيل الطوع، وفي نهايتها تكره البطالة، كما كانت قبل تكره الأعمال، وتعود الوحشة أُنساً، والبعد قُرباً، والتفريق جمعاً، وهكذا يزاول الحكيم نفسه الأبية حتى تعود طاهرة زكية، تفر من البطالة، وتنشط إلى العمل.

قال السلمي: «ومداواتها: بالجوع والعطش، والتقطع في الأسفار، والحمل على المكاره».

دواؤه بالجوع والاسفار .... والجهد في الليل وفي النهار

حتى يصير إلفها بِكُره .... وذاك للطوع حقيقاً ينهي

قال رجل لأبي يزيد البسطامي: «ما أشدُّ ما لقيت في سبيل الله تعالى، فقال: لا يُمكن وصفه، ما أهون ما لقيت منك نفسك في سبيل الله تعالى، فقال: أما فنعم، دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني طوعاً فمنعتها سنة كاملة».

فعلى النفس تسلك على سبيلهم، وتتبع طريقهم في مجاهداتهم لأنفسهم وترييضها، وتقتني من التقى ما يبلغك إلى منازلهم، وترقى به إلى مقاماتهم، وتتحلى بأحوالهم، وأمرك أيضا بترك دعواك الذي هو أصل عيب نفسك، وسبب دائك، وأن تمنع نفسك من الاستشراف إلى المراتب العلية التي لا تستحقها، ولست من أهلها ناظرا إلى عظيم ذنبك، وسوء أدبك مع ربك، ومالك من المصائب التي تستوجب بها الإبعاد، ولا تبلغ بسببها المراد، وإنما تذكر العبد الموفق ذنوبه، واستحضر عيوبه، واستحيى من ربه أن يطلب منه مطالب الرجال، أو يطمع أن يرقيه. مع وجود ذنبه، وكثرة عيبه إلى مقامات أهل الكمال.

قد قال طيفور هو البسطامي .... أشد ما لقيت في أيـــام
للنـــفس ما لم تجب للطاعة .... طوعاً بترك الماء والمجاعة
حولاً مـــن الزمان باستيفاء .... فهذه أحوال ذوي الولاء
وهكذا طريقهم فلتـسلك .... وتقتني مَن التقى ولتتـــرك
دعواك والإشراف للمراتب .... معتبراً ما لك من مصائب

* * *

العيب الثامن والتاسع والثمانون
للجمع للمتاع والمنع

وهنا ذكر لعيبين، وهما:

الأول: الجمع الحطام الدنيا والرغبة فيها:

وهذا الجمع المراد به هنا أن يكون من وجه مباح، فهذا هو المذموم؛ لأن ذلك قادح في حالهم، وموذن بعدم كمالهم ومخالف لما هم بصدده من طلب الآخرة، ورفض الدنيا، وعدم الميل إليها، وإلى متاعها، وترك زينتها.

أما جمعها من غير الوجه المباح، فهذا هو أعظم عيباً، وأشد بعداً من الله تعالى، وأبعد من أحوال أهل التوفيق، وهو محرم في الدين، وعيب في حق عوام المؤمنين، فكيف بالجماعة الذين حسنات من دونهم في الحال، والمقال سيئات لهم، وقد ذم الله عز وجل جامع المال فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة:3].

والجمع مذموم على كل حال.

الثاني: منع متاع الدنيا لمستحقها:

المراد بالمنع منع غير الواجب من صلة ذي رحم، ومواساة مسكين، وصدقة على فقير، وغير ذلك من أوجه المندوبات. أما منع ما وجب في المال، فليس هو المقصود هنا؛ إذ الخطاب في هذا للذين اهتموا برياضة نفوسهم، ومعاناتها ومداواة عللها وأمراضها، وطهارتها من عيوبها.

أما منع الواجب فليس هو المقصود هنا إذ ذاك، إنما يخاطب به عوام المؤمنين، وهو مذموم في حقهم، والمنع كله مذموم وصاحبه ملوم على كل وجه،

وبكل اعتبار ، وقد ذم الله تعالى المانع فقال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ [ق:25].

قال السلمي: «ومن عيوبها: حرصها على الجمع والمنع».

من عيبها الجمع معا والمنع .... وذاك ضـر ما لديه نفع

أولاً: سبب الأمراض:

ويرجع لأمور منها:

1. البخل:

فالبخل لا شك أنه أصل المنع وهو عيب في نفسه، ينشأ عنه عيوب منها المنع، وقد استعاذ منه ﷺ بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل»[1].

وقال تعالى: وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾ [محمد:38] ، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:10].

2. خوف الفقر:

فالخوف الفقر، فهو أصل للجمع والمنع، وقد استعاذ منه ﷺ، وخوف الفقر عيب في نفسه، وتنشأ منه عيوب منها الجمع والمنع مع أن الخائف من الفقر غير واثق بمولاه جل وعز، ولا عامل على واسع فضله وعظيم كرمه.

3. حب الدنيا.

فحب الدنيا فهو أيضاً أصل الجمع، وحامل أيضاً على المنع، وهو عيب من عيوب النفس، وتنشأ عنه عيوب كثيرة، وأمراض عديدة.

---

(1) في صحيح البخاري 4: 36.

ثانياً: دواء الأمراض:

استشعار العبد قرب أجله، وأن ماله ينتقل لغيره.

فلا يحرص على جمع، ولا يمنع حقّ الله منه، وهذا من فوائد قصر الأمل، واستشعار قرب الأجل، كما أن طول الأمل باعث على الحرص، والجمع مع المنع سيما إذا اقترن بذلك حب الدنيا، وميل القلب إلى زهرتها وزخاريفها الباطلة، ونظارتها العارية التي لا بد من زوالها، وتغير أحوالها، فيجب على العاقل أن يستشعر ذلك، وأن ما يجمعه من متاع الدنيا منتقل إلى غيره، فينتفع به دونه.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم انبهام عمره، وقرب أجله، فيجمع على قدر نفسه، ويمنع بقدر حياته، فمن لا يأمن على حصول التباعة على نفسه».

دواؤه استشعاره قرب الأجل .... وأن ماله لغيره انتقل

فينفـــــــع الغير ولا ينفعه .... إذ كان في حياته يمنعه

ما يجمعه الإنسان في حياته، ويخلفه بعد موته ينتفع به غيره دونه، فيكون منعه لما يجمعه سعياً لغيره لا له، فعن مطرف، عن أبيه ﷺ، قال: «أتيت ﷺ وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر، قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»[1].

ومن جملة ما يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة ما يجمعه من متاع الدنيا، فيسأل عنه مما ذا اكتسبه، وعلى ما أنفق منه، فيما ذا أنفقه، فيسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير، وما يخلفه من ذلك يسئل عنه، فيكون عليه غرمه، وللغير غنمه.

---

(1) في صحيح مسلم4: 2273.

مع أنه محاســـب عليه .... مطالب بحـــقه لديه
قال الرسول كلما قدمتا .... مالك والغير لمن تركتا
ولك ما لبست أو أبليته .... أو الذي أكلت أو أفنيته
ثم الذي صدقته أمضيته .... وعند ربنا غداً وجدته

وأما ما خلفته بعدك فهو لغيرك له غنمه، وعليك غرمه، فخير مالك ما تصدقت به واحتسبت أجره ربك، فإن الله تعالى يجزي المتصدقين، وجاء في الصدقة ثواب عظيم، وأجر كبير.

فعلى العاقل أن ينظر لنفسك على بصيرة، فإن أهل البصائر ينظرون بنور الله تعالى، والأمر الذي تنظر فيه لنفسك أن تتصق به، فتبقيه، أو تلبسه فتفنيه أو تأكله، فتفنيه، ولا شك أن ذا البصيرة يختار ما يبقى على ما يبلى ويفنى.

فاختر لنفسك على بصيره .... ولا تكن ممن يسيء مصيره

* * *

العيب التسعون
صحبة المخالفين

فمن يخالف المريد في مقصده وإرادته وأحواله، فصحبة المريد في ذلك يعد عيب من عيوب النفس.

وكذلك صحبة أهل الأغراض الفاسدة والمقاصد السيئة، والأحوال الذميمة، الذين ألفوا الفساد، وربوا على الطبع المعتاد، والفهم هو على هذه الحال، وإنما عدّ صحبة هؤلاء من عيوب النفس، لما يسري من طبعهم الفاسد إلى المريد؛ إذ الطباع تسرق الطباع، والنفس تميل بطبعها إلى ما يوافق هواها، ويقربها إلى نيل أغراضها وشهواتها، فهي أيضا تتأثر بما فيه فسادها أكثر مما تتأثر بما فيه صلاحها.

قال السلمي: «ومن عيوبها: صحبتها مع المخالفين والمعارضين عن الحق».

من عيبها الصحبة للمخالفين .... وأهل الأغراض من الموالفين

أولاً: سبب العيب:

نزوع النفس لفعلهم الفاسد الذميم:

لرغبة النفس للرجوع إلى ما كانت عليه قبل الإرادة من الاعوجاج في العهد القديم، وهي تميل بطبعها إلى ما يوافق هواها، وما يقربها إلى نيل أغراضها وشهواتها، وذلك من نزوعها إلى ما كانت عليه، ورجوعها وميلها إليه.

وذاك من بقية النزوع .... لفعلهم وطلب الرجوع

ثانياً: دواء العيب:

صحبة أهل الطاعة:

العيب إنما ينتفي بما يُضاده ويَنفيه، والمرض إنما يُداوى بما يذهبه ويبريه، فصحبةُ أهل الطاعة التابعين للحق والجماعة دواء ينفي عيب صحبة المخالفين للحق، أهل الأغراض المنحرفين عن طريق الصدق، وأهل الطاعة هم الذين أطاعوا الله تعالى في السر والعلانية، فلا يتركون أمراً، ولا يقربون نهيا، والحق المراد به الكتاب والسنة.

دواؤه صحبة أهل الطاعه .... والتابعين الحق والجماعه

فيصحب من سلكوا على المنهج المحمدي القويم، والصراط المستقيم، ولا شك أن صحبة هؤلاء دواء لما ذكر من العيب، وتحفظ من صحبهم في الشهادة والغيب، فمهما أحبهم لا يحرم من خير الدارين، ويكون بصحبتهم من خير الفريقين، وكذلك من أحبهم، فمَن أحب قوماً كان معهم، وحب الأولياء ولاية.

وفي «حكم ابن عطاء الله»: «لا تصحب مَن لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله تعالى مقاله».

فمن لا يوافقك على طاعة ربك، ولا يبصرك بعيوب نفسك، ولا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله تعالى مقاله وشأنه اتباع الهوى، وسلوك الإغواء، فمن كان هذا حاله، فهو من غير جنس أهل التوفيق، وحاله مخالفة لأحوال أرباب الطريق، فمن صحبه، فهو جاهل قدر نفسه، حيث قارنها بمن ضره أقرب إليه من نفعه، فبئس العشير.

قال السلمي: «ومداواتها: الرجوع إلى صحبة الموافقين والمقبولين عند الله تعالى».

وكل مَن يصحب غير جنسه .... فجاهل تالله قدر نفسه

ولا شك أن الوحدة أفضل من جليس السوء، يشغلك بما لا يعني عما يعني، ويميلك إلى طريق الاعوجاج، وينتهج بك أسوأ منهاج، والطباع تسرق الطباع.

أفضل للمرء جلوس وحده .... ولا يكون جليس سوء عنده

وبالجملة فالأصحاب ثلاثة:

أ.صاحب كالقوت لا يستغنى عنه، وصحبته بهذا خير من الوحدة، وهو الذي ينهضك حاله ويدلك على الله تعالى مقاله.

وصحبة المجتهد النحرير .... تزيد في الجد وفي التشمير

ب.صاحب كالدواء لا تحتاج إليه إلا عند الحاجة، وهو الذي لا تستفيد منه حسن التدبير فيما أشكل عليك من الأمور التي يخفى عنك عواقبها.

ج.صاحب كالداء، وهو الذي لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، ولا يحصل لك من صحبته إلا البعد من الله تعالى، والخروج عن نهج الاستقامة، كصحبة من يرضى عن نفسه.

إذ صحبة الراضي تزيد في الرضى .... وترفع العبد إلى سوء القضا

وعن ابن عمر ﷺ، قال ﷺ: «مَن تشبه بقوم فهو منهم»[1]، ولهذا استحسن التشبه بالفقراء ـ أي أهل الصلاح والفضل ـ ، والتزيي بزيهم في الظاهر لعل بركة ذلك أن يوفق إلى التحلي بما تحلوا به في الباطن، والتشبه بأهل الفلاح فلاح، والتخلق بأخلاق الصالحين.

ومشبه القوم فذاك منهم .... ومكثر السواد عد فيهم

وإذا خالط الخير الأشرار ساء الظن به بمخالطته لهم؛ إذ مَن كثر سواد قوم عد منهم، ولذلك وقع النهي عن مخالطة الأخيار للأشرار كي لا يسيء ظنّ الناس به، فيعرض عن نفسه لسوء الظن، ويعرض غيره للقول فيه، فيكون متسبباً في تعريض الناس للقول فيه، فهو بذلك أثم ويأثم غيره بسببه، فهو بذلك ضال مضل.

وقال بعض السلف: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار».

هذا الذي ذكرت في الحديث .... عن سيد الخلق فخذ حديثي

وقيـــــل إن صحبة الأشرار .... تقضي بسوء الظن في الأخبار

وإذا بعد القلب عن الله تعالى عارضه الفساد، وإذا فسد فسد الجسد كله، فبصلاح القلب يصلح جميع الجسد وبفساده فساده؛ إذ هو الملك المطاع والإمام

---

(1) في سنن أبي داود4: 44.

المتبع، فإذا أعرض القلب عن ربه كان سبباً في إعراض الجسد كله، وهذا من الفساد العارض له، وأوجه الفساد كثيرة سببها بعد القلب عن الله بميله إلى الهوى، وانصرافه عن طريق الهدى.

وقيل مهمي بعد الفؤاد .... عن ربه عارضه الفساد

ومن يمقت أولياء يُمقت، وهذا من عدل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[الشورى:40].

وقال بعضهم: «القلوب إذا بعدت عن الله تعالى مَقتت القائمين بحقّ الله تعالى».

بمقت كل عابد أواه .... فاستوجب المقت بعدل الله

والحق سبحانه يفعل ما يشاء نعمة منه وفضلاً، وكل نقمة منه عدل: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون﴾[الأنبياء:23].

قال أبو تراب النخشبي: «القلب مهما ألف الإعراض...».

وعسكر أبو تراب النخشبي .... قال كلاماً حسناً في المذهب

إعراض أهل الحق والعنايه .... والصدق والإخلاص والولايه

وذاك باب الهلك في الوجود .... بوعد ربي الواحد المعبود

إذ من قد أذى وليه قد حاربه .... ومن يطق ذلك أو يقاربه

* * *

العيب الحادي والثاني والتسعون
الغفلة

وهاهنا ذكر عيبين:

الأول: الاسترسال في الغفلة عن الله تعالى:

وذلك بترك ذكره وعدم الوقوف عند نهيه وأمره، فالقلب معرض عن الفكر في أوصاف الألوهية، واللسان صامت عن الذكر قياماً بحق الربوبية، والجوارح مصروفة عن القيام بالوظائف الشرعية، فهذه هي الغفلة الموجبة لبعد العبد عن مولاه، وخسرانه لتضييعه؛ لما فيه رضاه، والاسترسال في هذه الغفلة عيب من عيوب النفس عظيم، ووصف لمن اتصف به ذميم.

الثاني: ترك العمل الصالح حال المهلة:

وليس هذا من وصف العقلاء، ولا من أحوال النبلاء الذين أخذوا في العمل بالجدّ والتشمير، ولا سمحوا لأنفسهم في قليل ولا كثير.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الغفلة».

من عيبها: استرساله في الغفله .... وتركه العمل حال المهله

وعن ابن عباس ﷺ، قال ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناءك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1]، فالعاقل لا يغفل عن أداء حقوق مولاه ولا يترك العمل حالة مهملة تابعا لهواه.

---

(1) في المستدرك 4: 341، وصححه.

أولاً: سبب الأمراض:

ويرجع لأمور منها:

1. **نقص يقين العبد بما وصل إليه من نعيم مولاه العظيمة:**

وما لديه من مواهبه الجليلة التي توجب للعبد عدم غفلته عن أداء حقوق المولى الكريم والقيام بشكر الرب العظيم على ما لديه من النعم وما وصل إليه من الفضل والكرم استرسل في ميدان الغفلة وترك العمل حال المهلة.

وذاك من نقصان ما لديه .... من اليقين والذي إليه

2. **غلبة الهوى.**
3. **عدم النظر في عظيم أوصاف المولى.**
4. **عدم التفكر في عظيم أفعاله.**
5. **الغفلة عما الله من الحقوق الواجبة والعبادة اللازمة.**
6. **استغراق العبد في العالم الأدنى.**

وانصراف همته إليه، وميله إليه، وشغله به. إلى غير ذلك من الأسباب التي تنشأ عنها الغفلة والاسترسال فيها.

ثانياً: دواء الأمراض:

ويعالج بطرق منها:

1. **المراقبة:**

وهي حال القلوب المتيقظة، والنفوس الريقة؛ إذ المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه، وهذا أصل كل خير للعبد، ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة، إلا بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف، وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن ما بينه

وبين الله تعالىٰ، وحفظ مع الله الأنفاس، وراقب الله سبحانه في عموم أحواله، فيعلم أن الله سبحانه عليه رقيب، ومن قلبه قريب يعلم أحواله، ويرىٰ أحواله، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[الأحزاب:52]، فإذا تحقق العبد في هذا المقام، وعلم أن الله تعالىٰ مراقباً له علىٰ الدوام راقب مولاه، فتنتفي الغفلة وترك العمل، وكلّ ناف لشيء، فهو مضاد له ودواء له.

قال الساحلي: «والمراقبة تمكن في الروح باطلاع الله تعالىٰ عليه، فيلازم الوجهة يرتقب كشف الحجاب عن وجه القلب، لتتصل المراقبة بالمراقبة، ولا طمع في هذه المراقبة لمن بقيت عليه بقية من هوىٰ نفسه؛ لأن سببها مراعة القلب، وحفظ الأنفاس مع الله تعالىٰ، ولهذه المراقبة شروط و آداب».

أما شروطها فأربعة:

أ.القيام بجميع حقوق الله تعالىٰ سرا وإعلاناً، خالصاً من الأوهام، صادقاً في الاحترام، سالماً من الدعوىٰ، فحرام علىٰ من يلمح بارقاً من بروق الهوىٰ بعين الطبع أن يسطع له بروق الأسرار؛ لأنه قد غير محل الاطلاع.

ب.استرسال الروح في تلمح عالمه إعراضاً عما سوىٰ الله تعالىٰ.

ج.إقامة رسوم الشريعة أحسن إقامة.

د.التجافي عن الإشارات الواردة عليه في مراقبته، والإعراض عن تلمح لائح، ولحظ لامع أو طالع لن ذلك شغل شاغل عن المقصود.

وأما آدابها فأربعة:

أ. قوة المباحثة في تصفية الروح بشدة عزم، وحسن هدىٰ حالاً وقصداً، عدولاً عن بقايا الأوهام.

ب.الإعراض عن عالم الحس جملة من غير تفصيل، مستعيناً على ذلك بالخلوات والسهر والجوع من غير هلكة، وتواصل الصمت إلا ذكر الله تعالى.

ج.الكتم لما يظهر ويلوح له من بادي الأسرار، ومع تنزه الروح عن الالتفات بشيء مما وقع فيه الكلم، علماً بأن المطلوب وراء ذلك كله.

د.ملازمة الانكسار والخضوع بحفظ الأدب في الحضرة القدسية، وحفظ الأدب من شيم عبيد الحضرة، والخضوع من صفات من خرج عن الأكوان.

2.الجد والتشمير والمطالبة:

الجد عبارة عن قوة الهمة في الطلب واستفراغ الجهد في العمل بصدق توجه وإخلاص قصد.

والتشمير: عبارة عن نزع ثياب الكسل ولبس درع المبادرة إلى العمل.

والمطالبة المراد مطالبته النفس بترك التسويف بسوف، وعسى، ولعل، والمبادرة إلى العمل، ولا شك أن هذا صارف للاسترسال في الغفلة وقاطع لترك العمل حال المهلة.

3.كون العبد محاسباً لنفسه صباحاً ومساءً:

فإذا علمت أن عليها رقيباً يحاسبها نهضت إلى العمل، وقطعت عقال الكسل، فلا تركن إلى الغفلة، ولا تترك العمل حال المهلة.

4.أن يكون العبد ذاكراً حلول رمسه:

فإذا تذكر ذلك قصر أمله، واستحضر أجله، ونهض إلى العمل، ولم يسوفه بسوف ولعل.

5.سماع أخبار أهل الجد؛ لتنهض الهمة عند القصد:

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أنه ليس بمغفول عنه، وأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود:123]، ويعلم أنه محاسب على الخطرة والهمّة، ومن تحقق هذا فراقب أوقاته وراعى أحواله فيزول عنه بذلك عيب الغفلة».

دواؤه في ذاك المراقبـــه .... والجد والتشمير والمطالبه
وكونه محاسباً لنفســـه .... وذاكراً يوم حـلول رمسه
وسامعا أخبار أهل الجد .... لتنهض الهمة عند القصد

وإذا أحس القلب بالتذكار نهض إلى الأعمال والأذكار، وهذا حال القلب الموصوف بالحياة التي تنفعه المواعظ والتذكير ، وتزجره عن الغفلة وترك عمل الزواجر والتنفير، والقلب الميت حال صاحبه على غير ذلك.

لأن حس القلب بالتذكار .... يصير للأعمال والأذكار

إنما كان القلب الميت لا ينتفع بفكر ولا ذكر، ولا يجمعه ذلك من تفريقه؛ لعدم إحساسه وانسداد مجاري المنافع، وفقد القوة الجالبة؛ ولهذا قال أهل القلوب الميتة: ﴿قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾[الشعراء:136]، وقال تعالى في وصفهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:171]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَل هُمْ أَضل سَبِيلاً﴾[الفرقان:44].

وميت القلب فلا ينفعه .... فكر ولا ذكر ولا يجمعـــــــه

* * *

العيب الثالث والرابع والتسعون
ادعاء التجريد وترك العمل

وهاهنا ذكر عيبين:

الأول: التجريد عن التكسب:

قال السلمي: «ومن عيوبها: ترك الكسب والقعود عنه إظهارا للخلق أنه قعد متوكلاً ثم يتشرف للإرفاق ويتسخط إذا لم يأته الإرفاق».

الثاني: ترك العمل والتسبب:

من عيبها التجريد عن تكسب .... والترك للأعمال والتسبب

والتجريد الحقيقي عبارة عن ترك العمل والأسباب مع خلو الباطن عن النظر فيها، والتفكر في الاشتغال بها، فالظاهر خال عن العمل، والباطن عنه بمعزل، فهذا هو التجريد الكامل، ولا يصح إلا بأهله الذين أقامهم الحق تعالى في مقام التجريد، وأهلهم إليه، وقواهم عليه، فظواهرهم خالية من السبب، وبواطنهم لا تميل إلى سؤال ولا طلب، فهم بالله واثقون وعليه متوكلون، وقلوبهم بربهم مطمئنة، وثوقاً به، وتوكلاً عليه، فالتجريد لمن حاله هذا غير قادح فيه، ولا يُعدُّ عيباً من عيوب النفس؛ لأنه أقامه الحقّ تعالى فيه وأهله إليه.

وعلامة ذلك: سكون باطنه، وعدم استشرافه إلى ما بأيدي الخلق، وهذا مطالب بالثبات في التجريد، ومهما أراد الخروج منه إلى التسبب، فذلك انحطاط عن الهمة العلية، كما قال ابن عطاء الله في «حكمه».

وأما التجريد غير الحقيقي، فهو الصادر من غير أهله، ومن عللهم القادحة: عدم سكون باطنة عن حصول الرزق، واستشرافه إلى ما في أيدي الخلق

والوجود، والاضطراب والتفكير في أوجه الأسباب، وعدم استقامة أحواله في حال تجريده، وعدم قيامه بالوظائف الشرعية، ولزوم الوظائف الدينية.

وإذا كان قصد المتجرد بتجريده أن ينسب إلى التوكل، وأن يقال: متجرداً، فذلك علة في المتجرد، وفي تجريده، وهذا التجريد هو الذي يُعدّ عيباً من عيوب النفس.

وإذا أهمل المتجرد حكم التجريد الذي هو وجود الأهلية، والتحقق فيه بالباطن والظاهر، وعدم الاستشراف إلى ما بأيدي الخلق مع سكون الباطن إلى غير ذلك من الأحكام، فليس بمتجرد على الحقيقة؛ إذ كان دخوله في التجريد بنفسه لا بربه.

ومدعي التجريد التسخط على من أبى أن يعطيه ما كان مستشرفاً إليه، ويمنه ما كان معولاً عليه، والمتسخط على الآبي غير منصف له؛ لأن المنع والعطاء ليس هو منه في الحقيقة؛ إذ المانع والمعطي هو الله تعالى، ولو أنصف المتسخط لعذر الآبي من حيث إنه متصرف فيه، وليس بيده عطاء، ولا منع، ولا ضرر، ولا نفع.

ووجود التسخط من المتجرد دليل على رؤية الأكوان، ووقوفه معها، واعتماده عليها، وهذا مخالف لأحوال أهل التجريد؛ إذ هم من أهل التمكين أرباب النهاية.

لكـــي يقـــال إنه توكلا .... مع أنه لحكـــم ذاك أهملا
إذ يطلب الرزق بالاستشراف .... ويسخط الآبي بلا إنصاف

أولاً: سبب الأمراض:

ويرجع لأمور منها:

1. جهله بأحكام التجريد:

2. سوء تدبيره:

حيث وضع قدمه في مقام التجريد، وليس هو من أهله، ولا معرفة له بأحكامه أو عرفها وأهملها.

3. عدم تفويضه في الأمور لربه:

ليختار له أي مقام شاء، ويقيمه في أي مقام أراد؛ إذ هو سبحانه أعلم بعواقب الأمور، ومصالح عبيده، ولو علم هذا العبد أوصاف الربوبية، ومقام العبودية، وحسن تدبيره، وفوض إلى الله تعالى في جميع أموره لأقامه فيما يرضاه له من حيث يرضاه له من تجريد أو أسباب.

وذاك من جهل وسوء تدبير .... وعدم التفويض في الأمور

ثانياً: دواء العيب:

التزام الكسب ظاهراً وباطناً:

قال السلمي: «ومداواتها: أن يلزم الكسب، ظاهرًا وتوكل باطناً؛ ليكون مكتسباً مع الخلق في الظاهر، ومتوكلاً على الله تعالى في الباطن».

فعن عائشة رضي الله عنها: قال ﷺ: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»[1].

فيسعى في أسباب الدنيا ويرضى بما قدر الله تعالى له.

وكان أكثر أهل الورع لا يأكلون إلا من كد اليمين، وما عرف فيه الحبيب، ويسلكون في الأسباب ما كان محموداً شرعاً، وطبعاً، ومباحاً أصلاً وفرعا، وطرقهم في ذلك مختلفة.

---

(1) في سنن ابن ماجة2: 723، وسنن أبي داود2: 288.

إذ قد أتى في ذاك نص معربا .... أطيب ما يأكل العبد مما اكتسبا

والشرع أذن بالتكسيب، وفعله الأكابر، والأفاضل، والمتلبس به لا يدخله عجب؛ لأنه تلبس بما تلبس به المؤمنون، وتستر به كي لا يقال إنه من المتوكلين.

ومن نظر في سير الناس علم ذلك، وكذلك الكسب لا يطرقه الرياء: كالتجريد؛ إذ قد يعرض للنفس فيه علل وآفات تفسد عليه تجريده.

مع أن هذا ليس فيه عجب .... ولا رياء يقتضيه الكسب

ومن تحقق في مقام التجريد، وتخلق به ظاهراً وباطناً، وقصد به طريق الخير واستفادته، وانقطعت نفسه عما في يدي الغير من الخلق، واكتفى في طلب رزقه من الملك الحق الذي يغني بلا سبب، ولم يحوج من توكل عليه إلى طلب، فحكمه الاستدامة على تجريده، وليعلم أن الله عز وجل أسلكه به مسلك خواص عبيده، وحلاه بحلى أصفيائه الكرام، وهم أهل الصفة السادات الأئمة الأعلام أصحاب النبي ﷺ.

ومن يكن من حاله التجريد .... وهو به للخير يستفيد

مع انقطاع نفســـه عن غير .... فحكمه فيه دوام الأمر

كحال أهل الصفة الكرام .... السادة الأئمــة الأعـــــــلام

* * *

العيب الخامس والتسعون
الاستغناء عن العلم الظاهر بالدعاوى

من أعظم عيوب النفس قيامها بالدعاوىٰ، وترك ما تفعله من المساوئ، وإن اقترن بذلك فرارها من العلوم الظاهرة التي بها صلاح الظواهر، وفقدت ما تحضىٰ به السرائر من العلوم الباطنة التي هي علوم الحقائق الإحسانية، فهو أعظم عيبا، وأكبر ذنبا.

وما اجتمعت هذه العيوب في عبد إلا وغلظ حجابه الحاجب له عن قربه من ربه، والمبعد له منه، ولم يكن من حزبه.

ومعنىٰ القيام بالدعاوىٰ: أن يدعي العبد المراتب العلية، والأحوال السنية، وفهم الحقائق الإحسانية، والأسرار، والمعارف الربانية، وليس بأهل لها، ولا شم رائحة منها، وكيف تصحّ هذه الدعوىٰ لمن ادعاها، ولا حاول العلوم الظاهرة، ولا عاداها، ولا حافظ علىٰ العلوم الشرعية، ولا راعاها.

كلا والله إنه لكاذب في دعواه غير صادق فيما ادعاه، فدعواه مردودة عليه، والخطأ أو الغلط منسوب إليه، فيا عجبا كيف يدعي الأحوال الإحسانية، ولم يتحقق في مقام الإسلام أم كيف يدعي الخصوصية والاختصاص مَن هو غارق في بحر الآثام، ولا تقبل الدعاوىٰ ممن ترك نفسه مقيمة علىٰ المساوئ، وأهل الصدق لا يقبلون دعوىٰ ممن ظهر منه أدنىٰ مخالفة للآداب الشرعية، فكيف بالمساوئ.

ولا تقبل دعوىٰ من فر عن العلوم الظاهرة الشرعية التي هي أساس الدين، وأصل من أصول الطريقة، وكذلك التارك لما تحضىٰ به السرائر من

الوظائف الشرعية، والآداب النبوية، وتصحيح العقائد الإيمانية، والتحقيق في المقامات الإحسانية، فالأترك لهذه لا تقبل دعواه، ولا يسلم له فيما ادعاه.

وقد ظهر في زماننا هذا دجالون، ولم يتحققوا في مقام الإسلام، ولا بيَّنوا أمرهم على سبيل سنة الرسول ﷺ، وادعوا المراتب العلية، والمقامات الإحسانية، وربما بعظهم القطبانية، وقد شهدنا في هذا الزمان من يدعي الفقر والإرادة، ورفض العلوم الظاهرة الشرعية، ونبذ وراء ظهره الأدب الدينية، وأفضى بهم ذلك إلى معاداة العلماء، والإنكار عليهم، يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ألم يعلموا أن علماء الإسلام هم القادة إلى الله تعالى، وحراس الشريعة يدعون الخلق إلى الصراط المستقيم، فيحفظون لنا الدين، ودونوا الدواوين فجزاهم الله عنا خيرا آمين، اللهم انفعنا بمحبتهم واحشرنا في زمرتهم آمين.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الفرار بما يوجبه عليه ظاهر العلم إلى الدعاوى والأحوال».

من عيبها القيام بالـدعاوي .... وترك ما بها من المساوي
مع الفرار من علوم الظاهر .... وترك ما تحضى به السرائر

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. **جهل من تلبس بها بأمور الدين:**

2. **عدم التحقيق باليقين:**

فلما جهل ما يصح به دينه من العلوم الظاهرة الشرعية، وفقد ما يكمل به دينه من التحقيق باليقين الناشئ عن معرفة ما تصح به عقائده من العقائد الإيمانية، فلما جهل ذلك، ولم يعلم من هنالك غلب عليه الوهم، فظن أن ما قامت

من الأمور الوهمية حقائق، وهي في الحقيقة دعاوىٰ، وما هو بجهله حسنات، وهي سيئات، ولو كان عالماً بأمور الدين محققاً في مقامه موقنا، لما صدرت منه دعاوىٰ، ولرأىٰ مساوءه مساوئ.

وذاك من جهل الفتىٰ بالدين .... وفقده التحقيق باليقين

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1. الإفضاء بصاحبها إلى مصيبة في دينه ودنياه:

فتؤدي إلىٰ بلوىٰ تحيط به من جانبيه ومن أسفله وأعلاه .

2. أمرنا الله تعالى بإصلاح الظواهر بالعلوم الشرعية:

وبطهارة السرائر وتصفيتها من كدرات الأوهام بتصحيح العقائد الإيمانية، فإذا علم العبد ذلك اشتغل بإصلاح ظاهره، وبطهارة باطنه عن الدعوىٰ التي تفضي به إلىٰ المصيبة والبلوىٰ.

وإذ قد علمنا أن الحق تعالىٰ أمرنا بالعلوم التي بها صلاح ظواهرنا، وبالعلوم التي بها طهارة بواطننا، وصلاح سرائرنا، وجب علينا تعلمها، والاشتغال بها شغلا عن القيام بالدعاوىٰ الباطلة الناشئة عن الأوهام الكاذبة، فلا تصح استقامة دون العلمين، ولا يستغني بأحد العلمين عن الآخر، بل لا بد من تعلم الاثنين.

قال السلمي: «ومداواتها: ملازمة العلم، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:59]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ [المائدة:92]».

دواؤه العلم بأن الدعوىٰ .... تفضي إلىٰ مصيبة وبلوىٰ

وأن رب الخلق بالظواهر .... أمرنا حقا وبالسرائر

فلما أمرنا الله تعالى بالاستقامة ظاهراً وباطناً كان لا بُد من وجود العلم الظاهر الذي به صلاح الظاهر واستقامته، ومن العلم الباطن الذي به طهارة الباطن واستقامته، وقد رغب الشارع ﷺ في تعلم العلمين، وبتعلمهما يكون الكمال دون مين.

فليس هذا نافع بلا ذا .... ولا يقوم هذا بدون هذا

وعن أنس رضي الله عنه: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]، وما كان فرضاً، فلا بُد من الإتيان به؛ إذ في فعله الثواب، وفي تركه العقاب، وحد الفرض منه ما تصح به قواعد الإسلام، والزائد على ذلك مرغب فيه، وقد يتعيَّن على بعض الناس من العلوم ما هو مندوب في حقِّ غيره، كمَن فيه أهلية للقيام بوظيف من الوظائف الشرعية.

قال مالك بن أنس: «طلب العلم فريضة، كفريضة الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[التوبة:122]»، فجعل ذلك فرضاً يحمله الخاص عن العام إلا ما لا يسع جهله من اللوازم، من صفة الوضوء، والطهر، والصلاة والصوم والزكاة والحج، ففرض على مَن لزمه على ذلك معرفته.

ومن يطلبه ينال المكانة إذ مكانة العالم عظيمة عند الله تعالى، قال سبحانه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[يوسف:76].

قال ابن عيينة: «ينبغي أن يرفع أهل العلم في المجالس».

---

(1) في مسند أبي حنيفة ر2، وسنن ابن ماجة1: 81.

والعلم قال المصطفى فريضه .... وهو لديه حضرة عريضه

وينبغي أن تطلب العلم على الدوام طول الليالي والأيام، وعلى مد الشهور والأعوام، مع أن من طلبه في زمان طويل لا يحصل له منه إلا القليل، وإن أعطيته كلك أنالك بعضه، وقد نقل عن كثير من العلماء أنهم رحلوا في طلب العلم إلى أماكن بعيدة، وأقاموا في طلبه مدة مديدة، والعلم لا يأتي إلا بالعناية والمباحثة والملازمة مع هداية الله تعالى وتوفيقه.

قال ابن المسيب: «إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث»، فبذلك ساد أهل عصره، وكان يسمى سيد التابعين.

وقال مالك: «أقمت خمس عشرة سنة أغدو من منزلي إلى منزل ابن هرمز، وأقيم عنده إلى صلاة الظهر، مع ملازمته لغيره وكثرة عنايته».

ولذلك فاز أهل عصره، ويسمى إمام دار الهجرة، وأقام ابن القاسم متغرباً عن وطنه في رحلته إلى مالك عشرين سنة، ولم يرجع حتى مات، ورحل سحنون إلى ابن القاسم حتى هذب المدونة، والمختلطة.

فلتطلب العلم بطول الدهر .... علم الحلال واتباع الأمـــــر

ويلزم إلى طلب تحصيل ما يستقيم به الظاهر والباطن من العلم، فإذا حصله العبد، وعمل بمقتضاه حصلت له الاستقامة في دينه، وكان على بينة من ربه، وإذا استقام العبد يفتح الله العلي عليه أبواب فضله وينشر عليه من رحمته، وأمن خوفه وأذهب عنه حزن الدنيا والآخرة، وأدخله الجنة بفضله، وجعله من أهل ولايته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:30].

فإن تقم بذاك كنت مستقيم .... ويفتح الله بفضله العظيم

وكثرة العلوم ووسعها، وأن العبد لو طلبه طول الدهر وأجهد في طلبه نفسه كل الجهد، وسهر الليالي، وصرف في طلبه العلم عمره على التوالي لم يبلغ له نهاية، ولا يصل إلى غايته إذ هو بحر زاخر لا أول له ولا آخر.

قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم﴾[يوسف:76]، كل هذا، لئلا يرى العالم الكبير الجامع النحرير أنه حصل على العلوم ، فلم يحتج إلى زيادة في الطلب، ويريح نفسه عن الكد في طلبه، ومن التعب، فأخبر تعالى أن العالم، وإن بلغ في العلوم ما بلغ، فهناك عالم فوقه، فليطلب الزيادة، ولا يقصر طول عمره في طلب الإفادة، ومع هذا كله، فليعلم أن منتهى العلم إلى الله تعالى، فلا نهاية لمعلوماته، كما لا غاية لعلمه.

فالعلم بحر ما له نهايه .... ولا إلى آخره من غايه
إذ جاء فوق كل ذي علم عليم .... ومنتهى العلم إلى الله العظيم

* * *

العيب السادس والتسعون
استعظام العطاء ومنُّه

استعظام العبد لما صدر منه من العطاء لعباد الله تعالى، ومنّه على الذي أعطاه من رزق الله تعالى عيب من عيوب النفس يذهب حسناته، كذهاب أمس.

وقد خاطب الله نبيه عليه ﷺ بأن لا يستكثر العطاء، ولا يمنن على الذي أعطاه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِر﴾[المدثر:6]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[البقرة:264]، وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[البقرة:263].

وقد وعد الله تعالىٰ المتقين في سبيل الله تعالىٰ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذىٰ بالوعد الحسن، والثواب الجزيل، فقال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾[البقرة:262].

فالمن بالعطاء كلا عطاء، ومن مَن بما أعطىٰ، فقد أخطأ، وليس المنّ من أخلاق الكرماء، ولا من حال أهل الفضل العظماء، فالنفس الكريمة لا تمنّ بما أعطت علىٰ من أعطت، ولا تستكثر ما به سخت؛ لتعظيمها لحرمة عبيد الله، ولعلمها أن ما بيديها من مال الله تعالىٰ، بخلاف من استعظم العطاء ومن، فإنه توهم أن ما بيده مال له، وملك له.

قال السلمي: «ومن عيوبها: استعظام ما تعطي وما تبذل والافتتان به علىٰ من يأخذ».

من عيبها استعظامه عطاه .... ومنّه علىٰ الذي أعطاه

أولاً: سبب العيب:

رؤية العبد ما بيده ملك له بخل به:

فلم تسخ نفسه بالعطاء، حتىٰ إذا أعطىٰ استعظم العطاء، ومن به أعطىٰ وهذا الوصف يقضي بهلاك صاحبه؛ إذ منّه علىٰ أخيه لم يقم بواجبه، ويحسن أن يقال للمان المستكثر: «ما لك لست له مالك، فإن ظننت ذلك فأنت بلا شك هالك».

وذاك من رؤيته لملكه .... وبخله الذي قضىٰ بهلكه

ثانياً: دواء العيب:

رؤية العبد ما أعطاء منة من الله تعالى:

فإذا رأى العبد ما أعطاه مولاه عز وجل من العطايا الجزيلة التي لا نهاية لها منّة الله تعالى عليه بذلك من غير حول من العبد ولا قوة، وإنما ذلك من فضل المولى وإحسانه وجوده وامتنانه عامل العبد بما عامله الله تعالى به، فيعطي ولا يستكثر، ولا يمن ولا يفتخر، وهذا يكون حال العبد مع العباد، ويسلك في ذلك سبيل أهل الرشاد، فإذا سلك هذا المسلك الرشيد ولم يمنّ بما أعطى لإخوانه من العبيد انتفت عنه علّة المنّ والاستعظام.

دواؤه رؤية منّ الله .... بكل ما يعطي بلا تناهي

وإذا تحقق العبد أن ما بيده من مال هو مال الله تعالى جعله بيده عارية، وهو في المال بمنزلة الأمين على مال سيده والحافظ لمال مالكه، وأنه ينتظر العزل في كل وقت راعى في ذلك المال حق عبيد الله تعالى، فلم يبخل بالعطاء، وإذا أعطى لم يستكثر العطاء، ولا يمن به على من أعطى؛ إذ لا يمن العبد بما يعطي من مال غيره، ولا يستعظم ما خرج من غير خزائنه، وإنما هو واسطة أجرى المولى العطاء على يديه ليوصله لمن أراد المولى أن يوصله إليه.

وإنـــما هو أمين حـــافظ .... في مالـــه الذي يحافظ

يوصل الأمر على ما أمرا .... حسبما قسم أو ما قدرا

والموصل لا يصلح له أن يفتخر بما وصله، مما أمر بتوصيله، لمن قسم له، وكذلك القاسم، هذا بالنظر إلى الموصل نفسه، والقاسم فإنه مأمور بتوصيل ما وصل لمن قسم له، فلا يحسن منه أن يفتخر بما وصل من مال غيره؛ لعلمه أن ما وصله ليس له منه شيء، لكن الموصل له يشكر من وصل له شيء على يديه.

والفخر لا يصلح بالتوصيل .... ولا بقسم واجب التحصيل

وإنما ملكه الله تعالى فضلاً منه تعالى، ثم أراد انتزاعه منه حكم بالعدل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:23]، فيجب على مَن ملكه الله تعالى شيئاً أن يلاحظ ذلك، ولا يضف إلى نفسه شيئاً مما بيده؛ لأنه عبد لا يملك شيئاً.

إذ كل ما يملكه من فضله .... ثم له انتزاعه بعدله

فمن لا يملك من الأمور شيئاً، فمن حقه ألا يسر بما حصل منها في يده؛ لعلمه أن ما نزل منها بيده لا يقتضي ملكه له، فإن سر بذلك كان سروره بزائل لا يملكه.

قال السلمي: «مداواتها: أن يعلم أنه يوصل إليهم أرزاقهم، وأنّ الرازق والمعطي في الحقيقة هو الله تعالى، وأنه واسطة، ولا يتعاظم في إيصال حقٍّ إلى مستحق».

* * *

العيب السابع والتسعون
التظاهر بالفقر مع الكفاية

إظهار العبد الفقر، ومعه كفاية من رزقه، ومَن رُزق الكفاية فقد أعطي خيراً كثيراً؛ لأن الله تعالى اختار له ما اختاره لوسط خلفه، وما دعا به النبي ﷺ وطلبه لنفسه وآله، فعن أبي هرير ﷺ، قال ﷺ: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا»[1].

قال ابن عطاء الله في «حكمه»: «من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك».

---

(1) في سنن النسائي الكبرى10: 391، وصحيح ابن حبان14: 254.

وعن سعد بن مالك ﷺ، قال ﷺ: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي»[1].

قالوا: «ووجدان الكفاية في الرزق، وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة، فإذا لم يقنع العبد بذلك، فدليل على وجود العيب في نفسه».

قال السلمي: «ومن عيوبها: إظهار الفقر مع الكفاية».

من عيبها إظهاره للفقر .... مع كفاية ورزق يجري

أولاً: سبب العيب:

يرجع لأمور منها:

1. **الطمع في الخلق خسة العقل:**

2. **فقد اليقين مع عدم الهمة العلية:**

وكل ذلك عيوب في النفس قادحة فيها، وينشأ عنها من العيوب إظهار العبد الفقر، فيتحلى بحلية الفقراء، ليعطي شيئاً لا يكون له به الغناء.

وهذه حالة أهل الطمع الأخساء الذين لا يقين لهم ولا علو همة، وقد كان أهل التوفيق حالهم غير هذا.

وذلك من جملة وحشته .... وفقه يقينه مع همـــــــته

ثانياً: دواء العيب:

إظهار الكفاية مع القلة:

---

(1) في مسند أحمد3: 168.

قال السلمي: «ومداواتها: إظهار الكفاية مع القلّة، سمعت جدي يقول: كان الناس يدخلون في التصوف أغنياء ويفتقرون ويظهرون الغني، وفي هذا الوقت يدخلون في التصوف فقراء ويستغنون ثم يظهرون للناس الفقر».

دواؤه إظهـــــــاره الكفايه .... مع قلـــــــة وصبره بالغايه

فابن نجيد قال في التصوف .... قولاً صحيحاً ظاهر التصرف

وذلك أن الناس إذا دخل أحدهم منهم في طريق التصوف يبني أمره على قاعدتي جريان الشرع على ظاهره، والحقيقة في باطنه، فيجمع بينهما، وهذه طريق أولياء الله العظام العلماء الأعلام الذين سلكوا مسلك الرسول ﷺ، واقتدوا بأصحابه الكرام، ومَن تبعهم بإحسان.

ومن أحوالهم ﷺ أنهم كانوا يوثرون الفقر على الغنى، فافتقروا بعد غناهم، وستروا مع ذلك حالهم، فتلبسوا بالحالة التي كانوا عليها في حالة الفناء كي لا يشتهروا بين الناس بحالة الفقر وصيانة لأنفسهم من لباس ثياب الطمع القادح في حالهم المحط لهم عن درجة كمالهم، وقد مدح الله تعالى قوما كان هذا حالهم، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾[البقرة:273].

لما كثر الطمع، وقلّ الورع، وضعف اليقين، وسفلت الهمم انعكس حال الناس، وصار الغني يظهر الفقر والإفلاس، ومَن كان حاله هكذا، فقد تمذهب بسوء المذاهب، وعرض نفسه لأعظم المصائب.

واليوم صار الحال عكس الحال .... إذ يظهر الفقر كثير المال

وحالة النفاق فيمن أظهر الفقر، وكان غنيا ظاهرة؛ لأنه خالف ظاهره باطنه، وهذه حالة المنافقين ووصفهم.

وأما كونه مرائيا فلإظهاره حالة، وحقيقتة غيرها، وأما إيثاره الدنيا فلأنه طالب لها، وراغب فيها حتىٰ أفرط في الطلب من غير وجه يباح له الطلب عليه.

وأما حب الأغنياء، فلأنه محتاج إلىٰ ما في أيديهم، وطامع وراغب فيه، واحتياجه إليهم صيره محبا لهم ومعظماً، ومَن أحب أحداً لغناه، أو عظمه لذلك، فقد أحب وعظم مَن لم يعظمه الله تعالىٰ، وهذا كله ضرر في الآخرة علىٰ من كان حاله كذلك، وبهذا كانت مصيبته عظيمة قبيحة رذيلة ذميمة. تضعف اليقين، وتذهب بالدين.

وهـــــــذه مصيبة عظيمه .... قبيحة رذيلـــــــة ذميمه
قد جمعـت مع النفاق الريا .... إيثاره الدنيا وحب الأغنيا

قيل: «من تواضع للغني لأجل غناه ذهب ثلث دينه»، والمرائي الموثر للدنيا المحب للأغنياء لا بُدّ له من التزين لأرباب الدنيا، ومراءات الأغنياء؛ لينال منهم مقاصده ويحصل فوائده، ولم يلتفت إلىٰ نقص دينه ولا إلىٰ ضعف يقينه. إذ حب الشيء يعمي ويهم.

وثلث الدين بذاك يذهب .... إذ التزين عليه يغلب

* * *

العيب الثامن والتسعون
رؤية فضله على إخوانه

إذا كان العبد يرىٰ لنفسه الفضل علىٰ أقرانه، ويزكي نفسه بين إخوانه، فذاك دليل علىٰ رضاء عن نفسه، وقد علمت ما في الرضى عن النفس من الأمور الذميمة، والأمراض والعيوب العظيمة التي توثر القلب علة، وتحدث في الدين قلة.

قال السلمي: «ومن عيوبها: رؤية فضله علىٰ إخوانه وأقرانه».

من عيبها رؤيته لفضله .... علىٰ قرين صاحب من أهله

والحاصل أن من كان يرىٰ الفضل علىٰ أبناء جنسه، فليعلم أن ذلك عيب من عيوب نفسه، فالعاقل لا يرىٰ لنفسه فضلاً، ولا يثبت لها كمالاً أصلاً، ولا فصلاً.

قال أبو سليمان الداراني: «لو اجتمع الناس علىٰ أن يضعوني، كإيضاعي عن نفسي لما قدروا علىٰ ذلك».

وقيل: «من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره».

أولاً: سبب العيب:

وذاك من جهالة بالأصل .... وخسة لاحقة في الفصل

1. جهالته بأصله:

2. خسة العقل في فصله:

ولو علم أصله وطلب فصله لم ير لنفسه فضلاً، ولم يكن؛ لأن ينسب لهما كمالاً أصلاً، وكيف يرىٰ الفضل لنفسه من كان أوله نطفة مذرة وآخره جيفة

قذرة، وهو بين هذين ظرف للعذرة، وقد بلغ عمر بن عبد العزيز ﷺ أن ابنه اشترىٰ فصاً بألف درهم فأرسل إليه: «أن إذا أتاك كتابي فبع الخاتم، وأشبع ألف بطن، واتخذ خاتماً من درهم، واجعل فصّه حديداً، واكتب عليه رحم الله مَن عرف قدر نفسه».

ثانياً: دواء العيب:

ويداوىٰ بأمور منها:

1. أن يرى العبد عيوب نفسه:

وما اقترفه من المعاصي والذنوب، وما تلبست به من كثرة العيوب، فإذا رأىٰ نفسه بهذا النظر، ونظر في عيوبها واعتبر لم ير لها فضلاً، ولم تكن عنده للخير أهلاً.

وقيل لأبي زيد: «متىٰ يكون الرجل متواضعا؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاماً، ولا حالاً، ولا يرىٰ أن في الخلق مَن هو شر منه».

2. شهود الفضل للإخوان:

وهذا بما أوجبته الأخوة الإيمانية، والروابط الإسلامية، فيرىٰ لهم الفضل بذلك وفاء بالحقوق التي أوجبها الإيمان، والحرم التي اقتضاها الإسلام، واعلم أنّ عدم الوفاء بالحقوق من أعظم العقوق.

قال السلمي: «ومداواتها: العلم بنفسه ولا أعلم به منه، وحسن الظن بأقرانه ليحمله ذلك علىٰ احتقار نفسه، ورؤية فضل إخوانه وأقرانه، ولا يصح له ذلك إلا بعد أن ينظر إلىٰ الخلق أجمعين، أجمع بعين الزيادة وينظر إلىٰ نفسه بعين النقصان».

دواؤه رؤيته لنفسه .... بذنبه وعيبه ولبسه

ثم شهود الفضل للإخوان .... بموجبات ظاهر الإيمان

وإذا حصل العلم للعبد بأن جميع الخلق من المؤمنين ـ من كان منهم صالحا اهتدىٰ، أو مسيئاً تجاوز الحدود واعتدىٰ ـ أفضل منه، فبذلك يصح له كمال شهود الفضل للإخوان، ويصح له الوفاء بحقوق إخوة الإيمان، وروابط الإسلام، وهذا هو التواضع الحقيقي الذي لا يخالطه كبر.

ولا يصح ذاك دون نظره .... لجملة الخـــــلق بما في خبره

مع أنهم أفضل منه أبداً .... من كان منهم صالحاً ومن عدا

ورؤية العبد لنفسه فضيلة علىٰ غيره من خلق الله تعالىٰ شاهدة بأن في نفسه رذيلة موهنة لدينه موجبة لنقص في يقينه، وهو وصف لئام الناس الذين لا عقل لهم وافراً، ولا حسب ولا نسب ظاهراً، وأهل الفضل يرون الفضل لغيرهم لا لهم، وهذا خير لا بأس به، ونظر سديد لا قدح فيه.

فمَن رأىٰ لنفسه فضيله .... فهو الذي في نفسه رذيله

ولا شك أن مَن يرىٰ الفضل لكل الناس محسنهم ومسيئهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاه، فهو خير لا بأس به، ونظره ذلك دليل علىٰ اتضاعه عند نفسه وبراءته من عيب نفسه، وخروجه من دائرة حسه.

ومن يرىٰ الفضل لكل الناس .... فذاك خير ما به من بأس

قال أبو عبد الله الشجري: «لك فضل ما لم تر فضلك، فإذا رأيت فضلك فلا فضل لك».

ونحو هذا قولة الشجري .... العالم المقـــــــدم الزكي

ما لم تر لنفسك الفضيله .... فلك فضل واعكس الرذيله

* * *

العيب التاسع والتسعون
استجلاب الفرح باللهو

هذا عيب من العيوب المبعد عن الله تعالىٰ الموجب لعدم همته، وهو استجلاب الفرح بما يتعاطاه من اللهو واللعب والمرح.

وقد عتب الله تعالىٰ علىٰ من اشتغل بذلك فقال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾[الأعراف:51]، ونفىٰ محبَّته تعالىٰ عمَّن آثر الفرح، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:76].

والمرحُ أن ترتع النفس في تيه اللهو، وتسرح في ميدان اللعب، وهذا حال أهل القلوب المريضة، والأنفس المعيبة، حاشىٰ أهل اليقظة ذوي القلوب الزكية، والأنفس المرضية.

قال السلمي: «ومن عيوبها: حمل النفس ما يستجلب لها الفرح».

من عيبها استجلابه للفرح .... باللهو واللعب ثـــم المـــرح

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. جهالة العبد بحال الوقت:

2. عدم خوفه من موجبات المقت:

فإنه يحمله علىٰ إيثار الفرح، والاشتغال باللهو واللعب ومرح النفس.

والمراد بالوقت الزمان الذي هو ظرف الأنكاد والأغيار، ما دام العبد في هذه الدار، وإذا كان حال الوقت هكذا، فكيف يصفو للعبد فيه أو يطيب له

وقت، أم كيف لا يخاف موجبات المقت من الله تعالى، لكن الجهل عماية، وأمن من موجبات المقت غواية.

وذاك من جهل بحال الوقت .... وترك خوف موجبات المقت

ثانياً: دواء العيب:

1 .العلم بعدم محبة الله تعالى للفرحين:

والترهيب من دوام الفرح، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[القصص:76]، ففي هذه الآية زاجر شاف، وترهيب كاف من إيثار الفرح الذي هو عيب النفس، وكيف لا يكون عيباً، وهو موجب لنفي محبة الله تعالى عمن جعله حالاً من أحواله، وشغلا من أشغاله.

2 .العلم بدوام حزن النبي ﷺ وذكره:

والترغيب في دوام الحزن، فعن الحسن بن علي ﷺ: سألت خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصافاً ـ قلت صف لي منطق رسول الله ﷺ قال: «كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة... »[1].

فإذا علم العبد أن الفرح موجب لنفي محبة الله تعالى، وأن الحزن من أوصاف رسول الله ﷺ آثر الحزن على الفرح، ورغب في ذلك.

فبذلك كان حصول العلم بأن الله تعالى لا يحب الفرحين، وأن الحزن من صفات سيد المرسلين دواء لعيب النفس الذي هو استجلاب العبد الفرح.

---

(1) في المعجم الكبير22: 155، وشعب الإيمان3: 24،

قال السلمي: «ومداواتها: أن الله يبغض الفرحين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:76]، وفي صفة النبي ﷺ أنه كان دائم الأحزان متواصل الفكر».

دواؤه العلـــــــم بأن الله لا .... يحب من يفرح أو قد شغلا

ومن صفات المصطفى المختار .... دوام حـــزنه مع الأذكار

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال ﷺ «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا»[1].

وعن أبي الدرداء ﷺ، قال ﷺ: «إن الله يحب كل قلب حزين»[2].

وفي الحديث قد أتى عن ربنا .... بأنه يحب قلباً حزناً

ولهذا آثر القوم الحزن على الفرح، والقبض على المرح، وكان الحزن من صفات الرسول ﷺ، ومن أوصاف أصاحبه الكرام، ومن تبعهم بإحسان، وكان صاحب الحزن يقطع من طريق الحق في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه سنين.

قا ل مالك بن دينار: «القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب».

قال بشر بن الحارث: «الحزن ملك، فإذا سكن في موضع لم يرض أن يساكنه أحد»

قال ابن دينـــــار اللبيب مالك .... كلمـــــــــة نافعة للسالك

إن لم يكن في القلب حزن خربا .... مثل خراب البيت مهما خربا

---

(1) في سنن ابن ماجة1: 424.

(2) في مسند البزار10: 83، والمستدرك4: 351، ومسند الشاميين3: 160.

العيب المئة

رؤيته لصبره موجب لشكره

رؤية العبد لصبره وأنه معدود من الصابرين عيب من عيوب نفسه، إذا رمته لصبره، وأنه معدود من أهله دليل على رضاه عن نفسه، وأنها من الصابرين، فإذا رؤية العبد لصبره عجب يستدعي عيباً مثله فيترك العيب، وإذا تركب عيب النفس غلظ حجابها الحاجب لها عن الله تعالى، وعظيم مرضها الموهن لها، وفي ذلك من الأضرار ما لا يخفى.

وأيضاً مما يحقق أن رؤية العبد لصبره عيب من عيوب النفس أن رؤية العبد لصبره يقتضي شعوره بنزول موجبه به، والصبر عند الناس من موجبات الشكر، وهي النعمة، فاستشعار العبد بنزول موجب الصبر، استشعار غير مصيب فيه؛ لأنه أنزل النقمة التي يصبر عليها منزلة النعمة التي يشكر عليها، وهذا إنما يصدر من الأنفس المعيبة الآيبة المريضة.

قال السلمي: «ومن عيوبها: أن يكون في محلّ الشكر، وهو يظنُّ أنه في مقام الصبر».

من عيبها رؤيته لصبره .... مع أنه من موجبات شكره

أولاً: سبب العيب:

وجود الغلظة في النفس:

فهذا موجب لغباوتها وعدم فطنتها، وعدم حذرها من التباس الأمور، وعدم الحذر موجب للوقوع في الغلط في الأمور والتباسها، فلذلك التبس الأمر

على الرائي لصبره، فظن أنه من موجبات النقم، وهو عند أهل الحق من موجبالت الشكر.

وذاك من غلظة في نفسه .... وعدم المحاذرة من لبسه

ثانياً: دواء العيب:

رؤية رحمة الله تعالى في كل نعمة ونقمة:

إذا رأى ما يصل إليه من أثر رحمة مولاه في حال النعمة والنقمة على أن ما ينزله به مولاه عز وجل، فهي نعم في طي نقم ومنح في طي المحن، فيجعل في مكان صبره شكراً، وإن صبر فصبره نعمة أُخرى توجب للمولى عليه شكراً، فلا يرى لنفسه صبراً؛ إذ هو من النعم التي يقتضي المولى منه عليه شكراً، فافهم ما أقوله، وحقق مضمنه ومحصوله.

قال السلمي: «ومداواتها: رؤية نعم الله في جميع الأحوال».

دواؤه رؤيته للرحمه .... في كل نعمة أو نقمه

ولطف المولى جل وعز لا يفارق عبده في كل ما قضى عليه وفي كل قدر قدره، قال ابن عطاء الله: «من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره».

فالعبد في كلِّ أحواله محفوف برحمته مولاه، منوط به فيما قدره عليه وقضاه، فلا يقضي على العبد قضاء إلا وفيه خير له، فهو ملائم، وإن كان مؤلماً في الظاهر، قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون ﴾[البقرة:216]، فكل أحوال العبد المؤمن خير؛ إذ هو مظهر الأسماء الجلالية والجمالية.

إذ لطفـــــه ملازم للقدر .... كما أتى عن ربنا في الخبر

وأنه لا يقضي للعبد قضا .... إلا وفيه خيره كما مضى

قال أبو عثمان: «الخلق كلهم مع الله تعالىٰ في مقام الشكر، ويظنون أنهم معه في مقام الصبر»؛ إذ كل ما ينزله تعالىٰ من نعمة أو نقمة، فهي رحمة منه تعالىٰ بهم، وملطوف بهم في الحالتين؛ لأنه تعالىٰ أراد أن يتعرف إليهم بالسراء والضراء.

قال أبو عثمان كل الخلق .... مع الإله في مقام الصدق

أعني به الصدق بحال الشكر .... وهم يظنوه مقام الصبر

ففي السراء؛ ليدخلهم عليه من باب الشكر، وفي الضراء؛ ليدخلهم عليه من باب الصبر.

وفي تعرفه تعالىٰ إليهم في الحالتين، وإدخالهم عليه من البابين رحمة لهم، ونعمة عليهم، فهم في ذلك كله علىٰ كل حال بحال الشكر، ويظنون أنهم في إحدىٰ الحالتين أنهم بحال الصبر.

الثاني والستون: تتبع الرخص:

إذا كان العبد يأخذ في أموره بالرخص والتأويلات الضعيفة، والأقوال الشاذة، فذلك عيب من عيوب النفس يميله عن جادة الطريق، ومنهاج أهل الصدق وأرباب التحقيق، وهذا بالنظر إلىٰ عامة المؤمنين، وهو في حقّ خواصهم أقبح من قبيحهم؛ إذ لا يسمح للخاصة في الأخذ في جميع أمورهم العادية والعبادية بالرخص والتأويل الذي يوجب نقصاً في كمال العبادات، وانحطاطاً عن الهمة العلية فيما يتعاطاه من العادات وليس هذا من شأن السالكين، ولا من أحوال المريدين، ولا من صفات خواص المؤمنين.

وقالوا: «من أنواع سوء أدب المريد المفضي إلى عطبه، نزوله عن مقتضيات الحقيقة إلى رخص الشريعة»، فقد عدوا هذا من الجنايات العظيمة الموجبة لانحطاط الرتبة المبعد عن محل القربة.

ولهذا قالوا: «إذا رأيت المريد انحط عن رتبة الحقيقة إلى رخص الشريعة، فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله، وفسخ عقده بينه وبين الله تعالى».

قال يوسف بن الحسين: «إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء».

وقال ابن شيبان: «من أراد أن يتعطل ويتبطل، فليلزم الرخص»، ويعني بالرخصة ما كان مضادا لحال المريد من تناول الشبهات واللذات، والميل إلى المألوفات والمعتادات، والركون إلى الدعة والراحات، وارتكاب الشبهات والتأويلات، فإن حال المريد يقتضي مباينة هذا كله، وإن كان بعض ذلك مباحا في رخصة الشرع لعامة الناس.

قال السلمي: «ومن عيوبها: تناول الرخيص بالشبهات».

من عيبها الترخيص والتأويل .... وترك ما يهدي له الدليل

وسبب العيب:

صدور أعمال العبد مجازفة:

فتكون من غير تثبت ولا تحرير في العمل، فتتشعب عليه الطرق، وتشتبه عليه المناهج، ويكون ذلك سبباً لأخذه بالرخص والتأويل، ويترك ما يهدي إليه الدليل، وكذا إذا عدم العامل حال الصدق في معاملته الحق، فهذا أيضا سبب للأخذ في الأعمال بالرخص والتأويل.

وذاك من مجازفات الحق .... وعدم الحق بحال الصدق

ودواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1 .**الانتباه من الغفلة:**

2 .**ترك كل موجب يقتضي اشتباه الأمور:**

3 .**استشعار ما أتى من التحذير من الأخذ بالرخص:**

والتنفير من كل تأويل يحدث في العمل الخلل والنقص وأخذ بأوثق الأمور، وبني عمله على القول المشهور برئ من عيب الأخذ بالرخص والتأويل، ولم يترك ماهدى إليه الدليل.

دواؤه في ذا بالانتباه .... وترك كل موجب اشتباه

لما أتى فيه من التحذير .... وأخذه بأوثق الأمور

قال السلمي: «ومداواتها: اجتناب الشبهات وأنها تؤدى إلى فعل الحرام»، فعن النعمان بن بشير ﷺ، قال ﷺ: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمَن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه»[1].

وذلك العيب من شهوته، فهي التي أمالته إلى التحلي بذلك العيب من شهوته، ومن لعبه بأمور الدين قال تعالى: {اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ...} ، ومن نقصه في حاله ومذهبه، ولو تخلى عن الشهوات، لما أخذ بالرخص في المعاملات،

---

(1) في صحيح البخاري1: 20.

ولو تنزه عن اللعب في أمور الدين لما أخذ فيه بأضعف التأويلات، ولو كان كاملا في حاله ومذهبه لما تغير ورده في مشربه.

إذ ذاك من شهوته ولعبه .... ونقصه في حاله ومذهبه

الثالث والستون: الإغضاء عن عثراته:

الإغضاء هو انحناء الطرف، وميله عن النظر إلى الشيء.

والمراد به هنا عدم نظر العبد في نفسه، وما يصدر منها من عثرة وزلة، والمانع للعبد من نظره إلى ذلك أنسه بالراحة من شغله بأمور نفسه ومحاسبتها والنظر في عيوبها وأمراضها المانعة لها من القرب من ربها، وإلحاحه عن الترقي إلى المعالم القدسية، والكشف عن الحقائق الإحسانية.

فإذا كان العبد يجد من نفسه هذا الإغضاء، ويرضى منها بما به ترضى.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الإغضاء على نفسه في عثرة تقع به أو زلة وأمثالها».

من عيبها إغضاؤه عن نفسه .... في عثرة وزلة لأنه

براحة في تركه لعتبها .... وذلة عند شعور عيبها

وسبب العيب:

الرضى عن نفسه:

إذا كان العبد راضيا عن نفسه في كل الأوقات، ولم يعاتبها على ما يصدر منها من المخالفات، وتجترحه من السيئات، نشأ عن ذلك إغضاء عن عيوبها، وترك مناقشتها عما يصدر منها من ذنوبها، وهذا أحد الخصال الذميمة الناشئة عن الرضى عن النفس.

وأصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس، ومن رضي في كل الأوقات عن نفسه، فهو فاقد أنسه، ومحصور في دائرة حسه.

وذاك أصله الرضى عن نفسه .... في يومه وغده وأمسه

ودواء العيب:

التوبة النصوح:

جعل الله التوبة النصوح مرهماً لجراحات الذنوب، ودواء صارفاً لجميع العيوب، ومكفرة للزلات وسببا للإقالة من العثرات، ولذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين فقال: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهَّ تَوْبَةً نَصُوحًا ...}، وقال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللهَّ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

دواؤه تدارك الزلات .... بتوبة لجملة العثرات

فواجب على كل عبد التوبة من ذنبه على الفور؛ إذ بتأخيرها يتضاعف الذنب، ويعظم العيب.

قال أبو عثمان: «عامة المريدين من إفضائهم مع كثرة تقع لهم، أو هفوة، وترك مداواتها في الوقت بدواية حتى تعتاد النفس ذلك فتسقط من درجة الإزادة».

والمريدين لا يحسن منهم الإغضاء عن العثرات، والإقامة على الزلات التي تقع منهم، ولا يحسن منهم ترك التوبة منها؛ إذ حالهم لا يقتضي ذلك، ووقوع الذنب منهم عظيم حتى إذا وقع منهم ذنب أو ظهر لهم في أنفسهم عيب أسرعوا إلى التوبة من الذنب، وإلى مداواة العيب، وإن تركوا استعمال الدواء كان الداء أقطع، والزيادة في العيب أسرع؛ لأن الذنب والعيب تسرع إليهما النفوس، ويحصل من الإقامة عليها الضر والبؤس.

قال أبو عثمان للمريدين ..... بلية ترديهم مريدين
إغضاؤهم عن عثرات تقع .... وتركهـــم دواء ذاك أفظع
لأنه تعتاده النفـــــــوس .... فيحصل الضر به والبؤس

* * *

العية الواحد بعد المئة
الاغترار بالكرامات والمنامات

الخالق جل جلاله وصف نفسه بالرحمة، وواسع المغفرة؛ لئلا يقنط العباد من رحمته، لكن وإن وصف تعالىٰ نفسه بالرحمة فاقتضىٰ من عبيده الوقوف عند أوامره ونواهيه، والمسارعة إلىٰ ما يرضيه، والوقوف عند حدوده، والوفاء بعهوده، فإذا خالف العبد أوامر ربه، وكان مطيعاً للشيطان، ومن حزبه.

فلا ينبغي له الاغترار بما وصف به الخالق نفسه من واسع المغفرة، ولا بمعنىٰ ما دلّ عليه اسمه الرحمان أنه تعالىٰ ما وصف نفسه بجمال، إلا قرنه بجلال فقال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيم. وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيم﴾ [الحجر:50] ، وقال تعالىٰ: ﴿غَافِرِ الذنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:3].

وكذلك لا يغتر بما يراه في منامه من حسن المرائي؛ إذ قد يرىٰ في منامه ما يدلّ علىٰ قربه، وهو بعيد ناء، وهذه أحوال الحمقاء الذين لا حظ لهم من التقوىٰ.

والرؤية الصالحة تسرّ ولا تغر، ولا تنفع ولا تضر، والمغتر بمنامه الصادق، وبما وصف به نفسه الخالق مغرور، وقلبه من خوف الله تعالىٰ خال غير معمور.

قال السلمي: «ومن عيوبها: الاغترار بالكرامات»

من عيبها اغترارها بالخارق .... وبمنامه المصيب الصادق

وذا غرور ما له حقيـــــقه .... إهمـــاله من أدب الطريقه

الاغترار بالمنام المصيب الصادق؛ لأنه قد يرىٰ العاصي ما يسره، ويرىٰ المطيع ما يضره، وهذا لا حقيقة له وإنما الحقيقة ما يعمله في يقظته من خير يثاب عليه، أو شر يعاقب عليه.

وإهمال الاغترار بالله تعالىٰ، وبما وصف به تعالىٰ نفسه من الرحمة والمغفرة، والاغترار بالله وارتجاء الرحمة والمغفرة منه إنما يكون مع وجود العمل، وترك المعاصي والزلل.

قال ابن عطاء الله: «الرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية».

وقال معروف الكرخي: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق».

وقال الحسن: «إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتىٰ خرجوا من الدنيا، وليست لهم حسنة، يقول أحدهم أحسن الظن بربي كَذَبَ، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل، وتلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:23]».

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمو منها:

1. الجهل بأن العبرة بالاستقامة لا بالكرامة والمنامة:

2. موافقة هوى النفس:

فميل النفس إلى الاغترار بجمال الحق تعالى، وعدم الخوف من جلاله، وظن الجهلة من الناس أن الاغترار بالله تعالى منجي من عقاب الله، كلا والله إن ربك لشديد العقاب، وأنه لغفور رحيم.

فليخف العبد قيام العدل .... وليرتج أيضاً نوال الفضل

ومطلق الكرامة أهل الصدق لا يعتبرونها، ولا يعتمدون عليها، ولا يقفون عندها؛ إذ الوقوف عندها حجاب، والاعتداد بها، والاعتماد عليها خطأ غير صواب، فمن اعتمد عليها ندم، ومن لم يعول عليها نجا وسلم، وقد يرزق الكرامة مَن لا تكمل له الاستقامة، ولذا قيل: «الاستقامة أعظم كرامة»، وليس مطلب العارفين وجود الكرامة، وإنما مطلبهم على الله تعالى الصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية.

فمن يكن يعتمد الكرامه .... فعن قريب تعـره الندامه

ومن يكن يعتبر المنامات .... فهو الذي تفوته المقامات

قال أبو الحسن الشاذلي: «إنما هما كرامتان جامعتان: كرامة الإيمان بمزيد الإتقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة، ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب».

وقيل لأبي المرتعش: «إن فلان يمشي على الماء، فقال: عندي من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي على الماء، وفي الهواء».

فأهل الصدق الذين عاملوا الحق بالحق، كيف لا يعتمدون على الكرامات، ولا يعتبرون المنامات خوفاً من الندامة، والميل عن طريق الاستقامة، وأن همتهم المقامات العلية، والترقي في الحضرة القدسية.

ثانيا: دواء العيب:

ويعالج بأمور منها:

1 .الإعراض بالقلب عما يبدو للعبد من أنواع الكرامات:

أو ما يراه من صالح الرؤية في جميع الأوقات، فالعاقل لا يَسكن إلى ذلك؛ إذ السكون إليه فتنة.

قال ابن عطاء الله: «ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة. الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها. إنما نحن فتنة فلا تكفر».

2 .ترك ما تدعو إليه الأغراض النفسانية:

التي منها الاعتماد على الكرامة، واعتبار المنامة.

3 .الخوف من أن تكون الكرامة والمنامة استدراجاً:

فإذا اعتمد عليه واعتبره ووقف عنده يكسبه اعوجاجاً.

دواؤه في ذلك الإعراض .... وترك ما تدعو إليه الأغراض

وخوفه من كونه استدراجا .... يكسبه وجوده اعوجاجا

قال السلمي: «ومداواتها: أن يعلم أن أكثرها اغترارات واستدراج، والله تعالى يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُون﴾[القلم:44]، وقد قال بعض السلف: «ألطف ما يخادَع به الأَولياء الكرامات والمعونات».

والمعونة وهي الرؤية الصالحة، وإنما كانت هذه الخدعة لطيفة؛ لأنه قد يرى أن الكرامة من استقامته، والرؤية من حسن أحواله، فإن ركن إلى كرامته، أو اعتبر ما يراه في نومته، ووقف عند ذلك، فكانت الكرامة والرؤية خدعة انخدع بها، والواجب على الولي أن لا يركن إلى ما لا نهاية له ولا تمام.

فالولي قد يرىٰ أن حصول الكرامة له، ورؤيته الصالحة بها تتم شؤونه، فيقف عندها أنساً بها، وركوناً إليها.

قال الجنيد العالم الزكي .... ألطف ما يخدع به الولي

كرامـــة ومثلها معونه .... إذ قد ير بكـلها شؤونه

* * *

العيب الثاني بعد المئة
محبة مجالسة الأغنياء

إيثار حب الأغنياء، والميل إلىٰ أهل الدنيا عيب عظيم من عيوب النفس، وكذلك مَن لم يتق صحبة أهل العتو، فهو أيضاً عيب من عيوب النفس، وحب الأغنياء وإيثارهم علىٰ الفقراء ليس من شأن أهل التوفيق، ولا من أحوال أهل الطريق، بل من شأنهم حبّ الفقراء، وإيثارهم علىٰ الأغنياء والأمراء.

وقد أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع فقـراء الصحابة: كعمار بن ياسر وصهيب بن سنان وسليمان الفارسي وخباب بن مسعود وبلال ونحوهم من الفقراء، وهم المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:28].

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: «جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري، وقارئ يقرأ علينا؛ إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلم، ثم قال: ما كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله، إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا، فكنا نستمع إلىٰ كتاب الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن

أصبر نفسي معهم، قال: فجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا، ثم قال: بيده هكذا، فتحلقوا وبرزت وجوههم، له قال: فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحدا غيري، فقال رسول الله ﷺ: أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذاك خمس مائة سنة»[1].

والآية تدل على حب الفقراء، وإيثارهم على الأغنياء، وقد فعل ذلك ﷺ، وقد نهى تعالى عن أن يطيع الأغنياء فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف:28]، فهذه الآية تقتضي عدم حب الأغنياء، وعدم إيثارهم على الفقراء، وإتقاء أهل العداء.

قال السلمي: «ومن عيوبها: محبة مجالسة الأغنياء وميله إليهم وإقباله عليهم وكرامة لهم»

من عيبها إيثاره للأغنيا .... وحبهم دون الثقاة الأوليا

أولاً: سبب العيب:

حب ما في أيدي الأغنياء من متاع الدنيا:

فهو باعث على حبهم، وإيثارهم على الفقراء، ومن أحب الأغنياء وآثرهم ومال إليهم يتهم بطمعه فيما في أيديهم، وقد علمت ما في الطمع من الرذائل والذل الحاصل، والحرمان المتواصل، هذا مع وصفه بكل منقصة في دينه، وتنقص في همته، ونقص يقينه.

وذاك من حب الذي عندهم .... وهو بالأطماع قد يتهم

---

(1) في سنن أبي داود3: 323، والمعجم الأوسط8: 357.

ويحظى بالذل وبكل منقصه .... ولم تزل عيشته منغصة

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأدوية منها:

1. جلوس العبد للفقراء:

إذ جلوسه معهم يقع له بهم الأنس والألفة بما يشهد فيهم من التواضع، وطيب النفس والذل والقناعة، وغير ذلك من أحوال الفقراء التي اكتسبوها من حالة فقرهم، فترتاض بذلك نفسه، ويكسبها وحشة من جلوس الأغنياء؛ لما يعلمه ويشهده من أحوالهم المضادة لأحوال الفقراء، فبهذا كان الجلوس مع الفقراء دواء ينفي عن النفس العيب الذي هو إيثار الأغنياء.

قال السلمي: «ومداواتها: مجالسة الفقراء والعلم بأنه لا يصل إليه مما في أيديهم إلا مقدار ما قدره الله له، فيقطع الطمع منهم، فيسقط ذلك محبتهم والميل إليهم، ويعلم أن الله تعالى عاتب نبيه ﷺ إلا في مجالسة الفقراء».

2. تركه لذكر شأن الأمراء:

لأن مَن ترك ذكر شيء دل تركه لذكره على عدم حبه له، وإيثاره لغيره، فترك ذكر شأن الأمراء دليل على عدم حبه لهم وإيثاره لغيرهم، وحكم الأغنياء، كحكم الأمراء بجامع وصف الغناء.

3. العلم بأن حبه للأغنياء طمع في نفسه خفي عنه:

وحبه لدنيا لم يحصل له منها شيء، ودليل حبه للدنيا أنه أحب من أجلها الأغنياء، ومن أحب شيئا أحب ما يحبه، وكان عنذاك فاضلاً لا مفضولاً.

دواؤه جلـــوسه للفقرا .... وتركه لـــذكر شأن الأمرا

وعلمه بأن حب الأغنيا .... من طمع في نفسه قد خفيا

وحب دنيا ما لها من حاصل .... إذ إن محبوب الحبيب فاضل

وحب العبد للأغنياء، وإيثاره لهم على الفقراء دليل على طمعه فيما في أيديهم من متاع الدنيا، والطامع حريص، والحرص لا يزيد فيما قدره الله تعالى في أرزاق العباد؛ إذ الرزق مقدر مقسوم والأجل معلوم، وفرغ ربك من ثلاث: الرزق، والأجل، والعبد شقي أو سعيد، فإذا لا يزيد الحرص بميل صاحبه إلى الخلق إلا الغرور؛ لأنه يغتر بسبب حرصه على نيل ما لم يقدر له، وذلك غير ممكن وقوعه.

ولن يزيد الحرص في المقدور .... بالميل للخلق سوى الغرور

وإنما تخير ﷺ لنفسه جلوسه للفقراء؛ إذ ذلك مختار الله تعالى، وبذلك أمره ربه تعالى، فاختار عليه ﷺ ما اختار ربه له، وأمره به.

فعلى العبد أن يختار لنفسه ما اختاره ﷺ لنفسه، وأمر به، وهو حب الفقراء، ومجالسته معهم، وإيثارهم على غيرهم، وفي ذلك خير الدنيا والآخرة، وعليه أيضا أن يترك ما عوتب ﷺ، وهو جلوسه مع الأغنياء، لما فيه من شر الدنيا والآخرة.

والمصطفى المختار قد تخيرا .... لنفسه جلوسه للفقرا

وقال أيضا بهم أمرت .... وبجلوس غيرهم عتبت

ومحبة الفقراء ومجالسهم وموثرهم عن غيرهم ينال بذلك المحيا في الحياة، وفي الممات، وفي هذا ترغيب للعبد في حبهم وجلوسه معهم، وإيثارهم على غيرهم.

محياهم المحيا كذا الممات .... لأنهم قوم لهم ثبات

وعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة، فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً، يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة»[1].

وقد دعا أن يحييه مسكيناً .... فكان فضلاً واضحاً مبيناً

فطلبه لذلك يقتضي تفضيل الفقراء والمسكين على الأغنياء تفضيلاً واضحاً بيناً لا خفاء فيه؛ إذ لا يطلب ﷺ لنفسه إلا الأفضل، ولا شك ولا مرية أن أحوال الفقراء والمساكين أحوال سنية، وأخلاقهم زكية، وأفعالهم مرضية، ولذا طلب ﷺ أن يكون مسكينا حياً أو ميتاً، وأوصى علي ﷺ بحبهم.

وما زال أهل الخير والصلاح يوصون إخوانهم المؤمنين بما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وما فيه خير الدارين، واقتفوا في ذلك سنة الله مع عبيده، وفعله ﷺ مع أمته.

أوصى علي المرتضى بحبهم .... وكم أتي في شأنهم وقربهم
وقد قضيت ما وعدت أولاً .... مهذباً مقرباً محصلاً
قربتها برجز مفيد .... للحفظ والتحصيل والتقييد
قربته في رجز مشطور .... لأنه أحضى من المنثور
والحمد لله على ما أنعم .... ثم له الشكر على ما تمم

* * *

(1) في سنن الترمذي4: 577، وسنن ابن ماجة2: 1381.

العيب الثالث بعد المئة
زينة الظاهر وغفلة الباطن

اهتمام العبد بملابسه وهيئته ومنظرة وبيته وسياته وتلفونه وساعته وغيرها من المتاع الظاهر التي يظن أنه ينال الدرجة العالية عند الناس بها، وهذا عيب من عيوب النفس؛ لأن الأمر بيد الله تعالىٰ، فهو الرافع لعباده بقرباتهم والمخفض لأعدائهم بمخالفاتهم.

والله تعالىٰ لا ينظر لهذه الظواهر، وإنما ينظر للباطن من الإخلاص والصدق وحسن السريرة والجد والاجتهاد والصبر علىٰ البلاء والضراء، فيجازي العبد عليها، ويرفع بين الخلق بعمله بها لا بزيه الظاهر، فمَن عقل اعتنىٰ بما يرضي ليرضى الناس، لا بما يرضي الناس فلا يرضى الخالق ولا الخَلْق.

والقناعة بالحاصل الموجود من الأقوات والملابس لما في عدم القناعة بذلك من تعب القلب والقالب، وفراغهما لما أنت به مطالب، فعن جابر ﷺ قال ﷺ: «عليكم بالقناعة، فإن القناعة مال لا ينفد»[1].

قال السّلمي: «ومن عيوبها: اشتغالها بالإصلاح الظاهر لزينة الناس، وغفلته عن إصلاح الباطن الذي هو موضع نظر الله تعالىٰ».

أولاً: سبب العيب:

ويرجع لأمور منها:

1. قلة الإيمان والغفلة عن الرحمن:

---

(1) في المعجم الأوسط 7: 84، ومسند الشهاب 1: 72، وفيه كلام.

فمن لم يعتن بقلبه ويرضى ربه وقع في المهالك، وانقاد للمزالق، وسعى في طريق لا نفع فيه ولا فائدة، إلا شقاء نفسه، فيظن أنه بفعله الظاهر يتعاظم شأنه، ولكنه يزدري بنفسه عند الله تعالى والبشر.

2. حب الدنيا والتعلق بها:

فمن انساق إلى الدنيا وزخارفها أردتها في مهالكها فأضاع عمره ووقته وماله فيما لا ينفع، بل يضره ويشقيه.

ثانياً: دواء العيب:

ويعالج بأدوية منها:

1. اليقين بأن إكرام الخلق بما جعل الله تعالى في قلوبهم:

فالله تعالى هو من يرفع من يشاء من عباده بأن يرزقهم المحبة والكرامة في قلوب عباد الله تعالى، فيحبونهم ويكرمونهم ويرفعونهم.

2. العلم بأن الباطن هو محل نظر الله تعالى:

وطالما أن الله تعالى ينظر للقلوب، فعلى العبد أن يعمل على إصلاحها، حتى يقبلها الله تعالى، ويجازي صاحبها ويوفقها ويرزقه القبول.

قال السلمي: «ومداواتها: أن يتيقن أن الخلق لا يكرمونه إلا بمقدار ما جعل الله له في قلوبهم، ويعلم أن باطنه موضع نظر الله فهو أولى بالإصلاح من الظاهر الذي هو موضع نظر الخلق».

خلاصة العيوب وأسباب وأدويتها

العيب الأول..... 11
توهم النجاة..... 11
أولاً: سبب العيب:..... 11
1. الجهل بأمر الدين:..... 11
2. موجبات الفتح والتمكين:..... 11
ثانياً: دواء العيب:..... 14
1. تطييب الغذاء:..... 14
2. تقوى الله تعالى:..... 14
العيب الثاني..... 16
الاسترواح بالبكاء..... 16
أولاً: سبب العيب:..... 16
ميلها إلى الراحة وطلبها للاستراحة:..... 16
ثانياً: دواء العيب:..... 17
استحضاره المستمر لمعاصيه وتقصير في طاعاته:..... 17
العيب الثالث..... 18

ظن الضر والنفع والرزق من غير الله تعالى 18
أولاً: سبب العيب:..... 19
رؤية الخلق والغيبة عن الملك الحق:..... 19
ثانياً: داوء المرض:..... 20
صحة الإيمان بوحدانية الذات والصفات والأفعال:..... 20
العيب الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن..... 22
الفتور في الطاعة وإخوانه..... 22
الأول: تقصيره في حقوق لله تعالى كان يقوم بها:..... 22
الثاني: عدم الاهتمام لتقصيره في حقوق الله تعالى:..... 23
ثالثاً: عدم رؤية تقصيره في حقوق الله تعالى:..... 23
الرابع: ظنه القيام بحقوق الله رغم تقصيره:..... 24
أولاً: سبب العيوب:..... 25
عدم العمل المشكور عند الله تعالى:..... 25
ثانياً: دواء العيوب:..... 26
1.دوام الالتجاء لربنا مع وجود الاضطرار:..... 26
2.ذكر الآلاء:..... 26
3.لزوم الذكر والتلاوة مع الحضور:..... 27
4.الفكرة في معنى الصفات وآثار أسماء الأفعال:..... 27

5. البحث عن المطعم والمشرب: 28
6. ترك كل باطل ومشتبه: 29
7. حفظ حرمة ذوي الإسلام محافظة لأخوة الإسلام: 29
8. دعاء السادات الأعلام: 30
العيب التاسع 30
فقدان لذة الطاعة 30
أولاً: سبب العيب: 30
1. شوب حصل في عمله، وهو الرياء: 31
2. فقد السنة: 31
3. خوض النفس في جملة الأسباب ذات اللبس: 31
ثانياً: دواء العيب: 31
1. الإخلاص بالعبادة: 31
2. موافقة السنة في فعل العبادة: 31
3. تصحيح البدايه: 32
4. صدق المحبة لمن إليه العمل: 32
5. التحقق في مقام العبودية ومعرفة حقوق الربوبية وتذكر الآلاء: 32
العيب العاشر 35
ظن النجاة بتعظيم الناس 35

أولاً: سبب العيب: 36
1 .غفلة العبد عن نفسه. 36
2 .عدم رؤية نقصها وعيوبها. 36
ثانياً: دواء العيب: 38
1 .استحضاره لكثرة عيوبه وآثامه: 38
2 .الحياء من الله تعالى بكثرة معاصيه وتقصيره: 38
3 .إساءة الظن بنفسه: 39
العيب الحادي عشر والثاني عشر 40
الحياة للدنيا والأغيار 40
الأول: فقد الحياة الآجلة: 40
أولاً: سبب العيب: 40
1 .حب الدنيا: 40
2 .اتباع الهوى: 40
الثاني: فقد حياتها الحق: 42
أولاً: سبب العيب: 43
1 .عتوها وشؤمها: 43
2 . جهلها بقدرها في علمها: 43
ثانياً: دواء العيبين: 44

مخالفة النفس: 44
العيب الثالث عشر..... 46
النفس لا تألف الحق..... 46
أولاً: سبب العيب:..... 46
إهماله لنفسه بالاعتناء بتزكيتها:..... 46
ثانياً: دواء العيب:..... 48
ملازمة الحق بطاعة الله تعالى:..... 48
العيب الرابع عشر..... 50
النفس تألف الخواطر الرديئة..... 50
أولاً: سبب العيب:..... 51
1. فقدان المراقبة:..... 52
2. عدم الذكر على المواظبة:..... 52
ثانياً: دواء العيب:..... 53
1. رد الخواطر من الابتداء:..... 53
2. الخوف من الوعيد:..... 57
3. دوام الذكر:..... 57
4. مراقبة العبد لمولاه جل جلاله تمنع النفس من تلبسها بالعيب..... 57
5. العمل على صلاح قلبه:..... 58

العيب الخامس عشر..... 60
الاشتغال بعيوب الناس..... 60
أولاً: سبب العيب:..... 61
1. الكبر:..... 61
2. الإعجاب:..... 61
3. الغفلة عن موجب العذاب:..... 61
ثانياً: دواء العيب:..... 62
1. نظره إلى ما في نفسه من العيوب:..... 62
2. صحبة الأخيار والأبرار:..... 62
3. السكون عن ذكر عيوب الآخرين ونشر أخبارهم:..... 64
العيب السادس والسابع والثامن والتاسع عشر..... 67
والعشرون والحادي والعشرون..... 67
الغفلة وأخواتها..... 67
الأول: الإصرار على الذنب:..... 67
الثاني: التواني:..... 67
الثالث: العجز:..... 68
الرابع: التسويف:..... 68
الخامس: الأماني:..... 68

أولاً: سبب العيوب:..... 69
1 .الكسل:..... 69
2 .عدم احتياط العبد لنفسه أن يوردها موارد النجاة:..... 69
ثانياً: دواء الأمراض: 70
1 . التوبة النصوح:..... 70
2 .رفض التسويف الناشئ عن طول الأمل: 70
3 .الرجاء الباعث على على العمل: 70
4 .الذكر الدائم:..... 70
5 .تقصير الأمل:..... 71
العيب الثاني والعشرون..... 72
طلب العوض على أعمالها..... 72
أولاً: سبب العيب:..... 73
1 .رؤية العبد أعماله:..... 73
2 .ملاحظ العبد أحواله:..... 73
ثانياً: دواء العيب: 73
1 .رؤية العبد التقصير في أعماله:..... 73
2 .عدم الصدق في أحواله:..... 73
العيب الثالث والعشرون..... 75

تزيين الظواهر وترك السرائر..... 75
أولاً: سبب العيب:..... 76
1.تعظيم الخلق:..... 76
2.ترك موجب الهدى والصدق:..... 76
3. ترك موجب التقوى والهداية:..... 76
ثايناً: دواء العيب:..... 77
الاعتناء بإصلاح السرائر يشغل عن إصلاح الظواهر:..... 77
العيب الرابع والعشرون..... 78
الرضى عن النفس..... 78
أولاً:سبب العيب:..... 78
1.غلبة الأوهام:..... 79
2.عدم الخوف من الآثام:..... 79
3.خوف القبر:..... 79
ثانياً: دواء العيب:..... 80
1.رؤية العبد فضل الله تعالى عليه:..... 80
2.ترك كل غافل ولاه:..... 80
3.الأخذ بالجدّ والتشمير:..... 80
4. ترك صحبة ذوي التقصير في العمل:..... 80

5. ترك صحبة من هو راض عن نفسه: 81
6. صحبة مَن ينتفع بصحبته: 81
7. اتهام نفسه وعدم الرضا عنها: 82
العيب الخامس والعشرون 83
فقدان لذّة الطاعة 83
أولاً: سبب العيب: 84
1. خيانة السريرة: 84
2. سقم القلب والبصيرة: 84
3. اتباع الشهوات: 85
ثانياً: دواء العيب: 85
1. خدمة الأخيار: 85
2. الشغل بالتقوى: 86
3. الاشتغال بالأذكار وملازمتها: 86
4. خفة البطن: 87
5. أكل الحلال: 87
6. التضرع لله تعالى والابتهال: 87
العيب السادس والسابع والثامن والتاسع والعشرون 89
والثلاثون والحادي والثلاثون 89

طلب الرئاسة بالعلم وأخواتها..... 89
الأول: طلب الرئاسة بالعلم:..... 89
أولاً: سببه المرض:..... 89
1. طلب الدنيا:..... 89
2. ضعف التقوى والخشية:..... 91
ثانياً :دواء العيب:..... 93
1. رؤية منّة الله عليه في أن جعله وعاء لأحكامه..... 93
2. رؤية تقصير شكره من نعمة الله عليه بالعلم والحكمة..... 93
3. التزام التواضع والانكسار..... 93
4. الشفقة على الخلق والنصيحة لهم..... 93
الثاني: حبُّ الجاه:..... 94
الثالث: الكبر:..... 94
الرابع: الفخر:..... 95
الخامس: التباهي:..... 95
السادس: قصد العامل بعمله غير الله تعالى:..... 96
أولاً: سبب العيوب:..... 96
1. إيثار الدنيا على الآخر:..... 96
2. نسيانه ذكر الله تعالى:..... 96

ثانياً: دواء العيوب:..... 97
1 .احتقار العبد لنفسه..... 97
2 .رؤيته التقصير في عمله..... 97
3 .الخلل في أحواله..... 97
4 .التواضع والانكسار:..... 97
5 .النصح والإشفاق والإبرار: 97
العيب الثاني والثلاثون..... 98
الكسل..... 98
أولاً: سبب العيب:..... 98
شبع الأبدان الناشئ عن امتلاء المعدة:..... 98
ثانياً: دواء العيب: 99
1 .الجوع:..... 99
2 .شغلها من غير ما هجوع:.....100
3 .إصلاح النفس:.....101
العيب الثالث والثلاثون.....102
كثرة الكلام.....102
أولاً: سبب العيب:.....103
1 .حب العلو بين الناس: 103

2. الجهل بما يجب أن يتحدث: 103
ثانياً: دواء العيب: 104
2. التكلم بعلم لا بجهل: 104
3. المؤاخذة بما يتكلم فيه: 104
4. لا يتكلم إلا في خير: 106
العيب الرابع والثلاثون 107
المبالغة في المدح والذم 107
أولاً: دواء العيب: 108
1. التزام الصدق مع الله تعالى: 108
2. إيجابه سخط الله تعالى: 109
العيب الرابع والثلاثون 111
السخط بعد الاستخارة 111
أولاً: سبب العيب: 111
اتهام العبد لربه في تدبيره: 111
ثانياً: دواء العيب: 111
1. اقتصار علم العبد على الظاهر لا على الحقائق: 111
2. حسن اختيار الله تعالى خير من حسن اختياره: 112
3. التدبير شأن الربوبية: 113

4. سخطه للقضاء لا يغير المقضي:..... 113
العيب الخامس والثلاثون..... 114
كثرة التمني..... 114
أولاً: سبب العيب:..... 115
1. الخوض في أقدار الله تعالى:..... 115
2. التدبير:..... 115
3. رفض القضاء:..... 115
ثانياً: دواء العيب:..... 115
1. تسليم العبد لمولاه تعالى في أحكامه، ورضاه بمنعه وعطائه:..... 115
2. اقتصار تمنيه على الخير:..... 117
3. اشتمال تمنيه على التفويض لله تعالى:..... 118
العيب السادس والسابع والثلاثون..... 120
الإنصراف للدنيا قولاً وفعلاً..... 120
الأول: الخوض بكلِّ واد:..... 120
الثاني: الأخذ في الأسباب بالمعتاد:..... 120
أولاً: سبب الأمراض:..... 120
1. فراغ لبه:..... 121
2. سكون الدنيا بقلبه:..... 121

ثانياً: دواء الأمراض: 121
1 .اشتغال العبد بالذكر: 121
2 .ترك ما لا يعني: 121
العيب الثامن والثلاثون 122
إظهار طاعته ليعظمه الناس 122
أولاً: سبب العيب: 124
محبة التزين بكثرة العبادات والطاعات: 124
ثانياً: دواء العيب: 124
1 .تعظيم العبد لربه تعالى بما شاهد من عظيم صفاته وأفعاله: 124
2 .علم أن النفع والضر بيد الله تعالى 125
2 .الاجتهاد في الإخلاص له سبحانه: 125
العيب التاسع والثلاثون والأربعون 126
والحادي والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس الأربعون 126
الطمع وأخواته 126
الأول: الذلّ: 127
الثاني: الصغار: 127
الثالث: خدمة غيره: 128
الرابع: جلب الرياء والتصنع: 129

الخامس: الخيبة:..... 129
السادس: فقد حلاوة الأعمال:..... 129
السابع: رفض الهمم العوالي وأخذه بأسافلها:..... 130
أولاً:سبب العيوب: 130
1 .الشك في المقسوم:..... 130
2 .فقد الرضى بالمرسوم. 131
ثانياً: دواء العيب: 131
1 .الإعراض عن الطمع، وترك أسبابه..... 131
2 .حسم أصله من الشكّ فيما قسم وعدم الرضى بما كتب للعبد..... 131
3 .رفع همّته العالية بالأخلاق الكريمة: 131
4 .الترفع عن الأخلاق الشنيعة لطمعه:..... 131
العيب السابع والثامن والتاسع والأربعون 132
الحرص على عمارة الدنيا وأخواتها..... 132
الأول: الحرص على جميع حطام الدنيا والتكاثر منها. 132
الثاني: جمع الأموال:..... 133
الثالث: كل ما نهي عن منعه:..... 133
أولاً: سبب العيوب:..... 133
الجهل بحال الدنيا من كونها حقيرة عند الله تعالى: 133

ثانياً: دواء العيب: 134
علمه أن ما يجمعه من حطام الدنيا: 134
العيب الخمسون والحادي والثاني والخمسون 136
استحسانه فعل نفسه دون غيره وأخواته 136
الأول: استحسان أفعاله: 136
الثاني: استحسان ما يعجبه: 137
الثالث: استبعاد فعل المخالف وإن كان يفعله: 137
أولاً: سبب العيب: 137
1. الغفلة عن الرب تعالى: 137
2. شهود العبد نفسه. 137
3. رؤيته لها بعين الرضى والعجب 137
ثانياً: دواء العيب: 138
1. إتهامه لنفسه: 138
2. حسنُ ظنّه بكلِّ جنسه: 138
3. رؤية الحال بعين النقص: 138
4. ذكر ذنبه: 138
العيب الثالث والخمسون 139
إكرام النفس 139

أولاً: سبب العيب: 139
نسيانه ليوم حلوله في رمسه: 139
ثانياً: دواء العيب: 139
الإعراض عنها وقلة الاشتغال بها: 139
العيب الرابع والخمسون 140
الانتصار لنفسه 140
أولاً: سبب العيب: 140
الرضى عن النفس: 140
ثانياً: دواء العيب: 141
1. محبة الدين وغضبه للمعاصي: 141
2. رؤية العبد نفسه بعين الاحتقار: 141
العيب الخامس والخمسون 142
قبول المدح 142
ثانياً: سبب العيب: 143
اغترار العبد بحوله وقوته التي لا تأثير لها في الكائنات: 143
ثانياً: دواء العيب: 143
1. مراقبة الله تعالى: 144
2. عدم الركون لغير الله تعالى: 144

العيب السادس والخمسون..... 144
الاشتغال بالرزق..... 144
أولاً: سبب العيب:..... 145
قلة الثقة بالله تعالى أنه رزاق:..... 145
ثانياً: دواء العيب:..... 145
1. قوة اليقين بالمولى جل جلاله..... 145
2. الثقة بالله تعالى، وعدم اتهامه له فيما ضمنه له:..... 145
العيب السابع والخمسون..... 147
كثرة الذنوب..... 147
أولاً: سبب العيب:..... 147
1. تكثير الذنوب عدم الخشية من الله تعالى..... 147
2. الجهل بعظمة الله تعالى..... 147
3. الاستخفاف بحقوق الربوبية..... 147
4. عدم الصدق في العبودية..... 147
ثانياً: دواء العيب:..... 148
1. كثرة الاستغفار:..... 148
2. توبة تذهب بالإصرار:..... 149
3. صحبة الأخيار والصوام:..... 151

4.حضور الذكر:.....152
5.القيام في آخر الليل وفي الأسحار للذكر والدعاء والاستغفار. 152
العيب الثامن والخمسون 159
رقيق العلم.....159
أولاً: سبب العيب:.....159
1.استمالة أنفس العامة ولكسب الجاه عند الناس: 159
2.إيثار العبد لدنياه:.....159
3.ترك ما يرضي المولى تعالى:.....160
ثانياً: دواء العيب: 160
1.عمله بمواعظه:.....160
2.صحبة الأخيار:.....160
3. العمل بما يعلم:.....160
العيب التاسع والخمسون.....162
طلبها للفرح 162
أولاً: سبب العيب:.....162
1.رضاه عن نفسه. 162
2.عدم إتهامه لها فيما يبدو منها.....163
ثانياً: دواء العيب: 163

1 .استيقاظه من غفلته عما يوجب الحزن: 163
2 .تذكر تقصيره وارتكابه لما نهى الله عنه: 163
3 .تذكر أمور الآخرة: 163
4 .عمله بأن الدنيا دار سجن لا راحة: 164
العيب الستون والحادي والستون 166
اتباع الهوى ورضا النفس 166
الأول: اتباع هوى نفسه: 166
الثاني: السعي لرضى نفسه: 166
أولاً: سبب الأمراض: 166
1 .جهل المتبع هوى نفسه بها: 166
2 .العلم بمآله إن اتبع هواها: 167
3 .إهمال العبد تأديب نفسه: 167
ثانياً: دواء الأمراض: 167
1 .إيثار العبد مولاها تعالى باتباعه مرضاته دون اتباعه هوى نفسه: 167
2 . شغل العبد بما يرضي الحق سبحانه: 168
3 .تهمة العبد نفسه على الدوام: 168
4 . قهرها في سائر الأيام: 168
العيب الثاني والثالث والستون 170

معاشرة الأقران وصحبة الإخوان..... 170
الأول: إيثار العبد صحبة الإخوان:..... 170
الثاني: إيثار معاشرة الأقران:..... 171
أولاً: سبب الأمراض:..... 172
1 .الأنس بالناس:..... 172
2 .نسيان الموت:..... 172
ثانياً: دواء العيوب:..... 172
العلم بمفارقة الأصحاب:..... 172
العيب الرابع والخامس والستون..... 175
الأنس بالطاعة واستحسان أعماله..... 175
الأول: استئناس العبد بطاعته:..... 175
الثاني: استحسان أعماله:..... 175
أولاً: سبب الأمراض:..... 175
1 .فقدان البصيرة التي هي ناظرة القلب. 176
2 .عدم التحقيق في السريرة التي هي الباطن..... 176
ثانياً: دواء العيوب:..... 176
1 .نظر العبد لعلله القادحة في أعمال طاعته..... 176
2 .تذكر زللـه وخطاياه. 176

العيب السادس والستون..... 177
موت النفس باتباع الهوى..... 177
أولاً: سبب العيب:..... 177
1. غفلة الإنسان عن مدافعة الهوى..... 177
2. هفوته عن مجانبته..... 177
3. دم استيقاظه من سنة الغفلة..... 177
ثانياً: دواء العيب:..... 178
1. منعها مرادها..... 178
2. ترك العبد لما له استعدادها:..... 178
3. أخذها بالحزم والإكراه:..... 178
5. اجتناب جميع الملاهي:..... 179
العيب السابع والستون..... 180
أمن مكر الشيطان..... 180
أولاً:سبب العيب:..... 180
1. ضعف إيمانه وفساد اعتقاد..... 180
2. ترك الالتجاء إلى الله تعالى..... 180
ثانياً: دواء العيب:..... 181
1. صحة إيمان العبد بالله تعالى:..... 181

2 .التوكل والإخلاص: 181
3 .التضرع إلى الله تعالى: 181
العيب الثامن والستون 182
التظاهر بالصلاح 182
أولاً: سبب العيب: 183
فقدانه للصدق والإخلاص. 183
ثانياً: دواء العيب: 183
1 .ترك الخشوع الظاهر بقدر ما يرى من خشوع باطن 183
2 .الصدق 183
3 .الإخلاص. 183
العيب التاسع والستون 185
قلة الاعتبار 185
أولاً: سبب العيب: 185
الاغترار بالحلم: 185
ثانياً: دواء العيب: 186
1 .الخشية من الله تعالى: 186
2 .الإمهال ليس إهمال: 189
العيب السبعون 190

إفشاء السر..... 190
ثانياً: سبب العيب: 190
1 .خساسة الفاعل..... 190
2 .نقص الفاعل..... 190
ثانياً: دواء العيب: 190
مراجعة نفسه بما يحبه لها يحبه لأخيه:..... 190
العيب الحادي والسبعون..... 191
الرضى عن النفس في العمل..... 191
أولاً: سبب العيب:..... 192
ثانياً: دواء العيب: 192
1 .طلب الزيادة من الأعمال الصالحات. 192
2 .الحرص على الترقي في الدرجات: 192
3 .طلب الفائدة الدينية:..... 192
العيب الثاني والسبعون..... 193
تحقير المسلمين 193
أولاً: سبب العيب:..... 195
1 .وصف الخيلاء..... 195
2 . التجبر..... 195

ثانياً: دواء العيب: 196
1 .الرجوع إلى وصف التواضع: 196
2 .احترامه لهم على تواضعه لهم: 196
العيب الثالث والرابع والسبعون 199
الكسل والقعود عن الطاعة 199
الأول: الكسل: 199
الثاني: التقاعد عن الطاعات: 200
أولاً: سبب الأمراض: 200
1 .الجهل بنعم الله تعالى عليه: 200
2 . فقد التوجه إليه تعالى: 200
ثانياً: دواء الأمراض: 200
العلم بأنه مأمور من جهة الحق: 200
العيب الخامس والسبعون 202
فعل الخير ظاهر والشر سراً 202
أولاً: سبب العيب: 202
1 .غلبة الرياء: 202
2 .حبه المدح من الناس والثناء منهم: 202
ثانياً: دواء العيب: 203

1 .إصلاح السريرة:..... 203
2 .توبة يمحو بها الجريرة:..... 203
3 .علم العبد بأن ربّه تعالى يراه: 203
العيب السادس والسبعون..... 205
تضييع الأوقات فيما لا يعنيه 205
أولاً: سبب العيب:..... 205
1 .غفلته عن الموت..... 205
2 .جهالته بعزازة الوقت. 205
ثانياً: دواء العيب: 206
1 .اهتمام العبد بوقته فيما يصرفه من الأعمال:..... 206
2 .تجويز هجوم الموت في الوقت الذي هو فيه:..... 206
العيب السابع والسبعون..... 208
الغضب..... 208
أولاً: سبب العيب:..... 209
1 .عزة في النفس..... 209
2 .رؤية الحق لها بين أبناء جنسها. 209
ثانياً: دواء العيب: 210
حمل النفس على الرضا بالقضاء:..... 210

العيب الثامن والسبعون..... 212
الكذب..... 212
أولاً: سبب العيب:..... 213
1. طلب رضا الناس..... 213
2. التزين للناس..... 213
3. طلب الجاه..... 213
ثانياً: دواء العيب:..... 213
1. العلم بقبح الكذب في نفسه:..... 213
2. ترك طلب التباهي:..... 213
3. يرفض الكذب لوجه الله تعالى:..... 214
4. ترك قصد الناس بالكلام:..... 214
العيب التاسع والسبعون..... 214
الشح والبخل..... 214
أولاً: سبب الأمراض:..... 215
1. حب الدنيا:..... 215
2. خوف الفقر:..... 216
2. ضعف الإيمان بالمقدر:..... 216
ثانياً: دواء العيب:..... 217

العلم بحقارة الدنيا: 217
العيب الثمانون 220
بُعد الأمل 220
أولاً: سبب العيب: 220
نسيان الموت: 220
ثانياً: دواء العيب: 220
1. ذكر الموت وقرب الأجل: 220
2. الجد والتشمير في العمل: 221
العيب الحادي والثمانون 223
الاغترار بالمدائح الباطلة 223
أولاً: سبب العيب: 223
1. السخف: 223
2. الحماقة: 223
ثانياً: دواء العيب: 223
1. مدح وذم الخلق لا يوجب كمال الممدوح ولا فائدة فيه: 224
2. عدم الاغترار بكلام الناس مع معرفته بنفسه: 224
العيب الثاني والثمانون 226
الحرص 226

أولاً: سبب العيب: 226
طول الأمل وحب الدنيا: 226
ثانياً: دواء العيب: 227
العلم بوجود النقص إذا وجد الحرص: 227
العيب الثالث والثمانون 229
الحسد 229
أولاً: سبب العيب: 230
1. ضعف الإيمان: 230
2. البعد عن مناهج الإحسان: 230
ثانياً: دواء المرض: 230
1. كثرة الدعاء للمظلوم: 230
2. علم الحاسد أنه عدو النعمة: 231
3. العلم بأنه يريد أن يحكم على قسمة مولاه: 231
العيب الرابع والخامس والثمانون 232
الإصرار والمجاهرة على الذنب 232
الأول: الإصرار على الذنب: 232
الثاني: المجاهرة بالذنب: 233
أولاً: سبب الأمراض: 234

1. الغرور من العبد. 234
2. قلة المبالات بحدود الله تعالى. 234
ثانياً: دواء الأمراض: 234
علم العبد بأن الغفران والرحمة والعفو لأهل الإحسان: 234
العيب السادس والسابع والثمانون 236
الإعراض عن الطاعات والمواعظ 236
أولاً: سبب الأمراض: 236
الدعاوى الباطلة والاغترار: 236
ثانياً: دواء العيب: 237
1. الجوع: 237
2. الأسفار: 237
3. الجهد في الليل والنهار: 237
العيب الثامن والتاسع والثمانون 239
للجمع للمتاع والمنع 239
الأول: الجمع الحطام الدنيا والرغبة فيها: 239
الثاني: منع متاع الدنيا لمستحقها: 239
أولاً: سبب الأمراض: 240
1. البخل: 240

2. خوف الفقر:..... 240
3. حب الدنيا..... 240
ثانياً: دواء الأمراض:..... 241
استشعار العبد قرب أجله، وأن ماله ينتقل لغيره..... 241
العيب التسعون..... 242
صحبة المخالفين..... 242
أولاً: سبب العيب:..... 243
نزوع النفس لفعلهم الفاسد الذميم:..... 243
ثانياً: دواء العيب:..... 243
صحبة أهل الطاعة:..... 243
العيب الحادي والثاني والتسعون..... 247
الغفلة..... 247
الأول: الاسترسال في الغفلة عن الله تعالى:..... 247
الثاني: ترك العمل الصالح حال المهلة:..... 247
أولاً: سبب الأمراض:..... 248
1. نقص يقين العبد بما وصل إليه من نعيم مولاه العظيمة:..... 248
2. غلبة الهوى..... 248
3. عدم النظر في عظيم أوصاف المولى..... 248

4.عدم التفكر في عظيم أفعاله..... 248
5.الغفلة عما الله من الحقوق الواجبة والعبادة اللازمة..... 248
6.استغراق العبد في العالم الأدنى..... 248
ثانياً: دواء الأمراض:..... 248
1.المراقبة:..... 248
2.الجد والتشمير والمطالبة:..... 250
3.كون العبد محاسباً لنفسه صباحاً ومساءً:..... 250
4.أن يكون العبد ذاكراً حلول رمسه:..... 250
العيب الثالث والرابع والتسعون..... 252
ادعاء التجريد وترك العمل..... 252
الأول: التجريد عن التكسب:..... 252
الثاني: ترك العمل والتسبب:..... 252
أولاً: سبب الأمراض:..... 253
1.جهله بأحكام التجريد:..... 253
2.سوء تدبيره:..... 254
3.عدم تفويضه في الأمور لربه:..... 254
ثانياً: دواء العيب:..... 254
التزام الكسب ظاهراً وباطناً:..... 254

العيب الخامس والتسعون 256
الاستغناء عن العلم الظاهر بالدعاوى 256
أولاً: سبب العيب: 257
1. جهل من تلبس بها بأمور الدين: 257
2. عدم التحقيق باليقين: 257
ثانياً: دواء العيب: 258
1. الإفضاء بصاحبها إلى مصيبة في دينه ودنياه: 258
2. أمرنا الله تعالى بإصلاح الظواهر بالعلوم الشرعية: 258
العيب السادس والتسعون 261
استعظام العطاء ومنُّه 261
أولاً: سبب العيب: 262
رؤية العبد ما بيده ملك له بخل به: 262
ثانياً: دواء العيب: 262
رؤية العبد ما أعطاء منة من الله تعالى: 262
العيب السابع والتسعون 264
التظاهر بالفقر مع الكفاية 264
أولاً: سبب العيب: 265
1. الطمع في الخلق خسة العقل: 265

2. فقد اليقين مع عدم الهمة العلية: 265
ثانياً: دواء العيب: 265
إظهار الكفاية مع القلة: 265
العيب الثامن والتسعون 268
رؤية فضله على إخوانه 268
أولاً: سبب العيب: 268
1. جهالته بأصله: 268
2. خسة العقل في فصله: 268
ثانياً: دواء العيب: 269
1. أن يرى العبد عيوب نفسه: 269
2. شهود الفضل للإخوان: 269
العيب التاسع والتسعون 271
استجلاب الفرح باللهو 271
أولاً: سبب العيب: 271
1. جهالة العبد بحال الوقت: 271
2. عدم خوفه من موجبات المقت: 271
ثانياً: دواء العيب: 272
1. العلم بعدم محبة الله تعالى للفرحين: 272

2 .العلم بدوام حزن النبي ﷺ وذكره:..... 272
العيب المئة..... 274
رؤيته لصبره موجب لشكره..... 274
أولاً: سبب العيب:..... 274
وجود الغلظة في النفس:..... 274
ثانياً: دواء العيب:..... 275
رؤية رحمة الله تعالى في كل نعمة ونقمة:..... 275
الثاني والستون: تتبع الرخص:..... 276
الثالث والستون: الإغضاء عن عثراته:..... 279
العية الواحد بعد المئة..... 281
الاغترار بالكرامات والمنامات..... 281
أولاً: سبب العيب:..... 282
1 .الجهل بأن العبرة بالاستقامة لا بالكرامة والمنامة:..... 282
2 .موافقة هوى النفس:..... 282
ثانيا: دواء العيب:..... 284
1 .الإعراض بالقلب عما يبدو للعبد من أنواع الكرامات:..... 284
2 .ترك ما تدعو إليه الأغراض النفسانية:..... 284
3 .الخوف من أن تكون الكرامة والمنامة استدراجاً:..... 284

العيب الثاني بعد المئة 285
محبة مجالسة الأغنياء 285
أولاً: سبب العيب: 286
حب ما في أيدي الأغنياء من متاع الدنيا: 286
ثانياً: دواء العيب: 287
1. جلوس العبد للفقراء: 287
2. تركه لذكر شأن الأمراء: 287
3. العلم بأن حبه للأغنياء طمع في نفسه خفي عنه: 287
العيب الثالث بعد المئة 290
زينة الظاهر وغفلة الباطن 290
أولاً: سبب العيب: 290
2. حب الدنيا والتعلق بها: 291
ثانياً: دواء العيب: 291
1. اليقين بأن إكرام الخلق بما جعل الله تعالى في قلوبهم: 291
2. العلم بأن الباطن هو محل نظر الله تعالى: 291